2274
87772
311

2274.87772.311
Shubbar
al-Akhlāq

DATE	ISSUED TO
FEB 1 1966	Bindery

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library
32101 074334937

السيد عبدالله شبر

الأخلاق

دققه

جواد شبر

حقوق الطبع محفوظة للناشر

١٣٨٤ هـ — ١٩٦٤

Shubbar, ʿAbd Allāh ibn Muḥammad Riḍā

السيد عبدالله شبر

al-Akhlāq

الأخلاق

دققه

جواد شبر

حقوق الطبع محفوظة للناشر

١٩٦٣ م — ١٣٨٣ هـ

مطبعة النعمان - النجف الاشرف

2274
.87772
.311

هذه رسالة الفقيها السيد محمد بن مال الله بن معصــوم القطيفي النجفي المتوفي بكربلاء سنة ١٢٧١ في ترجمـة اسـتاذه السيد عبدالله شبر قدس الله روحيهما . وكان السيد محمد معصوم من اعاظم علماء عصره وعباقرة دهره جمع بين العلم والادب ، كتب فأفاد ونظم فأجاد وهذه الرسالة احدى نفثــات يراعه البليغ تغمده الله برحماته الواسعة .

اعتمدنا بنقل هذه الرسالة على مؤلف العلامة الجليل والبحاثة الشهير شيخنا الشيخ اغا بزرك الطهراني سلمه الله ، المخطوط بخطه والمسمى (اجازات الرواية والوراثة في القرون الاخيرة الثلاثة)

الحمد لله رب العالمين ، الذي رفع قدر العلماء الى اعلا عليين ، وفضل مدادهم على دم المستشهدين ، وجعلهم نواب الائمة الطاهرين ، وخفض من شك في فضلهم الى تحت الثرى وجعل من عظم قدرهم معهم في الرفيق الاعلى والصلاة والسلام على رسوله ونبيه وحبيبه وصفيه وخليله محمد خاتم النبيين، وسيد الاولين والاخرين ، وعلى ابن عمه ووصيه ووارث علمه علي بن ابي طالب امير المؤمنين وسيد الوصيين ، وعلى قرة عيني الرسول فاطمة الزهراء البتول وعلى سبطيهما الحسن والحسين سيدي شباب اهل الجنة من الخلق اجمعين ، وعلى الائمة الطاهرين والحجج الميامين الى يوم الدين .

وبعد فان احق ما اودع في الطرس وتوجهت اليه النفوس من فن التواريخ المحفوظة والسير الملحوظة ، تواريخ العلماء الاعلام ، اذ عليهم مدار العالم من مبدأ نشوء آدم الى يوم الحشر والحساب ، وهم الهداة الى طريق الحق والصواب والادلة على ما ينجي من العقاب ، فكان الواجب على الخلق حفظ تواريخهم وضبط مواليدهم ووفياتهم ونشر ادابهم وسيرتهم ليكون ذلك تذكرة على ممر الاعصار وباعثاً للوقوف على اخبارهم وذريعة للترحم عليهم في اناء الليل والنهار .

وكان احق من نظم في عقد هذا الشأن ، ومن نوه بذكره من افاضل هذا الزمان ، بيان احوال علم العلم الذي لا تباريه الاعلام والبالغ فيما حواه من الفضائل والفواضل الى اعلا مقام الامام الذي تصدر محراب العلم والامامة ، والهمام الذي تسنم صهوة جموح الفضل فملك زمامه الرافع للعلوم ارفع راية والجامع بين الرواية والدراية ، من تشنفت المسامع بفرائد كلامه ، وابتهجت النواظر بما تدبجه انامل اقلامه ، سيدنا المقتدى باثاره ، المهتدى بانواره ، امام محراب العلوم البديعة ، وخطيب منبر البلاغة التي اضحت له مذعنة ومطيعة ، قمر سماء المجد الامثل ، وفلك شمس فخر كل ذي

5-24-69 1916

مقام جليل المحيطة يد بيانه حواجز الاشكال عن وجوه المعاني ، المعترف بمنطقه الفصيح القاصي من هذه الامة والداني ، عمدة المحققين قديما وحديثا ، وملاذ المدققين تفسيرا وحديثا ، بحر الفضائل الذي ساغ وعذب لكل وارد ، وكعبة المجد التي يطوي القفار اليها كل قاصد ، السيد الطاهر الاوحد ، حميد السجايا ومن اشتهرت فضائله كاشتهار الشمس بين البرايا ، حليف المعاني والمكارم ، ومن طوق الاجياد باحسانه طوق الحمائم ، الحبر الذي قصرت عن استيفاء فضائله الارقام ، والنائب عن الائمة الطاهرين الكرام ، الفاضل الذي هو مرجع الفضلاء في التحقيق ، الفاصل بين الادلة اذا اعوز الترجيح والتوفيق ، جامع شمل العلوم العقلية والنقلية ، مقتطف ثمرات المسائل الفرعية من الاصلية ، سيدنا الحليم الاواه ، مولانا الحاج سيد عبدالله ، سلالة العالم المحقق والماهر المدقق مستنبط الفروع من الاصول ، ومرجع الدليل الى المدلول ، علامة الانام وحجة الاسلام ،محي الليل بالعبادة ،ومن استوجب من الله الحسنى وزيادة ، قدوة الفضلاء وبقية العرفاء ، العالم العامل والنحرير الفاضل ، المدقق التقي النقي ،الجليل النبيل ، الورع الزاهد العابد ، والناسك الراكع الساجد ،رب الفضائل والمحامد والمآثر ،حليف النهي والمكارم والمفاخر شمس الخلق وبدر الافاق ، الذي لم يعتر طبعه الرقيق المحاق ، المدبر عن أهل الدنيا الدنية ، والمقبل الى كل عمل يرفع القدر عند رب البرية ، المبجل لدى العلماء الاعلام ، والمشهور بالفضائل لدى الخاص والعام ، والكريم السخي الذي جود كفه باري السحاب ، والمحبوب عند سائر اولي الالباب ، المبرز على كل اهل الفضل في زمانه ، ومجتهد عصره وفريد اوانه ، المتواضع للصغير والكبير والمعظم لدى الجليل والحقير ، من عبقت منه رائحة النبوة والامامة ، وانه فرع من دوحة من ظللته الغمامة ، المستجاب في الاستسقاءات واكرم مبتهل عند رب الارضين والسموات ، اجلء كافة السادات والاشراف ومن لا

يستطاع ذكر مزاياه وما حاز من المكرمات والاوصاف •

يقول الاقل المحب المعلوم بالسيد محمد خلف المرحوم السيد معصوم ، محرر هذه الكلمات • هو أنه قد شاهدت له فضيلة تفوق الفضائل في سنة مجدبة من السنين امر الوالي سعيد باشا جميع اهل بغداد ان يصوموا ثلاثة ايام ويخرجوا للاستسقاء وطلب المطر ، ففعلوا ذلك وخرجوا وكان بعض السحاب في الجو ، فلما دعوا انجلى السحاب واشمست وحجبوا ورجعوا في خيبة وخجل ، وامر السيد المؤمى اليه قدس الله سره ونور ضريحه اهل بلد الكاظمين بالصيام ثلاثة ايام فصاموا وخرج مع جميع اهل البلد الى مسجد براثا حافي الاقدام مبتهلا الى الله تعالى ، ولم يركب دابة مع انه عاجز عن المسير حيث انه كان بدينا جسيما حتى دخل المسجد المذكور ، وصلى ودعا وبكى ، فما اتم دعاءه حتى انسدّ الفضاء بالسحاب وارعدت وابرقت وصبت مطراً سقت جميع اراضي العراق من نواحي بغداد وغيرها ، وهدمت كثيرا من دور اهل بغداد حتى خشى الناس الغرق ورجعنا بخدمته الى البلاد ذاك سيدنا الابهر السيد محمد رضا شبر الحسيني قدس الله روحيهما وجعل في اعلا عليين مقاميهما بمحمد وآله الطاهرين •

وهذا أوان اشروع في أحوال سيدنا ومولانا المتقدم ذكره السيد عبدالله فنقول ، إنا رتبنا لذلك مقدمة وفصول وخاتمة •

اما المقدمة ففي وصفه بالكمال على الاطلاق وما اشتمل عليه من مكارم الاخلاق ووصف سِماته وشكله وهيئته ، واما الفصول فهي خمسة الاول في تعداد مشايخه الذين قرأ عندهم واستفاد منهم واجازوه ، وفي تعداد مصنفاته وما افاده من التحقيقات في المسائل الفائقة والمباحث الرائقة •

الثاني في تعداد تلامذته الذين قرأوا عليه وترددوا اليه ، واخذوا عنه واستفادوا منه ، من العرب والعجم وغيرهم •

الثالث في ذكر أمره في الكتـابة وما لـه فيها من الآيات ومحاسـن المكرمات .

الرابع في تعداد اولاده ومن مات منهم ومن هو موجود الآن

الخامس في ولادته ووفاته ، ومدة ايام عمره

وأما الخاتمة ففي بيان حال وفاته وما جرى على الخلق بعده وما قيل فيه من القصائد ومن قام بالامر بعده .

المقـــــدمة :

حاز قدس الله سره ونور ضريحه من خصال الكمال محاسنها ومآثرها ، وتردى من اصنافها بانواع مفاخرها ،كانت له نفس علية وسجايا سنية ،يفوح منها الفضل ، كان شيخ الامة وفتاها ومبدأ الفضائل ومنتهاها ، ملك من العلوم زماما ، وجعل العكوف عليها فرضا والزاما ، احيى رسمها واعلى اسمها، لم يصرف لحظة من عمره الا في اكتساب الفضيلة ، ووزع اوقاته على ما يعود اليه نفعه في اليوم والليلة اما النهار ففي تدريس ومطالعة وتصنيف ومراجعة ، واما الليل فله فيه استعداد كامل لتحصيل ما يبتغيه من الفضائل ، هذا مع غاية اجتهاده الى مولاه وقيامه باوراد العبادة حتى كلت قدماه ، وهو مع ذلك قائم" باحوال المعيشة احسن قيام على احسن نظام ، وقضاء حوائج المحتاجين باخلاق هي الطف من ماء الغمام ، واحلى من ورد جنيّ هبّ عليه نسيم السحر فتفتحت منه الاكمام . اما الفقه فقد كان قطب مداره وفلك شموسه واقماره ، بل هو نجم سعوده في داره ، صنف فيه فاجاد وبلغ بذلك غاية المراد وناهيك بشرح المفاتيح الكبير الذي لم يسمح الزمان بمثله ولم ينسج ناسج على منواله . واما الحديث فقد مدّ فيه باعا طويلا ، وذلل صعاب معانيه تذليلا ، وشعشع القول فيه وروعه ومدّ في ميدان الاعجاز مطلقه وحتى صار

نصب عينيه عيانا وجعل للسالكين في طرقه تبيانا ،وناهيك (بجامع الاحكام)[1] الذي حوى جميع اخبار اهل البيت عليهم افضل الصلاة والسلام فانه كتاب غريب على طرز عجيب ، يستغنى به من كان عنده عن جميع كتب الاخبار وقد اشتهر اشتهار الشمس في رابعة النهار ، ولكثرة ما صنف والف سيدنا المذكور قد اشتهر في زماننا بالمجلسي الثاني وقد بلغ عطر الله مرقده ـ بسبب كثرة ممارسته الاخبار وشدة تعلقه بملاحظة الآثار ان جماعة من وجوه اهل عصره وجملة من المرتقين الى اعلا مراتب الفضل والكمال من اهل عصره وغير مصره كانوا يمتحنونه بقراءة متن الرواية ويقطعون السند وهو ـ قدس سره ـ يسندها الى قائلها من آل بيت محمد (ص) وقد تكرر ذلك منه ومنهم حتى تجاوز حد الاحصاء وبلغ مبلغا لا يأت له انتهاء ، فكان ذلك يعظم على أولئك العلماء الاعلام حتى استقرت نفوسهم وايقنوا بأن ذلك لا يكون الا كرامة له

---

(١) جامع المعارف والاحكام في الاخبار جمع فيه احاديث الاصوليين والفقه من الكتب الاربعة ، وغيرها يشتمل على عشرين مجلدا وهو كدائرة معارف . وكل هذه المؤلفات مخطوطة واكثرها بخط المؤلف قدس الله سره . ولم يطبع منها غير النزر اليسير ، واليك اسماء المطبوع منها :

١ ـ الحق اليقين ، جزءان ، طبع بمطبعة العرفان ـ صيدا ، وطبع مرة ثانية في النجف الاشرف .

٢ ـ مصابيح الانوار ، جزءان

٣ ـ الوجيز في تفسير القرآن العزيز ، طبع في طهران ـ ايران

٤ ـ احسن التقويم ، طبع مرات عديدة في مطابع الهند والعراق

٥ ـ شرح زيارة الجامعة ، طبع في مطبعة الغري ـ نجف

٦ ـ الاخلاق وهو الكتاب الذي بين يديك وقد سمحت بهمكتبةسيدنا المفضال سماحة السيد عباس شبر سلمه الله نجل سماحة العلامة الجليل السيد محمد حفيد المؤلف السيد عبدالله شبر تغمدهم الله برحماته الواسعة ، ومن الجدير بالذكر ان المكتبة (الشبرية) التي اسسها سماحة السيد عباس شبر. تضم اكثر مؤلفات المترجم له .

اتحفه بها المليك العلام . ولقد نقل انه ذكر عند المجلسي ان العلامة طاب ثراه عدت تصانيفه من يوم ولادته الى حين وفاته فكانت كل يوم كراساً مضافا الى ما كان عليه من مكارم الاخلاق وقضاء الحوائج ومراجعة الملوك وغير ذلك فقال العلامة المجلسي : ونحن بحمد الله لا تقصر تصانيفنا عن ذلك

وسيدنا المذكور اذا تأملت في تصانيفه تراها لا تقصر عن ذلك مضافا الى عبادته ومخالطته للناس وقيامه بمطالبهم وفصل دعاويهم وعيادة مرضاهم وحضور جنائزهم ومراجعة الملوك لما يتعلق بمصالحهم ، فهو آية من آيات الله للعباد وهاديا لهم الى طريق الرشاد ، ولقد كان يجلس في المجلس العام ويصنف والناس جالسون عنده وهو يلاطفهم ويكلمهم كل بما يليق بحاله ، وتأتي في خلال ذلك الدعاوى فيفصلها ويقضي بها على وفق أوامر الله كل ذلك لا يشغله عن التصنيف والتأليف وهذا من الكرامات الظاهرة والآيات الباهرة .

واما علوم القرآن العزيز وتفاسيره من (الوسيط) و (الوجيز) [1] فقد حصل منهم على فوائدها وخاصها وعرف حقائقها ومجازها

واما علم المعقول فقد اتى فيه من الابداع ما اراد وفاق فيه الفضلاء والامجاد ، ان تكلم في علم الاوائل ابهج الاذهان والالباب وولج منها كل باب .

واما علم الرجال فقد سبق فيه المصنفين في هذا المقال

واما الدعاء فقد كتب فيه المختصرات والمطولات

واما اللغة فقد كتب فيه فاحسن وحقق ماتقن ، وله فيها عجيبة في فنها غريبة .

واما الاخلاق فقد صنف فيه ما ينبغي ان يكتب على الاحداق لا في

---

(١) يشير الى مؤلفاته في التفسير وهي (صفوة التفاسير) و (الجوهر الثمين في تفسير القرآن المبين)

بطون الاوراق

واما العرفان فقد كان له فيه شأن وأي شأن ، ولقد اشتمل على فضيلة جميلة ومنقبة جليلة تفرد بها عن ابناء جنسه وحباه الله بها تزكية لنفسه ، وهي ان من المعلوم البين ان العلماء لم يقدروا على نشر العلم من طريق التصنيف والترصيف حتى يتفق لهم من يقوم بجميع المهمات وبذل النفقات اما من ذي سلطان يسخره الله لهم أو ممن يهوى الخير والاحسان . وكان سيدنا المذكور قاطع النظر من جميع البشر ليس له طمع فيما عندهم ، ومع ذلك كان في سعة الحال قد بلغ بها النهاية وتجاوز الغاية ، وبرزت له تصانيف لا تحصى .

ولقد اجتمع مع بعض العلماء ، وكان السيد قد فرغ من قراءة الفاتحة للشيخ المفيد وشيخه ابن قولويه ، فقال له ذلك العالم : يا سيدنا اني اريد ان اسألك عن مسألتين : عن امر المعيشة ، وسرعة التصنيف ، فأجابه السيد بأن أمر المعيشة موكول الى الله عز وجل ، واما سرعة التصنيف فاني قد رأيت الامام سيد الشهداء أبا عبدالله الحسين عليه السلام في عالم الرؤيا فقال لي : اكتب وصنف فانه لا يجف قلمك حتى تموت . وهذه رؤيا صحيحة لانه ورد عنهم عليهم السلام : انه من رآنا فقد رآنا فان الشيطان لا يتمثل بنا . وورد عنهم عليهم السلام : ان الطيف جزء من سبعين جزء من النبوة . وكان الامر كذلك فانه رحمه الله الى مرض موته كان يكتب ويصنف واما شكله فقد كان ربعة من الرجال في القامة ، وكان بدينا سمينا ، ووجهه كأنه القمر بهي المنظر ، وشعر كريمته كأنه سواد السبج ، اذا نظر الناظر الى وجهه وسمع عذوبة لفظه لم تسمح نفسه بمفارقته ، وتسلى عن كل شيء بمخاطبته، وأيم الله انه لفوق ما وصفت ولقد اشتمل على اكثر مما ذكرت .

الفصل الاول في تعداد مشايخه : فمن مشايخه رحمه الله والده العلامة قدوة الافاضل ، ومن لنفسه دائما في طاعة الله باذل ، السيد محمد رضا شبر ، المتقدم ذكره ، فقد قرأ عليه جملة من الزمان ، ومنهم العالم المتبحر

المحقق المدقق الزاهد العابد صاحب التصانيف الرائقة والتحقيقات الفائقة ، اللسن المتقى إمام زمانه ووحيد أوانه سيدنا السيد محسن الاعرجي صاحب (الوسائل) وشرح الوافية ، والمحصول ، وغير ذلك فانه قرأ عليه شطرا من العلوم ، وغيرهما من العلماء والفضلاء ، وقد اجازوه واجازه ايضا العالم الرباني والفرد الاوحد الذي ليس له ثاني ، كعبة الفضلاء التي يطوى اليها القفار كل قاصد وبحر الجود الذي ساغ وعذب لكل وارد ، صاحب الآيات الظاهرة والبراهين الباهرة ، والتحقيقات التي لم يسبقه بها سابق ولم يلحقه بها لاحق ، خاتمة الفقهاء وبقية الفضلاء شيخنا الاكبر الشيخ جعفر النجفي ، وله تصانيف لم يكتب مثلها ، منها (كشف الغطاء) المشتمل على الفروع والتحقيقات ، وقد برز في جملة مجلدات ووصل الى الحج ومنها شرح قواعد العلامة في التجارة ، وجملة من البيع مجلد ، ورسالة في الصلاة ورسالة في الصوم ، ورسالة في الزكوة ، ورسالة في الدعاء ، ورسالة في احكام الجنائز ومنسك في الحج ، ورسالة في العقايد ، وحاشية على المفاتيح ، وغير ذلك من الحواشي واجوبة المسائل طاب ثراه وجعل الجنة مثواه ، وكذلك اجازه العالم المتبحر جامع المعقول والمنقول ، ومستنبط الفروع من الاصول ، ومن اجاز سائر العلماء والمجتهدين ، الشيخ احمد بن زين الدين الاحسائي [1]

واما تعداد مصنفاته [2]

---

(١) وذكر شيخنا البحاثة الشيخ اغا بزرك الطهراني سلمه الله في تعليقة له على الرسالة المخطوطة بخطه ما نصه : وحكى سيدنا الحسن صدر الدين دام ظله انه رأى اجازة الشيخ اسد الله صاحب (المقايس) بخطه للسيد عبدالله شبر .

(٢) اقول لقد عدد كاتب هذه الرسالة مؤلفات السيد المترجم له بتفاصيلها . ولما كنت قد ذكرتها في مقدمة كتاب (مصابيح الانوار في حل مشكلات الاخبار) وهو من مؤلفات سيدنا المترجم له وقد طبع في مطبعتي (الزهراء) و (العلمية) في النجف رأيت لا داعي لاعادتها هنا .

الفصل الثاني في تعداد تلامذته ، فمنهم العالم العامل الفاضل الكامل جامع المعقول والمنقول مستنبط الفروع من الاصول التقي الالمعي الشيخ عبدالنبي الكاظمي فانه قرأ عليه زمانا طويلا ، واستفاد منه واستجازه فاجازه، ولهذا الشيخ مصنفات منها كتاب في الرجال عديم النظير في جامعيته استقصى فيه أحوال الرجال وقضاياهم ، ومن جملة من ذكره سيدنا المذكور فقال:عبدالله ابن السيد محمد رضا شبر الحسيني قرأت عليهما واستفدت منهما وهما ثقتان عينان مجتهدان فقيهان فاضلان ورعان حازا الخصال الحميدة ، والسيد عبدالله سلمه الله حاز جميع العلوم الشرعية من التفسير والفقه والحديث واللغة والاصولين وغيرها فاكثر واجاد وافاد ، وانتشرت اكثر كتبه في الاقطار وملات الامصار ، ولم يوجد احد قط مثله في سرعة التصنيف وجودة التأليف ولنذكر ما وقفت عليه من كتبه ، ثم ذكر ما ذكرناه من المصنفات ، الى ان قال في آخرها .. وهذا الكثير مع مواظبته على كثير من الطاعات كزيارة الأئمة والاخوان والنوافل وقضاء الحوائج ، والقضاء والفتوى الى غير ذلك .

ومنهم العالم العامل والنحرير الكامل المولى الالمعي والعريف اللوذعي حجة الاسلام وكهف الانام شيخنا الشيخ اسماعيل خلف العلامة المرحوم شيخنا ومولانا الشيخ اسد الله قدس الله روحيهما ، ولهذا الشيخ المذكور طاب ثراه كتابه في الاصول الفقهية اسمها (المنهاج) ورسالة في اصول الدين ورسالة في الفتوى ومنسك في الحج الى غير ذلك من الحواشي واجوبة المسائل ، توفي قدس سره في سنة سبع واربعين ومائتين والف .

ومنهم العالم العامل ، والفاضل المدقق الكامل المتبحر الماهر التقي السيد علي العاملي فانه لما هاجر من بلاد الجبل الى العراق للاشتغال ورد الى مشهد الكاظمين فقرأ جملة من العلوم على سيدنا المذكور ، وهذا السيد له بعض التصانيف منها شرح منظومة العالم المتبحر رئيس العلماء على الاطلاق ومن

وقع على فضله الاتفاق بحر العلوم السيد محمد مهدي الطباطبائي طاب ثراه .

ومنهم العالم المحقق زبدة اهل التحقيق وقدوة ارباب التدقيق الامين المؤتمن السيد حسين سلالة سيدنا المذكور فقد قرأ على أبيه جملة من الزمان وله بعض المصنفات منها تتمة شرح نهج البلاغة لوالده السيد المذكور ، وكان على غاية من الصلاح والتقوى ومكارم الاخلاق والورع والعبادة .

ومنهم العالم العامل التقي النقي الشيخ محمد جعفر الدجيلي

ومنهم العالم العامل والفاضل الكامل الشيخ محمد رضا بن المرحوم الشيخ زين العابدين بن الشيخ بها الدين المدفون في مدارس من بلاد الهند ، فانه قرأ عليه جملة من العلوم ولهذا الشيخ شرح على شرائع الاسلام ورسالة في الفتوى .

ومنهم العالم العامل صاحب النظر الدقيق التقي الالمعي مولانا الشيخ احمد البلاغي .

ومنهم العالم الفاضل البارع الكامل الالمعي الشيخ محمد اسماعيل الخالصي .

ومنهم العالم الفقيه والوحيد النبيه افضل الفقهاء اجلّ نواب الأئمة واشرف المتكلفين بايتام الامة ذو الصولة التي لا تجاري والعظمة التي لا تباري شيخنا الشيخ مهدي خلف العلامة الاواه الشيخ اسد الله

ومنهم العالم العامل والفقيه الفاضل ، افضل اهل زمانه على الاطلاق التقي النقي والمولى الصفي ، شيخنا ومولانا الشيخ حسين محفوظ العاملي طاب ثراه . وغيرهم ممن لا يحضرني اسماؤهم .

الفصل الثالث في ذكر امره في الكتابة : اما امره في الكتابة فعجيب غريب ، نشأ من التوفيقات السبحانية والفيوضات الآلهية ، وذلك لكمال الرابطة بينه وبين الملك الجبار ولتمام مجاهدته لنفسه وتصفيتها ، فمذ علم

الله تعالى منه ذلك وانه اهل لذلك افاض عليه من عطاياه الحسنة واتاه في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ، وكان طاب ثراه له سرعة يد في الكتابة الى الغاية تجاوز في ذلك النهاية ، وتصانيفه مع حسنها وما فيها من التحقيقات الرائقة كان يكتب حتى ان الكتاب المنقلة الذين هم يكتبون تحت يديه مصنفاته ومؤلفاته ليس لهم تلك السرعة ، ولقد رأينا له بعض الرسائل يقول فيها : اني شرعت بها عند العشاء وتمت عند نصف الليل .

الفصل الرابع في تعداد اولاده : وهم ستة ذكور ، ممنهم سيدنا ومولانا العالم العامل والفاضل الكامل ، جامع شتات المكارم ونتيجة الاجلاء الاعاظم المنزه عن كل شين ومين سيدنا ومولانا السيد حسين اطال الله بقاه وهو موجود الآن ، كان في لكنهور ثم ارتحل الى كانپور لطيب هوائها وعذوبة مائها .

ومنهم العالم العامل والمحقق الفاضل الامين المؤتمن سيدنا السيد حسن توفي طاب ثراه سنة الطاعون سنة ست واربعين ومائتين والف في مشهد الكاظمين ودفن مع جده وابيه .

ومنهم السيد التقي النقي الامجد الاسعد السيد محمد وقد توفي بمشهد سيد الشهداء ودفن بالرواق الشريف سنة اثنتين وخمسين ومائتين والف .

ومنهم السيد العالم الفاضل والمحقق الكامل جامع شتات الكمالات والمستمد من الائمة الهداة الابهر الافخر السيد جعفر سلمه الله وهو موجود الآن في محروسة اصفهان وله شرح على شرايع الاسلام برز منه اربع مجلدات مبسوطة .

ومنهم السيد موسى توفى سنة الطاعون الذي ذكر فيما سبق ، كان في اوائل البلوغ .

ومنهم السيد محمد جواد توفي مع اخوته في سنة الطاعون المذكورة .

هذه خلاصة الكلام في أولاده اطال الله بقاء الموجودين وافاض سحاب رحمته على الاموات .

الفصل الخامس في ولادته ووفاته : ولد طاب ثراه بالنجف الاشرف سنة ثمان وثمانين ومائة والف ثم ارتحل مع والده الى المشهد الكاظمي وقطن بها الى ان توفي بها سنة اثنين واربعين ومائتين والف ودفن مع والده المبرور بحجرة في رواق الامامين فيكون عمره طاب ثراه اربع وخمسين سنة ، فانظر الى صغر سنه والى تلامذته وتصانيفه وما ذكرناه من جمعه للكمالات تعلم ان ذلك لمزيد التوفيق والتأييد من الملك الحميد والمبدء المعيد .

ـ الخـــاتمة : ـ توفي رحمه الله في مشهد الكاظمين في رجب في ليلة الخميس بعد مضي ست ساعات من الليل ، ولا يحضرني المقـدار من الشهر ولما اصبح الصباح ماجت بلد الكاظمين باسرها ووافى أهل بغداد من الجانبين وكثر الصراخ والبكاء والضجيج ، وكان يوما عظيما مشهودا وحمل على الاعناق الى ان أدخل على الامامين الهمامين موسى والجواد وصلى عليه ولده المؤتمن السيد حسن ودفن بالحجرة كما ذكرناه سابقا ، وصار الناس يومئذ في وحشة عظيمة لما فاتهم من التشرف برؤياه والاكتحال بالنظـر الى محياه ، وقدم العلماء ولده الامين المؤتمن السيد حسن المتقدم ذكره للصلاة في مسجده وصلوا خلفه وجلس رحمه الله واقام له فاتحة عظيمة حضرها الناس جميعا ، واقام له في النجف الاشرف شيخ المشايخ الجلة رئيس المذهب والملة خاتمة المجتهدين وبقية المدققين وكعبة المحققين حافظ الشريعة المحمدية من شبهات الملحدين وعوارض المدلسين ، مربي المشتغلين والنائب عن الائمـة الطاهرين حجة الاسلام ومرجع الخاص والعام صاحب جواهر الكلام الذي لم يسمح الزمان بمثله ولم ينسج ناسج على منواله الامين المؤتمن شيخنا ومولانا واستاذنا جناب الشيخ محمد حسن سلمه الله من المحن مد الله ظلاله

على العالمين كما حفظ به شريعة سيد المرسلين ، وجلس للتعزية وورد عامة اهل النجف لقراءة الفاتحة ونظمت القصائد ومن جملة من رثاه السيد الطاهر الاوحد العالم الأمجد الاسعد الاشد السيد محمد نجل المرحوم المبرور الورع السيد معصوم الموسوي ومنها :

اروح وفي القلب مني شجاً | واغدو وفي القلب مني شجن
ولم يشجني فقد عيش الشباب | وليل الصبا ولذيذ الوسن
ولا هاجني منزل بالحمى | ولا ذكر غانية أو أغن
ولكن شجتني صروف الزمان | بأهل الرشاد ولات الزمن
بسوسى الكلم بدت بالردى | وكم فيه ُردّ الردى والمحن
وثنت بمن لم يكن غيره | إماماً لدينا يقيم السنن
فاخنى الزمان بنجل الرضا | والبسني فيه ثوب الحزن
وناعيه لما نعاه لنا | اذاب الفؤاد واضنى البدن
نعى العالم الهاشمي التقي | نعى من له الفضل في كل فن
فلا غرو ان بكت المكرمات | بدمع كنهل غيث هتن
على من سرى ذكره في البلاد | وشاع بذكر جميل حسن
فيا طود فضل هوى في الثرى | وغيب في طيه اذ بطن
ويا راحلا عن ديار الغرور | فذكر جميلك فينا قطن

ثم اقيمت له في مشهد الامام الحسين عليه السلام فاتحة عظيمة حضرها عامة اهالي كربلاء وكذلك في الحلة ، واما في ايران فقد اقيمت له الفراتح وناحت عليه النوايح وجرت عليه المدامع واجج فقده الوجد بين الاضالع ، وقام بالامر ولده الامين المؤتمن السيد حسن وجلس مكانه ، وحضر عنده تلامذة السيد المرحوم واتم بعض مصنفاته ونعم الخلف والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله اجمعين .

ارخ الخطيب الشهير الشيخ كاظم آل نوح وفاة السيد، كما اثبت ذلك في الجزء الثالث من ديوانه :

خطب دهى فراح عنا راحلا ابن النبي الطـاهر المطهر
وقد بكاه الدين حزنا أرخوا قـد مات عبدالله ابن شبر
١٣٤٢

السيد عبدالله شبر

الأخلاق

دققه

جواد شبر

طبع في مطابع
النعمان
النجف الأشرف
حسن الشيخ ابراهيم الكتبي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أحسن خلق الانسان وفطره على صبغة الايمان وعلمه المعارف والبيان وأنعم عليه بالتفضل والاحسان وأرشده الى اقتناء الفضائل والفواضل وحذره وأنذره عن ارتكاب الرذائل وفرض تحسين الأخلاق الى اجتهاد العبد فيها وتشهيره واستحثه على تهذيبها من الرذائل بتخويفه وتحذيره وسهل عليه تحسينها بتوفيقه وتيسير ما امتن عليه بتسهيل الصعب منها وعسيرها والصلاة على النبي الكريم المنعوت في الفرقان الحكيم بأنك لعلى خلق عظيم وآله القربى الذي حث الله على حبهم وأهل الذكر الذين أمر الله بمسئلتهم واولي الأمر الذين أمر الله بطاعتهم .

اما بعد فيقول العبد المذنب العاصي الغريق في بحار الآثام والمعاصي أفقر الخلق الى ربه الغني عبدالله بن محمد رضا الحسيني رزقهما الله خير الدارين وأذاقهما حلاوة النشأتين وحباهما بما تقر به العين بمحمد وآله المصطفين لا يخفى على أولي البصائر النقادة وذوي الافهام الوقادة فضيلة علم الاخلاق وشرافته وجلالة قدره ورفعة شأنه ونباهته وانه قوام الدين ونظام العالمين وطلبه فرض على جميع المسلمين وبه يحصل التأسي بسيد المرسلين وعترته الطاهرين فإن الأخلاق الحسنة هي المنجيات والأخلاق السيئة هي السموم القاتلة المهلكات المبعدة من جوار رب العالمين والمنخرطة بصاحبها في سلك الشيطان اللعين وأمراض القلوب والنفوس المضرة بالأديان أعظم ضرراً من أمراض الأجساد والأبدان اذ تلك مغوية لحياة الجسد وهذه تفوّت حياة

الأبد ووجوب ذلك الطب كفائي وتعلم هذا الطب واجب عيني وهذه أوراق قليلة حائزة لفوائد جليلة قد اشتملت على زبدة هذا العلم الشريف وجمعت خلاصة هذا الطب المنيف من خصوص أمراض القلوب وتفصيل العلاجات وبيان الخصال المنجيات والرذائل المهلكات وقد رصعت بجواهر الآيات القرآنية ودرر الأحاديث المعصومية والبراهين اليقينية والدلائل العقلية والشواهد النقلية وهي وان صدرت ممن هو من الذين يقولون ما لا يفعلون ويأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم ولا يأتمرون وينهون عن المعاصي والآثام ولا ينتبهون والمواعظ والنصايح ان اصدرت عن مجرد اللسان لم تتجاوز الأسماع وزلت كما يزل الماء عن الصفا وان صدرت عمن اتصف بها أثرت في القلوب كالنقش في الحجر إلا أن العذر في الأول زيادة البصيرة في التقصير والقصور والمقت للنفس والذل والانكسار والاطلاع على بواطن العيوب وقبايح الأمور والعذر فى الثاني انها لم تصدر على لسان المذنب الجاني بل كان مصدرها من معادن الوحي والتنزيل وأرباب العلوم والحقائق والتأويل الذي هبط في بيوتهم جبرئيل وعلماء الدين المبين وقوام شريعة سيد المرسلين ونواب الأئمة الطاهرين وقد رتبتها على مقدمة وأبواب وفصول والتوفيق من الله مسئول والتأييد منه مطلوب ومأمول والعذر عند كرام الناس مقبول وهو حسبي ونعم الوكيل .

مقدمة

وفيها ثلاثة فصول :

الفصل الاول

فى مدح حسن الخلق و ذم سيئه

في الكافي عن الباقر عليه‌السلام قال : ان اكمل المؤمنين ايمانا احسنهم خلقا .

وعن النبي «ص» قال : ما يوضع في ميزان امريء يوم القيامة أفضل من حسن الخلق .

وعن الصادق «ع» قال : ما يتقدم المؤمن على الله عز وجل بعمل بعد الفرائض أحب الى الله تعالى من أن يسع الناس بخلقه .

وعنه (ع) قال : قال رسول الله (ص) : ان صاحب الخلق الحسن له مثل اجر الصائم القائم .

وقال «ص» : اكثر ما تلج به امتي الجنة تقوى الله وحسن الخلق ، يعمران الديار ويزيدان في الاعمار .

وقال (ع) : ان الخلق الحسن ليميث الخطيئة كما تميث الشمس الجليد

وقال «ع» : ان الله تبارك وتعالى ليعطي العبد من الثواب على حسن الخلق كما يعطي المجاهد في سبيل الله يغدو عليه ويروح .

وقال «ع» : ان حسن الخلق يبلغ بصاحبه درجة الصائم القائم .

وسأل رجل رسول الله «ص» عن حسن الخلق ، فتلا قوله تعالى : «خذ

العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين » ، ثم قال «ص» : وهو أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك .

وقال «ص» : بعثت لاتمم مكارم الاخلاق .

وجاء رجل اليه «ص» من بين يديه فقال : يا رسول الله ما الدين ؟ فقال: حسن الخلق . ثم اتاه من قبل يمينه فقال : يا رســول الله ما الدين ؟ فقال : حسن الخلق . ثم اتاه من قبل شماله فقال : ما الدين ؟ فقال : حسن الخلق. ثم اتاه من ورائه فقال: ما الدين؟ فالتفت اليه فقال: أما تفقه ! هو ان لاتغضب.

وقيل : يا رسول الله ما الشوم ؟ فقال : سوء الخلق .

وسئل «ص» : أي الاعمال افضل : فقال : حسن الخلق .

وقال : «ص» سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل .

وقال «ص» : أبى الله عز وجل لصاحب الخلق السيء بالتوبة . قيل : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : اذا تاب من ذنب وقع في ذنب اعظم منه .

وقال الصادق «ع» : ان سوء الخلق ليفسد الايمان كما يفسد الخل العسل .

وقال «ع» : من ساء خلقه عذب نفسه .

وقال بعض العارفين : سوء الخلق سيئة لا ينفع معها كثرة الحسنات ، وحسن الخلق حسنة لا يضر معها كثرة السيئات .

وقال الله تعالى : « ولكم في رسول الله اسوة حسنة » .

قال بعض العلماء: كان رسول الله «ص» أحلم الناس ، واشجع الناس، واعدل الناس ، وأعف الناس ، لم تمس قط يــده يد امرأة لا يملك رقها او عصمة نكاحها او لا تكون ذات رحم محرم منه ، وكان اسخى الناس لا يبيت عنده دينار ولادرهم ، وان فضل ولم يجد من يعطيه فجاءه الليــل لم يأو الى منزله حتى يبرأ منه الى من يحتاج اليه ، وكان يخصف النعل ويرقع الثوب

ويخدم مصالح أهله ويقطع اللحم معهن .

وكان اشد الناس حياءا ، لا يثبت بصره في وجـه أحد ، يجيب دعوة الحر والعبد ، ويقبل الهدية ولو كانت جرعة لبن ويكافيء عليها ، ولا ياكل الصدقة ، ويغضب لربه ولا يغضب لنفسه يعود المرضى ، ويشـهد الجنائز ، ويمشي بين اعدائه وحده بلا حارس . أشد الناس تواضعاً ، وأسكتهم في غير كبر ، وأبلغهم من غير تطويل ، واحسنهم بشراً ، لا يهوله شيء من أمور الدنيا ولم يشبع من خبز بر ثلاثة ايام متوالية حتى لقي الله تعالى ايثاراً على نفسـه لا فقراً ولا بخلاً .

وكان يعصب الحجر على بطنه من الجوع ، ويأكل ما حضر ولا يرد ما وجـد ، ولا يتورع من مطعم حلال ، ويلبس ما وجـد ، ويركب ما امكنه مرة فرساً ومرة بعيراً ومرة بغلة شهباء ومرة حماراً ومرة يمشي راجلاً ، يعود المرضى في أقصى المدينة ، يحب الطيب ويكره الروائح الرديئة ، ويجالس الفقراء ، ويواكل المساكين ، ويكرم أهل الفضل في أخلاقهم ، ويتألف أهل الشرف بالبر لهم ، ويصل ذوي رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم ، ولا يجفو أحداً ، يقبل معذرة المعتذر اليه ، يمزح ولا يقول الا حقاً ، ويضحك من غير قهقهة ، وترفع الاصوات عليه فيصبر ، وما لعن امرأة ولا خادما ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح ، ويبدأ من لقيه بالسلام ، وما اخذ احد بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخذ ، ولا يقوم ولا يجلس الا على ذكر الله .

وكان اكثر جلوسه أن ينصب ساقيه جميعا ويمسك بيديه عليهما شبه الحبوة، ولم يكن يعرف مجلسه من مجلس أصحابه لانه حيث ما انتهى بـه المجلس جلس فيه ، واكثر ما يجلس مستقبل القبلة .

وكان يكرم من يدخل عليه حتى ربما بسط ثوبه لمن ليست بينه وبينه

قرابة ، وكان يؤثر الداخل عليه بالوسادة التي تكون تحته ، فان أبى أن يقبلها عزم عليه حتى يفعل •

وكان ابعد الناس غضبا واسرعهم رضاءا ، وكان أرأف الناس وخير الناس للناس وأنفع الناس للناس ، أفصح الناس منطقا وأحلاهم ، وأوجز الناس كلاما ، يجمع كل ما اراد مع الايجاز ، يتكلم بجوامع الكلم ، طويل السكوت لا يتكلم في غير حاجة ، ولا يقول المنكر ولا يقول في الغضب والرضا الا الحق •

وكان أحب الطعام اليه ما كثرت عليه الايدي ، ولا يأكل الحار ، ويأكل مما يليه ، ويأكل بأصابعه الثلاث وربما استعان بالرابعة ، ويأكل خبز الشعير غير منخول ، وكان لا يأكل الثوم ولا البصل ولا الكراث ، وما ذم طعاما قط ولكن ان أعجبه اكله وان كرهه تركه ، وكان يلعق الصحفة فيقول : آخر الطعام اكثر بركة • ويلعق اصابعه من الطعام حتى تحمر ، وكانت ثيابه كلها مشمرا فوق الكعبين •

وكان «ص» أحلم الناس وارغبهم في العفو مع القدرة ، وكان رقيق البشرة لطيف الظاهر والباطن ، يعرف في وجهه غضبه ورضاه •

وكان «ص» أجود الناس واسخاهم كفا ، وأوسع الناس صدرا ، واصدق الناس لهجة ، وأوفاهم ذمة ، وألينهم عريكة ، واكرمهم عشيرة ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه وما سئل عن شيء على الاسلام قط الا اعطاه •

وقال علي «ع» : لقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي «ص» وهو أقربنا الى العدو ، وكان من أشد الناس يومئذ بأسا •

وقال ايضا : كنا اذا حمي البأس ولقي العدو القوم أتقينا برسول الله «ص» ، فما يكون أحد أقرب الى العدو منه •

وكان «ص» أشد الناس تواضعا في علو منصبه ، يستردف ، ويعود المريض ، ويتبع الجنازة ، ويجيب دعوة المملوك ، ويخصف النعل ويرقع الثوب ، وكان اصحابه لا يقومون له لما عرفوا من كراهته لذلك ، وكان يمر على الصبيان فيسلم عليهم •

واتى «ص» برجل فأرعد من هيبته ، فقال : هوّن عليك فلست بملك ، انما انا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد •

وكان يجلس بين أصحابه مختلطاً بهم كأنه احدهم ، فيأتي الغريب فلا يدري أيهم هو حتى يسأل عنه ، حتى طلبوا اليه أن يجلس مجلساً ، فبنوا له دكاناً من طين ، فكان يجلس عليه •

وكان لا يدعوه احد الا قال : لبيك • وكان اذا جلس مع الناس ان تحدثوا في معنى الآخرة أخذ معهم ، وان تحدثوا في طعام او شراب تحدث معهم ، وان تكلموا في الدنيا تحدث معهم رفقاً بهم وتواضعاً لهم • صلوات الله عليه وعلى أهل بيته الطاهرين •

الفصـــل الثاني

في معنى الخلق وكيفية تهذيبه

الخُلق ـ بالضم ـ عبارة عن الصورة الباطنة ، كما ان الخَلق ـ بالفتح ـ عبارة عن الصورة الظاهرة . يقال : « فلان حسن الخلق والخلق » أي الظاهر والباطن ، ولكل منهما هيئة وصورة إما قبيحة وإما جميلة :

فالخُلق عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الافعال بسهولة ويسر من غير حاجة الى فكر وروية ، فان كان الصادر عن تلك الهيئة أفعالاً جميلة محمودة عقلاً وممدوحة شرعاً سميت تلك الهيئة « خلقا حسنا » ، وان كان الصادر منها أفعالاً قبيحة سميت « خلقاً سيئاً » .

وانما اشترط فيها الرسوخ لان من يصدر عنه بذل المال مثلاً على الندرة لحاجة عارضة لا يقال « خلقه السخاء » ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ .

وانما شرطنا السهولة لان من يكلف بذل المال لا يقال «خلقه السخاء» .

وليس الخلق عبارة عن الفعل ، فرب شخص خلقه السخاء ، ولا يبذل اما لفقد المال أو لمانع آخر ، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل لباعث او رياء ، ولا عبارة عن القدرة لان نسبة القدرة الى الضدين واحدة ، ولا عن المعرفة فان المعرفة تتعلق بالجميل والقبيح جميعا على وجه واحد ، بل هو عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة .

وكما ان حسن الصورة الظاهرة مطلقا لا يتم بحسن العينين دون الانف والفم والخد بل لابد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر ، فكذلك لابد في الباطن من أربعة لابد من الحسن في جميعها حتى يتم حسن الخلق ، فاذا استوت

الاركان الاربعة واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق ، وهي : قوة العلم، وقوة الغضب ، وقوة الشهوة ، وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث :

(أما قوة العلم) فحسنها وصلاحها من أن تصير بحيث يسهل لها درك الفرق بين الصدق والكذب في الاقوال ، وبين الحق والباطل في الاعتقادات وبين الجميل والقبيح في الافعال فاذا تحصلت هذه القوة حصل منها ثمرة الحكمة التي هي رأس الاخلاق الحسنة « ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيراً » •

(وأما قوة الغضب والشهوة) فحسنهما في أن يقتصر انقباضهما وانبساطهما على حد ما تقتضيه الحكمة والدين •

(وأما قوة العدل) فهي ضبط قوة الغضب والشهوة تحت اشارة العقل والشرع ، فالعقل منزلته منزلة الناصح المشير ، وقوته القدرة ومنزلتها منزلة المنفذ الممضي لاشارته ، والغضب والشهوة تنفذ فيهما الاشارة •

ومثال الغضب مثال كلب الصيد ، فانه يحتاج الى ان يؤدب حتى يكون استرساله وتوقفه بحسب الاشارة لا بحسب هيجان النفس ، والشهوة مثالها مثال الفرس الذي يركب في طلب الصيد ، فانها تارة تكون مروضاً مؤدبا وتارة تكون جموحا ، فمن استوت فيه هذه الصفات واعتدلت فهو حسن الخلق مطلقا ، ومن اعتدل فيه بعضها دون بعض فهو حسن الخلق بالاضافة الى ذلك المعنى خاصة ، كالذي يحسن بعض اجزاء وجهه دون البعض •

وحسن القوة الغضبية واعتدالها يعبر عنه بالشجاعة ، وحسن قوة الشهوة واعتدالها يعبر عنه بالعفة ، فان مالت قوة الغضب عن الاعتدال الى طرف الزيادة سمي ذلك تهورا ، وان مالت الى الضعف والنقصان سمي ذلك جبنا وخورا ، وان مالت قوة الشهوة الى طرف الزيادة سمي شرها ، وان مالت الي النقصان سمي خمودا •

والمحمود هو الوسط ، وهو العـدل والفضيلـة ، والطرفان رذيلتان مذمومتان ، والعدل اذا فات فليس له طرفان بزيادة ونقصان ، بل له ضد واحد وهو الجور .

وأما الحكمة فيسمى افراطها عند الاستعمال في الاغراض الفاسدة خبثا وجربزة ، ويسمى تفريطها بلها ، والوسط هو الذي يختص باسم الحكمة .

فاذاً امهات الاخلاق الحسنة والجميلة واصـولها أربعة : الحـكمة ، والشجاعة ، والعفة والعدل .

ولم يبلغ كمال الاعتدال في هذه الاربعة الا رسول الله «ص» ، ولهذا أثنى الله عليه قائلا : « وانك لعلى خلق عظيم » .

والناس بعده يتفاوتون في القرب والبعد ، فينبغي ان يقتدى به ، فانه « ص » قال : بعثت لاتمم مكارم الاخلاق .

وقد اشار الله تعالى الى هذه الاخلاق في أوصاف المؤمنين فقال تعالى : « انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله اولئك هم الصادقون » .

فالايمان بالله ورسوله من غير ارتياب هو قوة اليقين ، وهو ثمرة العقل ومنتهى الحكمة ، والمجاهدة بالمال هو السخاء الذي يرجع الى ضـبط قوة الشهوة ، والمجاهدة بالنفس هي الشجاعة التي ترجع الى استعمال قوة الغضب على شرط العقل وحد الاعتدال ، وقد وصف الله تعالى به قوما فقال : «اشداء على الكفار رحماء بينهم » ، اشارة الى ان للشدة موضعاً وللرحمة موضعاً ، وليس الكمال بالشدة في كل حال ولا في الرحمة بكل حال .

الفصـــل الثالث

قد زعم قوم من القاصرين البطالين انه لا يمكن تغيير الاخلاق وتهذيبها لامرين :

(احدهما) ان الخُلق صورة الباطن كما ان الخَلق صـورة الظاهر ، وكما لا يمكن تغيير صورة الظاهر فكذا لا يمكن تغيير صورة الباطن •

(وثانيهما) أن حسن الخلق انما يحصل بقمع الغضب والشهوة وحب الدنيا وغيرها ، وهذا امر ممتنع والاشتغال به تضييع عمر بـلا فائدة ، فان المطلوب هو قطع التفات القلب الى الحظوظ العاجلة ، وهو محال •

ويقال لهؤلاء القوم الذين لا يكادون يفقهون حديثا : لو كانت الاخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصـايا والمواعظ والتأديبات الشرعية ، ولما حث الشارع على تحسين الاخلاق وانكار حصول هذا المعنى في حق الانسان مع الاعتراف بوقوعه في البهائم ومشاهدة ذلك بالوجدان أمر غريب ، فانا نجد انتقال الصيد من التوحش الى الانس ، والكلب من شره الاكل من الصيد الى التأدب ، والفرس من الجماح الى السـلامة والانقياد • وكل ذلك تغـيير للاخلاق •

وتحقيق الجواب : ان الموجودات منها ما لا مدخل للانسـان في تغييره وتبديله كما لا مدخل له في أصله ، كالسماء والكواكب واعضاء البدن ونحوهما مما وقع الفراغ من وجوده وكماله ، ومنها ما وجد وجودا ناقصـا ونيط به قوة قبول الكمال باختيار الانسان وسعيه ، كالنواة تكون نخـلا وتفاحا ، ، والاخلاق من قبيل القسم الثاني •

والجواب عن الثاني ان الانسان غير مكلف بقلع قوة الغضب والشهوة

بالكلية ، كيف ولو قمعت شهوة الاكل والوقاع لهلك الانسان وانقطع النسل ولو قمع الغضب لم يدفع الانسان عن نفسه ما يهلكه ويهلك ، بل المطلوب ردهما الى الاعتدال والانقياد الى العقل والشرع ، كما تقدمت الاشارة اليه ويأتي تفصيله .

والانبياء الذين هم سادات المجاهدين لم يخلوا من الغضب والشهوة ،وقد مدح الله قوما بقوله : « والكاظمين الغيظ » ولم يقل والفاقدين الغيظ ،وذلك امر ممكن ، وكفى بالوجدان غنا عن البيان .

والطريق الى تحصيل الاخلاق الحسنة حمل النفس على الاعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب ، كأن يتعاطى البخيل البذل والمتكبر التواضع حتى يصير ذلك خلقا وطبعا ، حتى ينتهي الى التلذذ بذلك الفعل ، كما قال صلى الله عليه وآله : « جعلت قرة عيني في الصلاة » .

وكلما طال العمر وكثرت تلك الاعمال والعبادات حصل الرسوخ والكمال في النفس ، وهذا هو السر في طلب الانبياء طول العمر .

وربما كان حسن الخلق بجود الهي وكمال فطري ، بأن يولد كامل العقل حسن الخلق ، قد كفي سلطان الشهوة والغضب . قال الصادق عليه السلام : ان الخلق منحة يمنحها الله خلقه ، فمنه سجية ومنه نية . فقلت: فأيهما أفضل؟ فقال : ان صاحب السجية هو مجبول لا يستطيع غيره وصاحب النية يصبر على الطاعة تصبرا ، فهو أفضلهما .

الركن الاول

في أسرار العبادات ، وفيه أبواب :

الباب الاول

في الطهارة ، وفيه فصول :

الفصل الاول في النية

قال رسول الله «ص» : انما الاعمال بالنيات . وقال الصادق «ع» : نية المؤمن خير من عمله .

أعلم ان النية أصل العبادة ، وبها تمتاز عن العادة ، وتطلق النية على معان أربعة :

(الاول) ما عليه اكثر العامة العمياء من انها اللفظ الذي يتلفظ به حين الشروع في الفعل ، كأن يقول من أراد الوضوء : « اتوضأ لرفع الحدث قربة الى الله تعالى » ونحوه وان لم يكن في قلبه معنى هذه الالفاظ ، وهذا لغو باطل باجماع العلماء .

(الثاني) انها الاخطار بالبال ، بأن تخطر هذه المعاني بباله ويتعقل معانيها ، وهذا قريب من سابقه ايضا ، لان ثمرة النية هي الاخلاص والخلاص من الرياء ، ولعل الداعي للانسان على العمل هو الرياء ونحوه ولا

ينفعه تصور هذه المعاني واخطارها بباله واجرائها على قلبه .

(الثالث) القصد المقارن للفعل ، بأن يكون قاصدا لايقاع الفعل حين الشروع فيه ولا يقع عن سهو وغفلة، وهذا المعنى لا يتصور خلو الفاعل العاقل الغير الذاهل عنه ، ولهذا قال بعض المحققين : لو كلفنا الله بايقاع الافعال بلا نية لكان تكليفا بما لا يطاق .

(والرابع) الداعي والباعث على الفعل ، وهذا هو الحق والمأمور به ، فان كان الداعي للانسان على عباداته وافعاله صحيحا مأمورا به كانت نيته صحيحة وعمله مقبولا وان لم يخطر تلك الالفاظ والمعاني بخاطره ، وان كان الداعي والباعث له امرا فاسدا — من رياء ونحوه — كان عمله باطلا وان اخطر القربة بخاطره وتصور معاني تلك الالفاظ بقلبه .

وهذه النية غير داخلة تحت الاختيار ، لما عرفت من انها انبعاث النفس وتوجهها الى ملائم ظهر لها ان فيه غرضها اما عاجلا أو آجلا ، وما لم يعتقد الانسان ان غرضه منوط بفعل من الافعال فلا يتوجه نحوه قصده ، وذلك مما لا يتمكن من اعتقاده في كل حين بل لابد له من رياضة واجتهاد ، واذا اعتقد فانما يتوجه القلب اذا كان فارغا غير مصروف عنه بغرض شاغل اقوى منه ، وذلك لايمكن في كل وقت .

والدواعي والصوارف لها اسباب كثيرة بها تجتمع ، ويختلف ذلك بالاشخاص والاحوال والاعمال ، فاذا غلبت شهوة النكاح ولم يعتقد غرضا صحيحا في الولد لم يمكنه ان يتزوج على نية الولد ، بل لايمكن الاعلى نية قضاء الشهوة اذ النية هي اجابة الباعث ولا باعث الا الشهوة فكيف ينوي الولد .

نعم طريق اكتساب هذه النية مثلا ان يقوى أولا ايمانه بالشرع، ويقوى ايمانه بعظم ثواب من سعى في تكثير امة محمد (ص) ويدفع عن نفسه جميع المنفرات عن

الولد من ثقل المؤنة وطول التعب وغيره ، واذا فعل ذلك فربما انبعث من قلبه رغبة الى تحصيل الولد للثواب ، فتحركه تلك الرغبة وتحرك أعضاءه لمباشرة العقد ، واذا انتهضت القدرة المحركة للسان بقبول العقد طاعة لهذا الباعث الغالب على القلب كان ناوياً ، واذا لم يكن كذلك فما يقدره في نفسه ويردده في قلبه من قصد الولد وسواس وهذيان .

ولهذا امتنع جمع من العارفين من الطاعات ، حيث لم تحضرهم النية ، وكانوا يعتذرون بعدم حضور النية ، فان النية روح الاعمال ، والعمل بغير نية صادقة رياء او تكلف ، وهو سبب المقت لا القرب .

وعن الصادق «ع» انه أتاه مولىً له فسلم عليه وجلس ، فلما انصرف انصرف معه الرجل ، فلما انتهى الى باب داره دخل وترك الرجل فقال له ابنه اسماعيل : يا ابه ألا كنت قد عرضت عليه الدخول ؟ فقال : لم يكن من شأني ادخاله . قال : فهو لم يكن يدخل ؟ قال : يا بني اني اكره ان يكتبني الله عارضا

الفصل الثاني في الاخلاص

وهو تجريد النية من الشوائب والمفاسد . قال الله تعالى : « وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين » وقال تعالى : « ألا لله الدين الخالص » وقال : « الا الذين تابوا واصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله » .

وفي الكافي عن الرضا (ع) : ان أمير المؤمنين عليه السلام كان يقول : طوبى لمن اخلص لله العبادة والدعاء ، ولم يشغل قلبه بما ترى عيناه ، ولم ينس ذكر الله بما تسمع أذناه ، ولم يحزن صدره بما أعطى غيره .

وعن الصادق عليه السلام في قوله تعالى : « ليبلوكم ايكم احسن عملا » قال : ليس يعني أكثرهم عملاً وانما الاصابة خشية الله والنية الصادقة

والخشية . ثم قال : الابقاء على العمل حتى يخلص أشد من العمل ، والعمل الخالص الذي لا تريد أن يحمدك عليه أحد الا الله عز وجل ، والنية أفضل من العمل ، ألا وان النية هي العمل ، ثم تلا قوله تعالى : « قل كل يعمل على شاكلته » يعني على نيته .

وعن السدي عن الباقر (ع) قال : ما أخلص عبد الايمان بالله أربعين يوماً — أو قال : ما أجمل عبد ذكر الله أربعين يوماً — الا زهده الله في الدنيا ، وبصره داءها ودواءها ، وأثبت الحكمة في قلبه ، وأنطق بها لسانه .

واعلم ان الاخلاص له مراتب متفاوتة :

(أولها) مرتبة الشاكرين ، وهم الذين يعبدون الله تعالى شكراً على نعمائه الغير المتناهية ، كما قال تعالى : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » . وقال أمير المؤمنين عليه السلام في النهج : ان قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار ، وان قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد ، وان قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار .

(ثانيها) عبادة المقربين ، وهم الذين يعبدون الله تقرباً اليه ، والمراد بالقرب إما بحسب المنزلة والرتبة والكمال ، حيث ان واجب الوجود كامل من جميع الجهات والممكن ناقص من جميع الجهات ، فاذا سعى العبد في ازالة النقائص والرذائل عنه قرب قرباً معنوياً ، كما ورد في الحديث « تخلقوا بأخلاق الله » . وأما القرب من حيث المحبة والمصاحبة كما اذا كان شخص بالمشرق وآخر بالمغرب وبينهما كمال المحبة والارتباط ولا يغفل أحدهما عن ذكر صاحبه ونشر مدائحه وكمالاته يقال : بينهما كمال القرب . واذا كانا متقاربين في المكان وبينهما ضد ذلك يقال : بينهما كمال البعد . ويراد بالقرب والبعد المعنويان .

(ثالثها) عبادة المستحيين ، وهم قوم يبعثهم على الأعمال والطاعات الحياء

من الله تعالى ، حيث علموا بأنه مطلع على ضمائرهم وعالم بما في خواطرهم ومحيط بدقائق امورهم ، فاستحوا من أن يبارزوه بالمعاصي وبادروا الى الطاعات والعبادات ، كما ورد « اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فانه يراك » . وفي وصية لقمان لولده : يا بني اذا أردت أن تعصي ربك فاعمد الى مكان لايراك الله فيه .

(رابعها) عبادة المتلذذين ، وهم الذين يلتذون بعبادة ربهم بأعظم مما يلتذ به أهل الدنيا من نعيم الدنيا . ففي الكافي عن الصادق (ع) قال : قال الله تبارك وتعالى : يا عبادي الصديقين تنعموا بعبادتي فى الدنيا فانكم تتنعمون بها فى الآخرة . وعنه عليه السلام قال : قال رسول الله (ص) : أفضل الناس من عشق العبادة فعانقها وأحبها بقلبه وباشرها بجسده وتفرغ لها ، فهو لا يبالي على ما أصبح من الدنيا على عسر أم على يسر . وقال (ص) : جعلت قرة عيني في الصلاة .

(وخامسها) عبادة المحبين ، وهم الذين وصلوا بطاعتهم وعبادتهم الى اعلا درجات الكمال من حب الله تعالى ، كما قال تعالى : « يحبهم ويحبونه » . وقال أمير المؤمنين عليه السلام : فهبني يا الهي صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك . وقال سيد الشهداء في دعاء عرفة : أنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبائك حتى لم يحبوا سواك ولم يلجئوا الى غيرك . وقال (ع) : يا من أذاق أحباءه حلاوة المؤانسة فقاموا بين يديه متملقين . وقال ولده السجاد (ع) في المناجاة الانجيلية : وعزتك لقد أحببتك محبة استقرت في قلبي حلاوتها وأنست نفسي ببشارتها . وقال في المناجاة الاخرى : الهي فاجعلنا من الذين ترسخت أشجار الشوق اليك في حدائق صدورهم ، وأخذت لوعة محبتك بمجامع قلوبهم . وفي الحديث القدسي : يابن عمران كذب من زعم انه يحبني فاذا جنه الليل نام عني ، أليس كل محب يحب خلوة حبيبه .

(وسادسها) عبادة العارفين ، وهم الذين بعثهم على العبادة كمال معبودهم وانه أهل للعبادة فعبدوه ، كما قال سيد العارفين وأمير المؤمنين (ع) : إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك .

(وسابعها) عبادة الله لنيل ثوابه أو الخلاص من عقابه ، وهذه العبادة قد اختلف فيها : فذهب جماعة من أصحابنا الى بطلانها ، وهو المحكي عن السيد ابن طاووس والفاضل المقداد وابن جمهور اللحسائي والشهيد الأول في ظاهر الدروس والقواعد ، لأن هذا القصد منافٍ للاخلاص الذي هو ارادة وجه الله سبحانه وحده ، وان من قصد ذلك فانما قصد جلب النفع الى نفسه ودفع الضرر عنها لا وجه الله سبحانه ، والأصلح الصحة للآيات القرآنية والأحاديث المعصومية كقوله تعالى : « لمثل هذا فليعمل العاملون » وقوله تعالى : « وادعوه خوفاً وطمعاً » وقوله : « ويدعوننا رغباً ورهبا » وقوله : « يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا وافعلوا الخير لعلكم تفلحون » أي راجين الفلاح وهو الفوز بالثواب ، وقوله تعالى : « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا » .

وما ورد في الأخبار المتظافرة بطرق عديدة من أن من بلغه ثواب على عمل فعمله ابتغاء ذلك الثواب أوتيه وان لم يكن الأمر كما بلغه . وقال الصادق عليه السلام : العباد ثلاثة : قوماً عبدوا الله عز وجل خوفاً فتلك عبادة العبيد ، وقوم عبدوا الله طلباً للثواب فتلك عبادة الأجراء وقوم عبدوا الله عز وجل حباً له فتلك عبادة الأحرار ، وهي أفضل العبادة . والأفضلية تستلزم وجود الفضيلة . ونحو ذلك الأخبار الواردة في الأعمال المأمور بها لقضاء الحوائج وتحصيل الولد أو المال والتزويج أو الشفاء أو طلب الخيرة

أو نحو ذلك ، ولو كان مثل هذه النيات مفسداً للعبادات لكان الترغيب والترهيب والوعد عبثاً بل مخلاً بالمقصود •

وكيف يمكن للعبد الضعيف الذليل الذي لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً أن يستغني عن جلب النفع من مولاه لنفسه أو دفع الضرر عنها ، والعبادة المقصود بها الثواب أو الخلاص من العقاب انما وقعت بأمره تعالى ، فطالبها طالب لرضاه وأمره •

وتكليف سائر الناس بتلك المراتب العلية والدرجات السنية لعله تكليف بالمحال ، فإن أكثر الناس لا يسعهم تلك القصود ، وتلك المراتب مختصة بهم عليهم السلام ومن يقرب من مرتبتهم كسلمان وأبي ذر والمقداد ، ومن ادعى تلك المراتب فانما يصدق في دعواه اذا علم من نفسه انه لو أيقن أن الله تعالى يدخله بطاعته وعبادته النار وبمعصيته الجنة يختار الطاعة ويترك المعصية ، وأين عامة الخلق من هذه الدرجة ؟!

نعم ربما يتجه ذلك بناءاً على زعم من زعم ان النية هي الاخطار بالبال وان لم يكن له داع وباعث على القرب ، وقد عرفت خلافه ، فإن الداعي والباعث على القرب اذا لم يكن حاصلاً قبل فلا يمكن الاتيان به بتصوير بالجنان أو نطق باللسان •

وان كنت في ريب من ذلك فانظر الى نفسك حين يغلب عليها حب التدريس لاظهار الفضيلة والصيت وحب العبادة لاستمالة القلوب ومع ذلك اخطرت ببالك حين ايقاعهما انك تدرس هذا الدرس وتعبد هذه العبادة قربة الى الله تعالى كنت بمعزل عن الاخلاص ، وكان اخطارك ذلك من الخناس الذي يوسوس في صدور الناس ، ولم ينفعك ذلك الاخطار ، ولم يخلصك عن استحقاق النار ، وكان ذلك كاخطار الشبعان اشتهى هذا الطعام قاصداً حصول الاشتهاء •

واعلم ان الطريق الي الاخلاص كسر حظوظ النفس ، وقطع الطمع عن

الدنيا ، والتجرد للآخرة بحيث يغلب ذلك على القلب ، وكم من أعمال يتعب الانسان فيها ويظن انها خالصة لوجه الله تعالى ويكون فيها مغروراً لأنه لا يدري وجه الآفة فيها ، كما حكي عن بعضهم انه قال : قضيت صلاة ثلاثين سنة كنت صليتها في المسجد جماعة في الصف الأول لأني تأخرت يوماً لعذر ، وصليت في الصف الثاني فاعترتني خجلة من الناس حيث رأوني في الصف الثاني ، فعرفت ان نظر الناس الي فى الصف الأول كان يسرني ، وكان سبب استراحة قلبي من ذلك من حيث لا أشعر .

وهذا باب دقيق غامض قلما تسلم الأعمال عن مثل ذلك ، وقل من يتنبه له .

والغافلون عنه يرون حسناتهم في الآخرة كلها سيئات ، وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ، وبدا لهم سيئات ما عملوا ، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً .

الفصل الثالث

فى مجمل القول فى الطهارة والنظافة

قال الله سبحانه : « رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين » .

وقال النبي (ص) : الطهور نصف الايمان . وقال : مفتاح الصلاة الطهور . وقال : بني الدين على النظافة . وقال : بئس العبد القاذورة .

قال بعض العارفين : ليتفطن ذوو البصائر بهذه الظواهر أن الايمان انما يتم بعمارة القلوب والسرائر ، وان المراد بقوله صلى الله عليه وآله وسلم

« الطهور نصف الايمان » ان عمارة الظاهر بالتطهير والتنظيف بافاضة الماء نصف الايمان ، والنصف الآخر عمارة الباطن بالأعمال الصالحة والاخلاق الحميدة •

والطهارة لها أربع مراتب : «الأولى» تطهير الظاهر من الأحداث والاخباث والفضلات• «والثانية» تطهير الجوارح من الجرائم والآثام والتبعات •«والثالثة» تطهير القلب من مساوىء الأخلاق ورذائلها • « والرابعة » تطهير السر مما سوى الله جل وعلا ، وهي طهارة الأنبياء والصديقين • والطهارة في كل رتبة نصف العمل الذي فيها •

وهذه مقامات الايمان ، ولكل مقام طبقة ، ولن ينال العبد الطبقة العالية الا أن يتجاوز الطبقة السافلة ، فلا يصل الى طهارة السر مما سوى الله تعالى وعمارته بمعرفة الله وانكشاف جلاله وعظمته سبحانه ما لم يفرغ عن طهارة القلب من الخلق المذموم وعمارته بالمحمود ، ولن يصل الى ذلك من لم يفرغ عن طهارة الجوارح من المناهي وعمارتها بالطاعات والعبادات •

الفصل الرابع

فى أسرار ازالة النجاسة والتخلي لقضاء الحاجة

قال الشهيد الثاني : ليتذكر بذلك تطهير القلب من نجاسة الأخلاق ومساويها ، فانك اذا أمرت بتطهير ظاهر الجلد ــ وهو القشر ــ وتطهير الثياب وهي أبعد عن ذاتك فلا تغفل عن تطهير لبك الذي هو ذاتك وهو قلبك،

فاجتهد فى تطهيره بالتوبة والندم على ما فرط ، وتصميم العزم على ترك العود في المستقبل ، وطهر بها باطنك فانه موقع نظر المعبود .

وتذكر لتخليك لقضاء الحاجة نقصك وحاجتك ، وما تشتمل عليه من الأقذار وما في باطنك ، وأنت تزين ظاهرك للناس والله تعالى مطلع على خبث باطنك وخسة حالك ، فاشتغل باخراج نجاسات الباطن والأخلاق الداخلة في الأعماق المفسدة ، لكن لا على الاطلاق لتستريح نفسك عند اخراجها ويسكن قلبك من دنسها ويخف لبك من ثقلها ، وتصلح للوقوف على بساط الخدمة والتأهل للمناجاة .

قال الصادق عليه السلام ـ أي في مصباح الشريعة ـ : سمي المستراح مستراحاً لاستراحة النفوس من أثقال النجاسات واستفراغ الكثافات والقذر فيها .

والمؤمن يعتبر عندها ان الخالص من حطام الدنيا كذلك تصير عاقبته ، فيستريح بالعدول عنها ويتركها ويفرغ نفسه وقلبه عن شغلها ، ويستنكف عن أخذها وجمعها استنكافه عن النجاسة والغائط والقذر ، ويتفكر في نفسه المكرمة فى حال كيف تصير ذليلة في حال .

ويعلم ان التمسك بالقناعة والتقوى يورث له راحة الدارين ، فإن الراحة في هوان الدنيا والفراغ من التمتع بها ، وفي ازالة النجاسة من الحرام والشبهة فيغلق عن نفسه باب الكبر بعد معرفته اياها ، ويفر من الذنوب ، ويفتح باب التواضع والندم والحياء ، ويجتهد في أداء أوامره واجتناب نواهيه ، طلباً لحسن المآب وطيب الزلف ، ويسجن نفسه في سجن الخوف والصبر والكف عن الشهوات الى أن يتصل بأمان الله في دار القرار ويذوق طعم رضاه ، فان المعول ذلك وما عداه لا شيء .

الفصل الخامس

فى السواك

قال (ص) : صلاة على أثر سواك أفضل من خمس وسبعين صلاة بغير سواك .

وقال الصادق (ع) : اذا قمت بالليل فاستك ، فإن الملك يأتيك فيضع فاه على فيك وليس من حرف تتلوه الاصعد به الى السماء ، فليكن قولك طيب الريح .

وفي مصباح الشريعة قال الصادق (ع) : قال النبي (ص) : السواك مطهرة للفم ،مرضاه للرب .

وجعلها من سننه المؤكدة ، وفيها منافع للظاهر والباطن ما لا يحصى لمن عقل . وكما تزيل ما تلوث من اسنانك من مطعمك ومأكلك بالسواك كذلك فأزل نجاسة ذنوبك بالتضرع والخشوع والتهجد والاستغفار بالأسحار ، وطهر باطنك وظاهرك من كدورات المخالفات وركوب المناهي كلها خالصاً لله تعالى ، فان النبي صلى الله عليه وآله أراد باستعماله مثلاً لأهل اليقظة ، وهو أن المسواك نبات لطيف نظيف وغصن شجر عذب مبارك .

والأسنان خلق خلقه الله تعالى في الحلق آلة وأداة للمضغ وسبباً لاشتهاء الطعام واصلاح المعدة ، وهي جوهرة صافية تتلوث بما يمضغ من الطعام وتتغير بها رائحة الفم ، ويتولد منها الفساد في الدماغ ، فاذا استاك المؤمن الفطن بالنبات اللطيف ومسحه على الجوهرة الصافية أزال عنها الفساد والتغير وعادت الى أصلها ، كذلك خلق الله القلب طاهراً صافياً ، وجعل غذاءه الفكر

والذكر والهيبة والتعظيم ، واذا شيب القلب الصافي فعدلته بالغفلة والكدر صقل بمصقلة التوبة ونظف بماء الانابة ، ليعود الى حالته الأولى ، وجوهرته الأصلية الصافية . قال الله عز وجل : «ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين» .

وان النبي صلى الله عليه وآله أمرنا باستواك ظاهر الاسنان وأراد بهذا المعنى المثل ، ومن أناخ تفكره على باب العبرة في استخراج مثل هذه الأمثال فى الأصل والفرع فتح الله له عيون الحكمة ، والمزيد من فضل الله والله لا يضيع أجر المحسنين .

الفصل السادس

فى الوضوء

قال النبي (ص) : من توضأ فذكر اسم الله طهر جميع جسده ، وكان الوضوء الى الوضوء كفارة لما بينهما من الذنوب ، ومن لم يسم لم يطهر جسده الا ما أصابه الماء .

وكأن السر في ذلك ان التسمية تنبه القلب وتطهره عن الغفلة عن ذكر الله ، واذا طهر القلب الذي هو الرئيس طهرت جميع الأعضاء .

قال الشهيد الثاني (ره) : اما الطهارة فليستحضر في قلبه ان تكليفه فيها بغسل الأطراف الظاهرة وتنظيفها لاطلاع الناس عليها ، ولكون تلك الأعضاء مباشرة للأمور الدنيوية المنهمكة في الكدورات الدنية ، فلأن يطهر مع ذلك قلبه الذي هو موضع نظر الحق تعالى ، فانه لا ينظر الى صوركم ولكن ينظر الى قلوبكم ، ولأنه الرئيس الأعظم لهذه الجوارح والمستخدم لها في الأمور المبعدة عن جنابه تعالى وتقدس أولى واحرى ، بل هذا تنبيه واضح على ذلك وبيان شاف لما هنالك .

وليعلم من يطهر تلك الأعضاء عند الاشتغال بعبادة الله تعالى والاقبال عليه والالتفات عن الدنيا ، فلذلك أمر بالتطهير من الدنيا عند الاشتغال والاقبال على الأخرى ، فأمر في الوضوء بغسل الوجه لأن التوجه والاقبال بوجه القلب على الله به ، وفيه أكثر الحواس الظاهرة التي هي أعظم الأسباب الباعثة على مطالب الدنيا ، فأمر بغسله ليتوجه به وهو خال من تلك الأدناس ، ويترقى بذلك الى تطهير ما هو الركن الأعظم في القياس •

ثم أمر بغسل اليدين لمباشرتهما أكثر احوال الدنيا الدنية والمشتهيات الطبيعية •

ثم أمر بمسح الرأس لأن فيه القوة المفكرة التي يحصل بواسطتها القصد الى تناول المرادات الطبيعية ، وتنبعث الحواس حينئذ الى الاقبال على الامور الدنيوية المانع من الاقبال على الآخرة السنية •

ثم بمسح الرجلين لأن بهما يتوصل الى مطالبه ، ويتوسل الى تحصيل مآربه على نحو ما ذكر في باقي الأعضاء ، وحينئذ فيسوغ له الدخول في العبادة والاقبال عليها فائزاً بالسعادة — انتهى •

وفي مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام : اذا أردت الطهارة والوضوء فتقدم الى الماء تقدمك الى رحمة الله ، فان الله قد جعل الماء مفتاح قربته ومناجاته ، ودليلاً الى بساط خدمته ، وكما ان رحمته تطهر ذنوب العباد كذلك نجاسات الظاهر يطهرها الماء لا غيره ، قال الله تعالى : « وهو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماءاً طهوراً » وقال عز وجل : « وجعلنا من الماء كل شيء حي » ، فكما احيى به كل شيء من نعيم الدنيا كذلك بفضله ورحمته حياة القلوب بالطاعات •

وتفكر في صفاء الماء ورقته وطهوره وبركته ولطيف امتزاجه بكل شيء وفي كل شيء ، واستعمله في تطهير الأعضاء التي أمرك الله بتطهيرها ، وآت

بآدابها فرائضه وسننه ، فان تحت كل واحدة منها فوائد كثيرة ، اذا استعملتها بالحرمة انفجرت لك عين فوائده عن قريب .

ثم عاشر خلق الله كامتزاج الماء بالأشياء ، يؤدي كل شيء حقه ولا يتغير عن معناه معتبراً لقول رسول الله (ص) : مثل المؤمن الخاص كمثل الماء .

ولتكن صفوتك مع الله في جميع طاعاتك كصفوة الماء حين انزله من السماء وسماه طهوراً ، وطهر قلبك بالتقوى واليقين عند طهارة جوارحك بالماء .

وفي علل الفضل بن شاذان عن الرضا عليه السلام : انما أمر بالوضوء ليكون العبد طاهراً اذا قام بين يدي الجبار عند مناجاته اياه ، مطيعاً له فيما أمره ، نقياً من الأدناس والنجاسة ، مع ما فيه من ذهاب الكسل وطرد النعاس، وتزكية الفؤاد للقيام بين يدي الجبار .

وانما وجب على الوجه واليدين والرأس والرجلين ، لأن العبد اذا قام بين يدي الجبار فانما ينكشف من جوارحه ويظهر ما وجب فيه الوضوء ، وذلك انه بوجهه يسجد ويخضع وبيده يسأل ويرغب ويرهب ويتبتل وبرأسه يستقبله في ركوعه وسجوده وبرجليه يقوم ويقعد .

الفصل السابع
في أسرار الغسل والتيمم

قال الشهيد الثاني : أمر في الغسل بغسل جميع البشرة ، لأن أدنى حالات الانسان وأشدها تعلقاً وتملكاً بالملكات الشهوية حالة الجماع وموجبات الغسل ، ولجميع بدنه مدخل في تلك الحالة ، ولهذا قال رسول الله (ص) : ان تحت كل شعرٍ جنابة .

فحيث كان جميع بدنه بعيداً عن المرتبة العلية منغمساً في اللذات الدنية كان غسله أجمع من أهم المطالب الشرعية ، ليتأهل لمقابلة الجهة الشريفة والدخول في العبادة المنيفة ، ويبعد عن القوى الحيوانية واللذات الدنيوية .

ولما كان للقلب من ذلك الحظ الأوفر والنصيب الأكمل كان الاشتغال بتطهيره من الرذائل والتوجهات المانعة من درك الفضائل اولى من تطهير تلك الأعضاء الظاهرة عند اللبيب العاقل .

وأمر بالتيمم بمسح تلك الأعضاء بالتراب عند تعذر غسلها بالماء الطهور وضعاً لتلك الأعضاء الرئيسية وهضماً لها بتلقيها بأثر التربة الخسيسة .

وهكذا يخطر بباله أن القلب اذا لم يمكن تطهيره من الأخلاق الرذيلة وتحليته بالأوصاف الجميلة فليقمه في مقام الهضم والازراء ويسقه بسياط الذل والأغضاء ، عسى أن يطلع عليه مولاه الرحيم وسيده الكريم ، وهو منكسرمتواضع ، فيهبه نفحة من نفحات نوره اللامع ، فانه عند القلوب المنكسرة كما ورد في الأثر ، فترق من هذه الاشارات ونحوها الى ما يوجب لك الاقبال وتلافي سالف الاهمال — انتهى .

وقال الرضا (ع) في تتمة الرواية السابقة : وأمر بالغسل من الجنابة دون الخلاء لأن الجنابة من نفس الانسان ، وهو شيء يخرج من جميع جسده ، والخلاء ليس هو من نفس الانسان ، انما هو غذاء يدخل من باب ويخرج من باب .

وفي رواية اخرى عنه (ع) : وعلة التخفيف في البول والغائط انه أكثر وأدوم من الجنابة فرضي فيه بالوضوء لكثرته ومشقته ومجيئه بغير ارادة منه ولا شهوة ، والجنابة لا تكون الا بالاستلذاذ منهم لأنفسهم .

الفصل الثامن
في الاستحمام

قال أمير المؤمنين عليه السلام : نعم البيت الحمام ، يذكر فيه النار ويذهب بالدرن .

قيل : فيه اشارة الى انه ينبغي للعاقل أن لا يغفل عن ذكر الآخرة في لحظاته ، فانها مصيره ومستقره ، فيكون له في كل ما يراه من ماء أو نار أو غيرهما عبرة وموعظة ، فان نظر الى ظلمة تذكر ظلمة اللحد ، وان سمع صوتاً هائلاً تذكر نفخة الصور ، وان رأى شيئاً حسناً تذكر نعيم الجنة ، وان سمع كلمة رد أو قبول تذكر ما ينكشف له في آخر أمره بعد الحساب من الرد والقبول ... الى غير ذلك .

والحمام أشبه شيء بجهنم النار من تحت والظلام من فوق ، فينبغي أن يتذكر حر النار بحرارته ، ويقدر نفسه محبوساً في البيت الحار ساعة ويقيسه الى جهنم ويستعيذ بالله منها .

قال الصادق عليه السلام : فاذا دخلت البيت الثالث فقل : « نعوذ بالله من النار ونسأله الجنة » ترددها الى وقت خروجك من البيت الحار .

الفصل التاسع
في سماع الأذان

قال أبو حامد : اذا سمعت نداء المؤذن فاحضر في قلبك هول النداء يوم القيامة ، وتشمر بظاهرك وباطنك للاجابة والمسارعة ، فان المسارعين الى هذا النداء هم الذين ينادون باللطف يوم العرض الأكبر ، فأعرض قلبك على هذا

النداء ، فان وجدته مملوءاً بالفرح والاستبشار مشحوناً بالرغبة الى الابتدار فاعلم انه يأتيك النداء بالبشرى والفوز يوم القضاء ، ولذلك قال (ص) : « أرحنا يا بلال » أي ارحنا بها وبالنداء اليها اذ كانت قرة عينه فيها — انتهى •

وقال الشهيد الثاني (ره) : واعتبر بفصول الأذان وكلماته كيف افتتحت بالله واختتمت بالله ، واعتبر بذلك ، ان الله جل جلاله هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، ووطن قلبك بتعظيمه وتكبيره عند سماع التكبير ، واستحقر الدنيا وما فيها لئلا تكون كاذباً في تكبيرك ، وانف عن خاطرك كل معبود سواه بسماع التهليل ، وأحضر النبي (ص) وتأدب بين يديه ، وأشهد له بالرسالة مخلصاً ، وصل عليه وآله ، وحرك نفسك واسع بقلبك وقالبك عند الدعاء الى الصلاة ، وما يوجب الفلاح ، وما هو خير الأعمال وأفضلها ، وجدد عهدك بعد ذلك بتكبير الله وتعظيمه ، واختمه بذكره كما افتتحت به ، واجعل مبدئك منه وعودك اليه وقوامك به ، واعتمادك على حوله وقوته ، فإنه لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم •

الفصل العاشر
في الوقت

قال الشهيد الثاني : استحضر عند دخوله انه ميقات جعله الله لك ، لتقوم فيه بخدمته ، وتتأهل للسؤال في حضرته والفوز بطاعته ، وليظهر على قلبك السرور وعلى وجهك البهجة عند دخوله ، لكونه سبباً لقربك ووسيلة الى فوزك ، واستعدله بالطهارة والنظافة ولبس الثياب الصالحة للمناجاة ، كما تتأهب عند القدوم على ملك من ملوك الدنيا ، وتلقاه بالوقار والسكينة

والخوف والرجاء ، واستحضر عظمة الله وجلاله ، ونقصان قدرك وكماله .

وقد روي أن بعض أزواج النبي (ص) قالت : كان رسول الله (ص) يحدثنا ونحدثه فاذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه شغلاً بالله عن كل شيء .

وكان علي (ع) اذا حضر وقت الصلاة يتململ ويتزلزل ، فيقال له : مالك يا أمير المؤمنين ؟ فيقول : جاء وقت أمانة عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها .

وكان علي بن الحسين عليه السلام اذا حضر الوضوء اصفر لونه .

الفصل الحادي عشر

في لباس المصلي

قال أبو حامد : وأما ستر العورة فاعلم ان معناه تغطية مقابح بدنك عن أبصار الخلق ، فإن ظاهر بدنك موقع نظر الخلق ، فما رأيك في عورات باطنك وفضائح سرك التي لا يطلع عليها الا ربك ، فأحضر تلك الفضائح ببالك وطالب نفسك بسترها ، وتحقق انه لا يسترها عن عين الله ساتر وانما يكفرها الندم والحياء والخوف ، فتستفيد باحضارها في قلبك انبعاث جنود الخوف والحياء من مكامنها ، فتذل به نفسك وتسكن تحت الخجلة قلبك .

وتقوم بين يدي الله قيام العبد المجرم المسيء الآبق الذي ندم فرجع الى مولاه ناكساً رأسه من الحياء والخوف .

وفي مصباح الشريعة : قال الصادق عليه السلام : أزين اللباس للمؤمنين لباس التقوى ، وانعمه الايمان ، قال الله عز وجل : « ولباس التقوى ذلك

خير » ، وأما اللباس الظاهر فنعمة من الله يستر بها عورات بني آدم ، وهي كرامة أكرم الله بها عباده ذرية آدم عليه السلام ما لم يكرم بها غيرهم ، وهي للمؤمنين آلة لأداء ما افترض الله عليهم .

وخير لباسك ما لا يشغلك عن الله تعالى بل يقربك من شكره وذكره وطاعته ، ولا يحملك على العجب والرياء والتزين والمفاخرة والخيلاء ، فانها من آفات الدين ومورثة القسوة في القلب ، واذا لبست ثوبك فاذكر ستر الله عليك ذنوبك برحمته .

وألبس باطنك بالصدق كما ألبست ظاهرك بثوبك ، وليكن باطنك في ستر الرهبة وظاهرك في ستر الطاعة ، واعتبر بفضل الله عز وجل ، حيث خلق أسباب اللباس لتستر العورات الظاهرة ، وفتح أبواب التوبة والانابة لتستر بها عورات الباطن من الذنوب واخلاق السوء .

ولا تفضح أحداً حيث ستر الله عليك أعظم منه ، واشتغل بعيب نفسك ، واصفح عما لا يعنيك حاله وأمره .

واحذر أن تفني عمرك بعمل غيرك ، ويتجر برأس مالك غيرك وتهلك نفسك ، فان نسيان الذنوب من أعظم عقوبة الله تعالى فى العاجل وأوفر أسباب العقوبة في الآجل ، وما دام العبد مشتغلاً بطاعة الله ومعرفة عيوب نفسه وترك ما يشين في دين الله فهو بمعزل من الآفات ، خائض في بحر رحمة الله ، يفوز بجواهر الفوائد من الحكمة والبيان ، وما دام ناسياً لذنوبه جاهلاً بعيوبه راجعاً الى حوله وقوته لا يفلح أبداً .

الفصل الثاني عشر
فى مكان المصلي

قال الشهيد الثاني (ره) : استحضر فيه انك كائن بين يدي ملك الملوك ، تريد مناجاته والتضرع اليه والتماس رضاه ونظره اليك بعين الرحمة ، فانظر مكاناً يصلح لذلك كالمساجد الشريفة والمشاهد المطهرة مع الامكان ، فانه تعالى جعل تلك المواضع محلاً لاجابته ومظنة لقبوله ورحمته ، ومعدناً لمرضاته ومغفرته ، على مثال حضرة الملوك الذين يجعلونها وسيلة لذلك ، فأدخلها ملازماً للسكينة والوقار ، ومراقباً للخشوع والانكسار ، سائلاً ان يجعلك من خلص عباده ، وأن يلحقك بالماضين منهم .

وراقب الله كأنك على الصراط جائز ، وكن متردداً بين الخوف والرجاء وبين القبول والطرد ، فيخشع حينئذ قلبك ويخضع لبك ، وتتأهل لأن يفيض عليك الرحمة وتنالك يد العاطفة ، وترعاك عين العناية .

وفي مصباح الشريعة : قال الصادق عليه السلام : اذا بلغت باب المسجد فاعلم انك قصدت ملكاً عظيماً لا يطأ بساطه الا المطهرون ، ولا يؤذن بمجالسته إلا الصديقون ، وهب القدوم الى بساط خدمته هيبة الملك ، فانك على خطر عظيم ان غفلت .

واعلم انه قادر على ما يشاء من العدل والفضل معك وبك ، لأن عطف عليك بفضله ورحمته قبل منك يسير الطاعة وأجزل لك عليها ثواباً كثيراً جزيلاً وان طالبك باستحقاقه الصدق والاخلاص عدلاً بك حجبك ورد طاعتك وان كثرت ، وهو فعال لما يريد .

واعترف بعجزك وتقصيرك وفقرك بين يديه ، فانك قد توجهت للعبادة له والمؤانسة به ، وأعرض أسرارك عليه ، ولتعلم انه لا يخفى عليه أسرار الخلايق أجمعين وعلانيتهم ، وكن كأفقر عباده بين يديه .

وأخل قلبك عن كل شاغل يحجبك عن ربك ، فانه لا يقبل الا الأطهر والأخلص ، فانظر من أي ديوان يخرج اسمك ، فان ذقت من حلاوة مناجاته ولذيذ مخاطباته ، وشربت بكأس رحمته وكراماته من حسن اقباله عليك واجاباته وقد صلحت لخدمته ، فادخل فلك الاذن والأمان ، والا فقف وقوف مضطر قد انقطع عنه الحيل وقصر عنه الأمل وقضى الأجل ، فاذا علم الله من قلبك صدق الالتجاء اليه نظر اليك بعين الرأفة والرحمة والعطف ، ووفقك لما يحب ويرضى ، فانه كريم يحب الكرامة لعباده المضطرين اليه المحترقين على بابه لطلب مرضاته . قال الله تعالى : « أمن يجيب المضطر اذا دعاه » .

الفصل الثالث عشر
فى الاستقبال

قال أبو حامد : وأما الاستقبال فهو صرف لظاهر وجهك عن سائر الجهات الى جهة بيت الله ، أفترى أن صرف القلب من سائر الأمور الى أمر الله ليس مطلوباً منك ؟! هيهات فلا مطلوب سواه .

وانما هذه الظواهر تحريكات للبواطن وضبط للجوارح وتسكين لها بالاثبات في جهة واحدة حتى لا تبغي على القلب ، فانها اذا بغت وظلمت في حركاتها الى جهاتها استبغت القلب وانقلبت به عن وجه الله ، فليكن وجه قلبك مع وجه بدنك .

واعلم انه كما لا يتوجه الوجه الى جهة البيت الا بالصرف عن غيرها فلا

ينصرف القلب الى الله تعالى الا بالتفرغ عما سوى الله ، وقد قال النبي (ص) : اذا قام العبد الى صلاته وكان هواه وقلبه الى الله انصرف كيوم ولدته امه — انتهى .

وروي عنه (ص) انه قال : أما يخاف الذي يحول وجهه في الصلاة أن يحول الله وجهه وجه حمار .

قيل : هذا نهي عن الالتفات عن الله وملاحظة عظمته في حال الصلاة ، فان الملتفت يميناً وشمالاً ملتفت عن الله تعالى وغافل عن مطالعة أنوار كبريائه ومن كان كذلك فيوشك أن تدوم تلك الغفلة عليه فيتحول وجه قلبه كوجه قلب الحمار في قلة عقله للأمور العلوية وعدم فهمه للعلوم .

وفي مصباح الشريعة : قال الصادق (ع) : اذا استقبلت القبلة فأيئس من الدنيا وما فيها والخلق وما هم فيه ، واستفرغ قلبك من كل شاغل يشغلك عن الله تعالى ، وعاين بسرك عظمة الله ، واذكر وقوفك بين يديه « يوم تبلو كل نفس ما اسلفت وردوا الى الله مولاهم الحق » ، وقف على قدم الخوف والرجاء .

الفصل الرابع عشر
فى القيـام

قال أبو حامد : وأما الاعتدال قائماً فهو مثول بالقلب والشخص بين يدي الله تعالى ، فليكن رأسك الذي هو أرفع أعضائك مطرقاً متطأطأً منكساً ، وليكن وضع الرأس عن ارتفاعه تنبيهاً على الزام القلب التواضع والتذلل والتبري عن الترؤس والتكبر ، وليكن على ذكرك هنا خطر المقام بين يدي الله في هول المطلع عند التعرض للسؤال .

واعلم في الحال انك قائم بين يدي الله تعالى وهو مطلع عليك ، فقم

بين يديه قيامك بين يدي بعض ملوك الزمان ان كنت تعجز عن معرفة كنه جلاله ، بل قدر في دوام قيامك في صلواتك انك ملحوظ ومرقوب بعين كالئة من رجل صالح من أهلك أو ممن ترغب في أن يعرفك بالصلاح ، فانه تهدىء عند ذلك اطرافك وتخشع جوارحك ويسكن جميع أجزائك ، خيفة أن ينسبك ذلك العاجز المسكين الى قلة الخشوع .

واذا أحسست من نفسك التماسك عند ملاحظة عبد مسكين فعاتب نفسك وقل لها : انك تدعين معرفة الله وحبه أفلا تستحين من اجترائك عليه مع توقيرك عبداً من عباده أو تخشين الناس ولا تخشينه ، وهو أحق أن يخشى ؟!

ولذلك لما قيل للنبي (ص) : كيف الحياء من الله ؟ فقال : تستحي منه كما تستحي من الرجل الصالح من أهلك .

الفصل الخامس عشر
في التوجه

قال الشهيد الثاني (ره) : اذا توجهت بالتكبيرات فاستحضر عظمة الله سبحانه ، وصغر نفسك وخسة عبادتك في جنب عظمته ، وانحطاط همتك عن القيام بوظائف خدمته واستتمام حقائق عبادته .

وتفكر عند قولك : « اللهم انت الملك الحق المبين » في عظيم ملكه وعموم قدرته واستيلائه على جميع العوالم ، ثم ارجع على نفسك بالذل والانكسار والاعتراف بالذنوب والاستغفار عند قولك : « عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي انه لا يغفر الذنوب الا أنت » .

واحضر دعوته لك بالقيام بهذه الخدمة ، ومثل نفسك بين يديه ، وانه قريب منك مجيب دعوة الداعي اذا دعاه ، ويسمع نداءه ، وان بيده خير

الدنيا والآخرة لا بيد غيره عند قولك : « لبيك وسعديك والخير في يديك » ، ونزهه من الأعمال السيئة وأفعال الشر .

وأبدله بها محض الارشاد والهداية عند قولك : « والشر ليس اليك والمهدي من هديت » ، واعترف له بالعبودية وان قوام وجودك وبدئه ومعاده منه بقولك : « عبدك وابن عبديك منك وبك ولك واليك » ، أي منك وجوده وبك قوامه ولك ملكه واليك معاده ، وهو الذي يبدؤ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى .

فأحضر فى ذهنك هذه الحقائق ، وترق منها الى ما يفتح عليك من الأسرار والدقائق ، وتلق الفيض من العالم الأعلى .

الفصل السادس عشر
فى النيــة

قال أبو حامد : وأما النية فاعزم على اجابة الله في امتثال أمره بالصلاة واتمامها ، والكف عن نواقضها ومفسداتها ، واخلاص جميع ذلك لوجه الله رجاءاً لثوابه وخوفاً من عقابه وطلباً للقربة منه ، متقلداً للمنة باذنه اياك في المناجاة ، مع سوء أدبك وكثرة عصيانك .

وعظم في نفسك قدر مناجاته ، وانظر الى من تناجي وكيف تناجي وبماذا تناجي ، وعند هذا ينبغي أن يعرق جبينك من الخجل وترتعد فرائصك من الهيبة ويصفر وجهك من الخوف .

الفصل السابع عشر
فى التكبير

ومعناه الله أكبر من كل شيء، أو من أن يوصف، أو أن يدرك بالحواس، أو أن يقاس بالناس .

قال أبو حامد : فاذا نطق به لسانك فينبغي أن لا يكذبه قلبك ، وان كان في قلبك شيء هو أكبر من الله تعالى فالله يشهد انك كاذب وان كان الكلام صدقاً ، كما شهد على المنافقين في قولهم : « انك رسول الله » .

فإن كان هواك أغلب عليك من أمر الله وانت أطوع له منك لله فقد اتخذته إلهك وكبرته ، فيوشك أن يكون قولك : « الله أكبر » كلاماً باللسان المجرد وقد تخلف القلب عن مساعدته ، وما أعظم الخطر في ذلك لولا التوبة والاستغفار ، وحسن الظن بكرم الله وعفوه .

وفي مصباح الشريعة : قال الصادق عليه السلام : اذا كبرت فاستصغر ما بين السموات العلى والثرى دون كبريائه ، فان الله تعالى اذا اطلع على قلب العبد وهو يكبر وفي قلبه عارض عن حقيقة تكبيره قال : يا كاذب أتخدعني ! وعزتي وجلالي لأحرمنك حلاوة ذكري ، ولأحجبنك عن قربي والمسارة بمناجاتي .

فاعتبر أنت قلبك حين صلاتك فان كنت تجد حلاوتها وفى نفسك سرورها وبهجتها ، وقلبك مسروراً بمناجاته ملتذاً بمخاطباته فاعلم انه قد صدقك في تكبيرك ، والا فقد عرفت من سلب لذة المناجاة وحرمان حلاوة العبادة انه دليل على تكذيب الله لك وطردك عن بابه .

الفصل الثامن عشر
في دعاء التوجه

قال أبو حامد : وأما دعاء الاستفتاح فأول كلماته قولك : « وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً مسلماً » وليس المراد بالوجه الوجه الظاهري ، فانك انما وجهته الى جهة القبلة ، والله سبحانه يتقدس عن أن تحده الجهات حتى تقبل بوجه بدنك عليه ، وانما وجه القلب هو الذي يتوجه به الى فاطر السماوات والأرض ، فانظر اليه أمتوجه هو الى أمانيه وهمه في البيت والسوق ومتبع للشهوات أم مقبل على فاطر السماوات والأرض ؟

واياك وأن تكون أول مفاتحتك للمناجاة بالكذب والاختلاف ، ولن ينصرف الوجه الى الله الا بانصرافه عمن سواه ، فاجتهد في الحال في صرفه اليه ، وان عجزت عنه على الدوام ليكون قولك في الحال صدقاً .

واذا قلت : « حنيفاً مسلماً » فينبغي أن يخطر ببالك ان المسلم هو الذي سلم المسلمون من لسانه ويده ، فإن لم تكن كذلك كنت كاذباً ، فاجتهد ان تعزم عليه في الاستقبال ، وتندم على ما سبق من الأحوال .

واذا قلت : « وما أنا من المشركين » فأخطر ببالك الشرك الخفي ، فإن قوله تعالى : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » نزل فيمن يقصد بعبادته وجه الله وحمد الناس . وكن منفياً من هذا الشرك ، واستشعر الخجلة في قلبك ان وصفت نفسك بأنك لست من المشركين من غير براءة من هذا الشرك ، فإن اسم الشرك يقع على القليل والكثير منه .

واذا قلت : « محياي ومماتي لله » فاعلم ان هذا حال عبد مفقود لنفسه موجود لسيده ، وانه ان صدر ممن رضاه وغضبه وقيامه وقعوده ورغبته في الحياة ورهبته من الموت لأمور الدنيا لم يكن ملائماً للحال .

الفصل التاسع عشر
فى الاستعاذة

قال : اذا قلت : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » فاعلم انه عدوك ، ومترصد لصرف قلبك عن الله حسداً لك على مناجاتك مع الله وسجودك له ، مع انه لعن لسبب سجدة واحدة تركها ولم يوفق لها .

وان استعاذتك بالله منه بترك ما يحبه وتبديله بما يحب الله لا بمجرد قولك ، وان من قصده سبع أو عدو ليفترسه أو يقتله فقال : « أعوذ منك بذلك الحصن الحصين » وهو ثابت على مكانه ان ذلك لا ينفعه ، بل لا يعيذه الا تبديل المكان ، فكذلك من يتبع الشهوات التي هي محاب الشيطان ومكاره الرحمن فلا يغنيه مجرد القول ، فليقترن قوله بالعزم على التعوذ بحصن الله عز وجل عن شر الشيطان ، وحصنه لا إله إلا الله ، اذ قال تعالى فيما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وآله : « لا إله إلا الله حصني » ، والمتحصن به من لا معبود له سوى الله ، فأما من اتخذ إلهه هواه فهو في ميـدان الشيطان لا في حصن الله .

واعلم ان من مكائده ان يشغلك في الصلاة بفكر الآخرة وتدبير فعل الخيرات لتمتنع عن فهم ما تقرأ ، فاعلم ان كل ما يشغلك عن معاني القرآن فهو وسواس ، فإن حركة اللسان غير مقصودة بل المقصود المعاني ، والناس في القراءة ثلاثة : رجل يتحرك لسانه وقلبه غافل ، ورجل يتحرك لسانه وقلبه

يتبع اللسان فيستمع ويفهم منه كأنه يسمعه من غيره. وهو درجة أصحاب اليمين ، ورجل يسبق قلبه الى المعاني أولاً ثم يخدم اللسان قلبه فيترجمه . ففرق بين أن يكون اللسان ترجمان القلب أو يكون معلم القلب ، والمقربون ألسنتهم ترجمان يتبع القلب — انتهى .

وعليك بالخضوع والخشوع وحضور القلب في صلاتك .

الفصل العشرون

فى بيان الخضوع والخشوع وحضور القلب

قال الله تعالى : « والذين هم في صلواتهم خاشعون » وقال تعالى : « فويل للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون » . ذمهم على الغفلة عنها مع كونهم مصلين لا لأنهم سهوا عنها وتركوها .

وقال تعالى : « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » وفيه تنبيه على سكر الدنيا إذ بيّن فيه العلة .

وقال تعالى : « ولا تكن من الغافلين » وقال تعالى : « أقم الصلاة لذكري » .

وقال النبي (ص) : من صلى ركعتين لم يحدث فيهما نفسه بشيء من الدنيا غفر له ما تقدم من ذنبه .

وقال (ع) : اذا صليت فريضة فصلِ لوقتها صلاة مودع تخاف ان لا تعود فيها .

وقال (ص) : لا ينظر الله الى صلاة لا يحضر الرجل فيها قلبه مع بدنه .

وقال الصادق (ع) : من قبل الله منه صلاة واحدة لم يعذبه ، ومن قبل

منه حسنة لم يعذبه .

وروي ان ابراهيم الخليل عليه السلام كان يسمع تأوهه على حد ميل ، وكان في صلاته يسمع له أزيز كأزيز المرجل .

وكان الحسن (ع) اذا فرغ من وضوئه تغير لونه ، فقيل له في ذلك فقال : حق على من أراد أن يدخل على ذي العرش أن يتغير لونه . وروي نحوه عن السجاد عليه السلام .

وعنه (ع) انه كان اذا توضأ اصفر لونه ، فتقول له أهله : ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء ؟ فيقول : أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم .

ورآه رجل يصلي فسقط رداؤه عن منكبه فلم يسوه حتى فرغ من صلاته فسأله عن ذلك فقال : ويحك أتدري بين يدي من كنت ؟ ان العبد لا تقبل منه صلاة الاما أقبل فيها . فقلت : جعلت فداك هلكنا . قال (ع) : كلا ان الله يتم ذلك بالنوافل .

وعن الصادق (ع) قال : كان علي بن الحسين اذا قام الى الصلاة تغير لونه ، واذا سجد لم يرفع رأسه حتى يرفض عرقاً .

وعنه عليه السلام قال : كان أبي يقول : كان علي بن الحسين (ع) اذا قام الى الصلاة كأنه ساق شجرة لا يتحرك منه الا ما حركت الريح منه .

ولله در المحقق الفريد والمدقق الوحيد الشريف المهدي الطباطبائي (ره) حيث قال في الدرة :

عليك بالحضور والاقبال	في جملة الأقوال والأفعال
والصدق في النية والاخبات	فانها حقيقة الصلاة
وليس للعبد بها ما يقبل	الا الذي كان عليه يقبل
وصل بالخضوع والتخشع	وكن اذا صليت كالمودع
واستعمل الوقار والسكينة	واستحضر المقاصد المكنونة

وخـذ من الاكمام لب الثمرة واطلب من المعدن اصل الجوهرة
اياك من قول بـه تفنـد فأنت عبـد لهواك تعبـد
تلهـج في ايـاك نسـتعين وأنت غـير الله تسـتعين
ينعى على الباطن حسن ما علن ما أقبـح القبيح في زي حسن
حسن له الباطن فوق الظـاهر واعبـده بالقلب التقي الطـاهر
وتب اليـه وأنب واستغفر وسـدد الطـاعة بالتفكـر
وقم قيـام الماثل الذليـل ما بين أيـدي الملك الجليـل
واعـلم اذا ما قلت مـا تقول ومَن تنـاجي ومَن المسؤول

وذكر أبو حامد وغيره ان المعاني الباطنة التي تتم بها حياة الصلاة يجمعها ست جمل ، وهي : حضور القلب ، والتفهم ، والتعظيم والهيبة ، والرجاء ، والحيـاء :

(فالأول) حضور القلب ، ونعني به ان يفرغ القلب عن غير ما هو ملابس له ومتكلم به ، فيكون العلم بالفعل والقول مقروناً بهما ، ولا يكون الفكر جارياً في غيرهما ، ومهما انصرف الفكر عن غير ما هو فيه وكان في قلبه ذكر لماهو فيه ، ولم يكن فيه غفلة عنه فقد حصل حضور القلب .

(الثاني) التفهم ، بمعنى الكلام ، وهو أمر وراء حضور القلب ، فربما يكون القلب حاضراً مع اللفظ ولا يكون حاضراً مع معنى اللفظ ، فاشتمال القلب على العلم بمعنى اللفظ هو الذي أردنا به التفهم ، وهذا مقام يتفاوت فيه الناس ، اذ ليس يشترك الناس في فهم معاني القرآن والتسبيحات ، وكم من معان لطيفة يفهمها المصلي في أثناء الصلاة ولم يكن قد خطر بقلبه قبل ذلك . ومن هذا الوجه كانت الصلاة ناهية عن الفحشاء والمنكر ، فانها تفهم اموراً وتلك الأمور تنهى عن الفحشاء والمنكر لا محالة .

(الثالث) التعظيم ، وهو أمر وراء حضور القلب والتفهم ، اذا الرجل

ربما يخاطب غيره بكلام هو حاضر القلب فيه ومتفهم لمعناه ولا يكون معظماً له .

(الرابع) الهيبة ، وهي زائدة على التعظيم ، اذ هي عبارة عن خوف منشاؤه التعظيم ، لأن من لا يخاف لا يسمى هائباً . ثم كل خوف لا يسمى مهابة ، بل الهيبة خوف مصدره الاجلال .

(الخامس) الرجاء ، فالعبد ينبغي أن يكون راجياً بصلاته ثواب الله ، كما انه خائف بتقصيره عقاب الله .

ثم الحياء ، ومستنده استشعار تقصير وتوهم ذنب .

ثم ذكروا أسباب هذه المعاني الستة : فسبب حضور القلب الهمة ، فإن قلبك تابع لهمك ، فلا يحضر الا فيما يهمك ، ومهما اهمك أمر حضر القلب شاء أم أبى ، فهو مجبول عليه ومسخر فيه ، والقلب اذا لم يحضر فى الصلاة لم يكن متعطلاً بل كان حاضراً فيما الهمة مصروفة اليه من امور الدنيا ، فلا حيلة ولا علاج لاحضار القلب الا بصرف الهمة الى الصلاة ، والهمة لا تنصرف اليها ما لم يتبين أن الغرض المطلوب منوط بها ، وذلك هو الايمان والتصديق بأن الآخرة خير وأبقى ، وان الصلاة وسيلة اليه ، فاذا أضيف هذا الى حقيقة العلم بحقارة الدنيا ومهانتها حصل من مجموعها حضور القلب في الصلاة .

وأما التفهم فسببه — بعد حضور القلب — ادمان الفكر وصرف الذهن الى ادراك المعنى ، وعلاجه ما هو علاج احضار القلب مع الاقبال على الفكر والتشمر لرفع الخواطر الشاغلة ، وعلاج دفع الخواطر الشاغلة قطع موادها ، أعني النزوع من تلك الأسباب التي تنجذب الخواطر اليها ، وما لم تنقطع تلك المواد لا تنصرف عنها الخواطر ، فمن أحب شيئاً أكثر ذكره ، فذكر المحبوب يهجم على القلب بالضرورة ، ولذلك ترى من أحب غير الله لا يصفو له صلاة عن الخواطر .

وأما التعظيم فهي حالة للقلب يتولد من معرفتين : أحدهما معرفة جلال الله وعظمته ، وهي من أصول الايمان ، فإن من لا يعتقد عظمته لا تذعن النفس لتعظيمه . الثانية معرفة حقارة النفس وخستها وكونها عبداً مسخراً مربوباً ، حتى يتولد من المعرفتين الاستكانة والانكسار والخشوع لله ، فيعبر عنه بالتعظيم وما لم تمتزج معرفة حقارة النفس بمعرفة جلال الرب لا تنتظم حالة التعظيم والخشوع ، فإن المستغنى عن غيره الآمن على نفسه يجوز أن يعرف من غيره صفات العظمة .

ولا يكون الخشوع والتعظيم حاله ، لأن القرينة الاخرى ــ وهي معرفة حقارة النفس وحاجتها ــ لم تقترن اليه .

وأما الهيبة والخوف فحالة للنفس تتولد من المعرفة بقدرة الله وسطوته ونفوذ مشيته فيه مع قلة المبالاة به ، ولو انه لو أهلك الأولين والآخرين لم ينقص من ملكه ذرة . هذا مع مطالعة ما يجري على الأنبياء والأوصياء من المصائب وأنواع البلاء مع القدرة على الدفع . وبالجملة كلما زاد العلم بالله زادت الخشية والهيبة .

وأما الرجاء فسببه معرفة لطف الله وكرمه وعميم أنعامه ولطائف صنعه ، ومعرفة صدقه في وعده الجنة بالصلاة ، فاذا حصل اليقين بوعده والمعرفة بلطفه انبعث من مجموعها الرجاء لا محالة .

وأما الحياء فباستشعار التقصير في العبادة ، وعلمه بالعجز عن القيام بعظيم حق الله ، ويقوى ذلك المعرفة بعيوب النفس وآفاتها وقلة اخلاصها وخبث دخلتها ، وميلها الى الحظ العاجل في جميع أفعاله مع العلم بعظيم ما يقتضيه جلال الله ، والعلم بأنه مطلع على السريرة وخطرات القلب وان دقت وخفيت ، وهذه المعارف اذا حصلت يقيناً انبعث منها بالضرورة حالة تسمى الحياء .

الفصل الحادي والعشرون
فى القراءة

قال أبو حامد : اذا قلت « بسم الله الرحمن الرحيم » فأنوبه التبرك لابتداء القراءة بكلام الله ، وافهم ان معناه ان الامور كلها بالله ، وان المراد بالأسم هنا هو المسمى ، فاذا كانت الأمور بالله فلا جرم كان « الحمد لله » ، اذ النعم منه ، ومن يرى من غير الله نعمة أو يقصد غير الله بشكره لا من حيث انه مسخر من الله ففي تسميته وتحميده نقصان بقدر التفاته الى غير الله •

فاذا قلت : « الرحمن الرحيم » فأحضر في قلبك أنواع لطفه تتضح لك رحمته ، فينبعث به رجاؤك ، ثم استشعر من قلبك التعظيم والخوف بقولك : « مالك يوم الدين » ، أما العظمة فلأنه لا ملك إلا له ، وأما الخوف فلهول يوم الجزاء والحساب الذي هو مالكه •

ثم جدد الاخلاص بقولك : « اياك نعبد » وجدد العجز والاحتياج والتبري من الحول والقوة بقولك : « واياك نستعين » ، وتحقق انه ما تيسرت طاعتك الا باعانته ، وان له المنة اذا وفقك لطاعته واستخدمك لعبادته ، وجعلك أهلاً لمناجاته ، ولو حرمك التوفيق لكنت من المطرودين مع الشيطان اللعين •

قيل : أتى بصيغة الجمع هضماً لنفسه ، وان عبادته واستعانته ليستا قابلتين في معرض العدل ، فمزج عبادة غيره واستعانته أيضاً في ذلك ، اذ لا تخلو جميع العبادات من عبادة مقبولة ، وتكون عبادته وغيرها كبيع الصفقة لا يرد بعضه ، ويقبل بعضه ، بل إما يرد الجميع أو يقبل الجميع ، والله سبحانه أكرم من أن يرد الجميع فيقبل الجميع ، وهذا من جملة فوائد الصلاة في

أول الوقت والصلاة جماعة ، والابتداء في سؤال الحاجة بالصلاة على محمد وآله ثم ذكر الحاجة ثم الاختتام بالصلاة ، فان الله أكرم من أن يقبل الطرفين ويرد الوسط .

ثم اذا فرغت من التفويض بقولك بسم الله وعن التحميد وعن اظهار الحاجة الى الاعانة مطلقاً فعين سؤالك ولا تطلب الا أهم حاجاتك وقل : « إهدنا الصراط المستقيم » الذي يسوقنا الى جوارك ويفضي بنا الى مرضاتك ، وزده شرحاً وتفصيلاً وتأكيداً واستشهاداً بالذين أنعم عليهم نعمة الهداية من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، دون الذين غضب عليهم من الكفار والمنافقين الزايغين من اليهود والنصارى والصابئين .

فاذا تلوت الفاتحة كذلك فيشبه أن تكون ممن قال الله تعالى فيهم فيما أخبر عنه النبي صلى الله عليه وآله : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين نصفها لي ونصفها لعبدي ، يقول العبد : « الحمد لله رب العالمين » فيقول الله : حمدني عبدي وأثنى علي ، وهو معنى قوله : سمع الله لمن حمده ــ الحديث الى آخره .

فإن لم يكن لك من صلاتك حظ سوى ذكر الله فى جلاله وعظمته فناهيك به غنيمة ، فكيف ما ترجوه من ثوابه وفضله .

وكذلك ينبغي أن تكون تفهم ما تقرأ من السورة كما يأتي في باب تلاوة القرآن ، فلا تغفل عن أمره ونهيه ووعده ووعيده ومواعظه وأخبار انبيائه وذكر منته واحسانه ، فلكل واحد حق ، فالرجاء حق الوعد ، والخوف حق الوعيد ، والعزم حق الأمر والنهي ، والاتعاظ حق الموعظة ، والشكر حق ذكر المنة ، والاعتبار حق اخبار الأنبياء . وتكون هذه المعاني بحسب درجات الفهم ، ويكون الفهم بحسب وفور العلم وصفاء القلب ، ودرجات ذلك لا تنحصر .

والصلاة مفتاح القلوب ، فيها تنكشف أسرار الكلمات • فهذا حق القراءة ، وهو حق الأذكار والتسبيحات أيضاً • ثم تراعى الهيئة في القراءة فترتل ولا تسرد ولا تعجل ، فإن ذلك أيسر للتأمل •

الفصل الثاني والعشرون

في دوام القيـام

قال أبو حامد : وأما دوام القيام فهو تنبيه على اقامة القلب مع الله على نعت واحد من الحضور • قال النبي صلى الله عليه وآله : ان الله مقبل على المصلي ما لم يلتفت •

وكما يجب حراسة الرأس والعين عن الالتفات الى الجهات فكذلك يجب حراسة السر عن الالتفات الى غير الصلاة ، فان التفت الى غيرها فذكره باطلاع الله عليك ، وقبح التهاون بالمناجي عند غفلة المناجي ليعود اليه •

والزم خشوع القلب ، فان الخلاص عن الالتفات باطناً وظاهراً ثمرة الخشوع ، ومهما خشع الباطن خشع الظاهر • قال (ص) وقد رأى مصلياً يعبث بلحيته : أما هذا لو خشع قلبه لخشعت جوارحه ، فان الرعية بحكم الراعي • ولهذا ورد في الدعاء « اللهم أصلح الراعي والرعية » وهو القلب والجوارح ، كل ذلك يقتضيه الطبع بين يدي من يعظم من أبناء الدنيا فكيف لا يتقاضاه بين يدي ملك الملوك عند من يعرف ملك الملوك •

ومن يطمئن بين يدي غير الله خاشعاً وتضطرب أطرافه بين يدي الله تعالى فذلك لقصور معرفته عن جلال الله تعالى ، وعن اطلاعه على سره وضميره ، وتدبر قوله تعالى : «الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين» •

الفصل الثالث والعشرون
فى الركوع

قال : وأما الركوع فينبغي أن تجدد عنده ذكر كبرياء الله تعالى ، وترفع يديك مستجيراً بعفو الله من عقابه ، ومتبعاً سنة نبيه (ص) ، ثم تستأنف له ذلاً وتواضعاً بركوعك ، وتجتهد في ترقيق قلبك وتجديد خشوعك ، وتستشعر ذلك وعز مولاك واتضاعك وعلو ربك ، وتستعين على تقرير ذلك في قلبك بلسانك ، فتسبح ربك وتشهد له بالعظمة وانه أعظم من كل عظيم ، وتكرر ذلك على قلبك لتؤكده بالتكرار .

ثم ترتفع عن ركوعك راجياً انه راحم ذلك ، وتؤكد ذلك الرجاء في نفسك بقولك : « سمع الله لمن حمده » أي أجاب الله لمن شكره ، ثم تردف ذلك بالشكر المتقاضى للمزيد ، فتقول : « الحمد لله رب العالمين » — انتهى .

ثم تزيد في الخشوع والتذلل ، فتقول : « أهل الكبرياء والعظمة والجود والجبروت » .

وروى الصدوق عن أمير المؤمنين عليه السلام انه سئل عن معنى مد العنق في الركوع ؟ فقال : تأويله آمنت بك ولو ضربت عنقي .

وفي مصباح الشريعة : قال الصادق عليه السلام : لا يركع لله عبد ركوعاً على الحقيقة الا زينه الله تعالى بنور بهائه ، وأظله فى ظلال كبريائه ، وكساه كسوة أصفيائه ، والركوع أول والسجود ثان ، فمن أتى بمعنى الأول صلح للثاني ، وفي الركوع أدب وفي السجود قرب ، ومن لا يحسن الأدب لا يصلح للقرب ، فاركع ركوع خاضع لله بقلبه متذلل وجل تحت سلطانه ، خافض له بجوارحه خفض خائف حزن على ما يفوته من فائدة الراكعين .

الفصل الرابع والعشرون
فى السجود

قال أبو حامد : ثم تهوى الى السجود ، وهو أعلى درجات الاستكانة فمكن أعز أعضائك — وهو الوجه — من أذل الأشياء — وهو التراب — ، وان امكنك أن لا تجعل بينهما حائلاً فتسجد على الأرض فافعل ، فانه أجلب للخضوع وأدل على الذل .

واذا وضعت نفسك موضع الذل فاعلم انك وضعتها موضعها ورددت الفرع الى أصله فانك من التراب خلقت واليه رددت ، فعند هذا جدد على قلبك عظمة الله وقل : « سبحان ربي الأعلى » وأكده بالتكرار ، فان المرة الواحدة ضعيفة الآثار ، فاذا رق قلبك وطهر لبك فليصدق رجاؤك في رحمة ربك ، فان رحمته تتسارع الى الضعيف والذل لا الى التكبر والبطر ، فارفع رأسك مكبراً سائلاً حاجتك ومستغفراً من ذنوبك .

ثم أكد التواضع بالتكرار ، وعد الى السجود ثانياً كذلك . انتهى .

وروى الصدوق عن أمير المؤمنين (ع) : انه سئل ما معنى السجدة الأولى ؟ قال : تأويلها « اللهم انك منها خلقتنا » يعني من الأرض ، وتأويل رفع رأسك منها « ومنها أخرجتنا » ، والسجدة الثانية « واليها تعيدنا » ورفع رأسك منها « ومنها تخرجنا تارة أخرى » .

وفي مصباح الشريعة : قال الصادق عليه السلام : ما خسر والله من أتى بحقيقة السجود ولو كان في العمر مرة واحـــدة ، وما أفلح من خلا بربه في مثل ذلك الحال شبيهاً بمخادع نفسه غافل لاهٍ عما أعد الله للساجدين من أنس العاجل وراحة الآجل ، ولا بعد عن الله أبداً من أحسن تقربه في السجود ، ولا قرب اليه أبداً من أساء أدبه وضيع حرمته بتعليق قلبه بسواه

في حال سجوده ، فاسجد سجود متواضع لله ذليل علم انه خلق من تراب يطأه الخلق ، وانه ركب من نطفة يستقذرها كل أحد . وقد جعل الله معنى السجود سبب التقرب اليه بالقلب والسر والروح ، فمن قرب منه بعد من غيره . ألا ترى في الظاهر انه لا يستوي حال السجود الا بالتواري عن جميع الأشياء والاحتجاب عن كل ما تراه العيون ، كذلك أمر الباطن ، فمن كان قلبه متعلقاً في صلاته بشيء دون الله فهو قريب من ذلك الشيء بعيد عن حقيقة ما أراد الله منه في صلاته . قال الله تعالى : « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه » .

وقال رسول الله (ص) : قال الله تعالى : لا اطلع على قلب عبد فأعلم فيه حب الاخلاص لطاعة وجهي وابتغاء مرضاتي الا توليت تقويمه وسياسته ، ومن اشتغل في صلاته بغيري فهو من المستهزئين بنفسه ، مكتوب اسمه في ديوان الخاسرين .

الفصل الخامس والعشرون
في التشـــهد

قال الشهيد الثاني (ره) : اذا جلست للتشهد بعد هذه الأفعال الدقيقة والأسرار العميقة المشتملة على الأخطار الجسيمة والأهوال العظيمة فاستشعر الخوف التام والرهبة والحياء والوجل أن يكون جميع ما سلف منك غير واقع على وجهه ولا محصلاً لوظيفته وشرطه ولا مكتوباً في ديوان المقبولين، فاجعل يدك صفراً من فوائدها إلا أن يتداركك الله برحمته ويقبل عملك الناقص بفضله ، وارجع الى مبدأ الأمر وأصل الدين ، واستمسك بكلمة التوحيد وحصن الله تعالى الذي من دخله كان آمناً إن لم يكن حصل في

يدك غيره .

واشهد له بالوحدانية ، واحضر رسوله الكريم ونبيه العظيم (ص) ببالك واشهد له بالنبوة والرسالة ، وصلِ عليه وآله مجدداً عهد الله باعادة كلمتي الشهادة متعرضاً بهما لتأسيس مراتب العبادة ، فانهما أول الوسائل وأساس الفواضل وجماع أمر الفضائل ، مترقباً لاجابته (ص) لك بصلاتك عشراً من صلاته اذا قمت بحقيقة صلاتك عليه التي لو وصل اليك منها واحدة فلحت أبداً .

وفي مصباح الشريعة : قال الصادق عليه السلام : التشهد ثناء على الله ، فكن عبداً له في السر ، خاضعاً له في الفعل ، كما انك له عبد فى القول والدعوى ، وصل صدق لسانك بصفاء سرك ، فانه خلقك عبداً وأمرك أن تعبده بقلبك ولسانك وجوارحك ، وان تحقق عبوديتك له بربوبيته لك ، وتعلم أن نواصي الخلق بيده ، فليس لهم نفس ولا لحظة الا بقدرته ومشيئته وهم عاجزون عن اتيان أقل شيء في مملكته الا بإذنه وارادته .

ثم قال عليه السلام : فاستعمل العبودية في الرضا بحكمته ، وبالعبادة في أداء أوامره ، وقد أمرك بالصلاة على نبيه محمد (ص) ، فأوصل صلاته بصلاته وطاعته بطاعته وشهادته بشهادته ، وانظر أن لا تفوتك بركات معرفة حرمته فتحرم عن فائدة صلواته .

الفصل السادس والعشرون
فى التسليم

قال (ره) : واذا فرغت من التشهد فأحضر نفسك بحضرة سيد المرسلين والملائكة المقربين وبقية أنبياء الله وأئمته (ع) ، والحفظة لك من الملائكة المحصين لأعمالك ، وأحضرهم جميعاً في بالك وقل : « السلام عليكم ورحمة

الله وبركاته » ، ولا تطلق لسانك بصيغة الخطاب من غير حضور المخاطب في ذهنك ، فتكون من العابثين واللاعبين • وكيف يسمع الخطاب لمن لا يقصد لولا فضل الله ورحمته الشاملة ورأفته الكاملة في اجتزائه بذلك عن أصل الواجب ، وان كان بعيداً عن درجات القبول منحطاً عن أوج القرب والوصول•

وان كنت اماماً لقوم فاقصدهم السلام مع من تقدم من المقصودين ، وليقصدوا هم الرد عليك أيضاً ، ثم يقصدوا مقصدك بسلام ثانٍ ، فاذا فعلتم ذلك فقد أديتم وظيفة السلام ، واستحققتم من الله مزيد الاكرام •

وفى مصباح الشريعة : قال الصادق (ع) : معنى السلام في دبر كل صلاة الأمان ، أي من أدى أمر الله وسنة نبيه خالصاً له خاشعاً قلبه فله الأمان من بلاء الدنيا ، وبراءة من عذاب الآخرة • والسلام اسم من أسماء الله تعالى أودعه خلقه ليستعملوا معناه في المعاملات والامانات والانصافات ، وصدق مصاحبتهم فيما بينهم وصحة معاشرتهم •

وان أردت أن تضع السلام موضعه وتؤدي معناه فاتق الله ، وليسلم منك دينك وقلبك وعقلك أن لا تدنسها بظلمة المعاصي ، وليسلم حفظتك ان لا تبرمهم وتملهم وتوحشهم منك بسوء معاملتك معهم ثم صديقك ثم عدوك ، فان لم يسلم منه من هو الأقرب اليه فالأبعد أولى ، ومن لا يضع السلام مواضعه هذه فلا سلام ولا اسلام ولا تسليم ، وكان كاذباً في سلامه وان أفشاه في الخلق •

الباب الثالث
في صلاة الجمعة

قال الشهيد الثاني (ره) : وتختص صلاة الجمعة باستحضار أن يومها يوم عظيم ، وعيدها عيد شريف ، خص الله به هذه الأمة وجعله وقتاً شريفاً لعباده ، ليقربهم فيه من جواره ويبعدهم من طرده وناره ، وحثهم فيه على الاقبال بصالح الأعمال ، وتلافي ما فرط منهم في بقية الاسبوع من الاهمال ، وجعل أهم ما يقع فيه من طاعته وما يوجب الزلفى لديه صلاة الجمعة ، وعبَّر عنها في محكم كتابه الكريم بذكر الله ، وخصها من بين سائر الصلوات التي هي أفضل القربات بالذكر ، فقال سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » .

وفي هذه الآية الشريفة من التنبيهات والتأكيدات ما يتنبه له من له حظ من المعاني ، ومن أهم رمزها التعبير عن الصلاة بذكر الله تنبيهاً على ان الغرض الأقصى من الصلاة ذكر الله بالقلب واحضار عظمته بالبال ، فان هذا وأشباهه هو السر في كون الصلاة ناهية عن الفحشاء والمنكر ، وهذا انما يتم مع التوجه التام الى الله وملاحظة جلاله الذي هو الذكر الأكبر والكثير على ما ورد في بعض التفسير فضلاً عن أن يكون ذكراً مطلقاً ، فلا جرم وجب الاهتمام به زيادة على غيرها من الصلوات ، والتهيؤ والاستعداد للقاء الله والوقوف بين يديه والمثول في حضرته والفوز بمخاطبته ، بعد الاتيان بمقدمات الصلاة من وظائف اليوم من التنظيف والتطييب والتعمم وحلق الرأس وقص الشارب والأظفار وغير ذلك من السنن بقلب مقبل صاف وعمل

مخلص ونية خالصة : كما تعمل ذلك في لقاء ملك الدنيا .

ولا تقصد بهذه الوظائف حظك من الرفاهية ، فتخسر صفقتك وتظهر بعد ذلك حسرتك ، وكلما أمكنك تكثير المطالب التي يترتب عليها الثواب بعملك فاقصدها يضاعف ثواب عملك بقصدها ان أمكنك ذلك ..

الباب الرابع

في صلاة العيدين

قال : وأما صلاة العيدين فأحضر في قلبك انها يوم قسمة الجوائز ، وتفرقة الرحمة وافاضة المواهب على من قبل صومه وقرباته وقام بوظائفها فأكثر من الخشوع في صلاتك والابتهال الى الله تعالى فيها وقبلها وبعدها في قبول أعمالك والعفو عن تقصيرك ، واستشعر الحياء والخجلة من حيرة الرد وخذلان الطرد ، فليس ذلك اليوم بعيد لمن لبس الجديد ، وانما هو عيد من أمن الوعيد ، وسلم من النقاش والتهديد ، واستحق بصالح أعماله المزيد فاستقبله بما استقبلت به يوم الجمعة من الوظائف واسباب التهيؤ للاقبال بالقلب على ربك والوقوف بين يديه ، عسى أن تصلح للمناجاة والخضوع لديه ، ولا تجعل فرحك فيه بما لم تخلق لأجله من متاع الدنيا ، بل بكثرة عوائد الله فيه على من عامله بمتاجر الآخرة .

الباب الخامس

فى الآيات

قال : وأما الآيات فاستحضر عندها أهوال الآخرة وزلازلها ، وتكوير الشمس والقمر وظلمة القيامة ووجل الخلائق وخوفهم من الأخذ والنكال والعقوبة والاستيصال، فأكثر من الدعاء والابتهال بمزيد الخضوع والخشوع والخوف والوجل في النجاة من تلك الشدائد ، ورد النور بعد الظلمة والمسامحة على الهفوة والزلة .

وتب الى الله من ذنوبك وأحسن التوبة عسى أن ينظر اليك ، وأنت منكسر النفس مطرق الرأس مستحي من التقصير ، فيقبل توبتك ويسامح هفوتك .

قال السجاد عليه السلام : لا يفزع للآيتين ولا يرهب الا من كان من شيعتنا ، فاذا كان ذلك منهما فافزعوا الى الله وراجعوه .

وقال الرضا (ع) : انما جعلت للكسوف صلاة لأنه من آيات الله تعالى ، لا يدري لرحمة ظهرت أم لعذاب ، فأحب النبي (ص) ان تفزع أمته الى خالقها وراحمها عند ذلك ليصرف عنهم شرها ويقيهم مكروهها ، كما صرف عن قوم يونس حين تضرعوا الى الله عز وجل .

الباب السادس
فى قراءة القرآن

قال الله تعالى : « ورتل القرآن ترتيلا » . قال أمير المؤمنين (ع) : أي بيّنه تبياناً ولا تهذه هذّ الشعر ولا تنثره نثر الرمل ، ولكن اقرعوا قلوبكم القاسية ، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة .

وقال الله تعالى : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله » . ونرى أنفسنا الشقية تتلوه وتقرأه ولا تخشع قلوبنا ولا تتصدع فكنا كما قال تعالى : « ثم قست قلوبكم » فكانت كالحجارة أو أشد قسوة .

وقال الصادق عليه السلام : القرآن نزل بالحزن فاقرأوه بالحزن .

وقال النبي (ص) : اتلو القرآن وابكوا ، فان لم تبكوا فتباكوا .

وفي مصباح الشريعة : قال الصادق (ع) من قرأ القرآن ولم يخضع له ولم يرق قلبه ولم ينشيء حزناً ووجلاً في سره فقد استهان بعظم شأن الله وخسر خسراناً مبيناً .

فقاريء القرآن يحتاج الى ثلاثة أشياء : قلب خاشع ، وبدن فارغ ، وموضع خالٍ . فاذا خشع لله قلبه فر منه الشيطان الرجيم ، واذا تفرغ نفسه من الأسباب تجرد قلبه للقراءة فلا يعترضه عارض فيحرمه نور القرآن وفوائده ، واذا اتخذ مجلساً خالياً واعتزل من الخلق بعد ان أتى بالخصلتين الأولتين استأنس روحه وسره بالله ، ووجد حلاوة مخاطبات الله عباده الصالحين ، وعلم لطفه بهم ومقام اختصاصه لهم بفنون كراماته وبدائع اشاراته ، فاذا شرب كأساً من هذا المشرب فحينئذ لا يختار على ذلك الحال

حالاً ولا على ذلك الوقت وقتاً ، بل يؤثره على كل طاعة وعبادة ، لأن فيه المناجاة مع الرب بلا واسطة .

فانظر كيف تقرأ كتاب ربك ومنشور ولايتك ، وكيف تجيب أوامره ونواهيه ، وكيف تمتثل حدوده ، فانه كتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

فرتله ترتيلاً ، وقف عند وعده ووعيده ، وتفكر في أمثاله ومواعظه ، واحذر ان تقع من اقامتك حروفه في اضاعة حدوده .

وقال أبو حامد ما ملخصه : ينبغي لتالي القرآن من أمور باطنة :

(منها) فهم عظمة الكلام وعلوه ، وفضل الله تعالى ولطفه بخلقه في نزوله عن عرش جلاله الى درجة أفهام خلقه .

(ومنها) التعظيم للمتكلم ، فالقارىء عند البداية بتلاوة القرآن ينبغي أن يحضر في قلبه عظمة المتكلم ، ويعلم ان ما يقرأه ليس من كلام البشر ، وان في تلاوة كلامه غاية الخطر ، فانه تعالى قال : « لا يمسه الا المطهرون » ، وكما ان ظاهر جلد المصحف وورقه محروس عن ظاهر بشرة اللامس الا اذا كان متطهراً ، فباطن معناه أيضاً محجوب عن باطن القلب الا اذا كان منقطعاً عن كل رجس ومستنيراً بنور التعظيم والتوقير ، وكما لا يصلح لمس المصحف كل يد فلا يصلح لتلاوة حروفه كل لسان ولا لنيل معانيه كل قلب .

(ومنها) حضور القلب وترك حديث النفس ، وهذا يتولد من التعظيم فإن المعظم للكلام الذي يتلوه يستبشر به ويستأنس ولا يغفل عنه ، ففي القرآن ما يستأنس به القلب ان كان التالي أهلاً له ، فكيف يطلب الأنس بالفكر في غيره وهو في متنزه .

(ومنها) التدبر ، وهو وراء حضور القلب ، فانه قد لا يتفكر في غير القرآن ولكنه يقتصر على سماع القرآن من نفسه وهو لا يتدبر ، المقصود

من القراءة التدبر ، قال تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » ولذلك سن فيه الترتيل ، لأن الترتيل في الظاهر تمكن من التدبر في الباطن. قال أمير المؤمنين عليه السلام : لا خير في عبادة لا فقه فيها ، ولا في قراءة لا تدبر فيها . واذا لم يتمكن من التدبر الا بالترديد فليردد .

(ومنها) التفهم ، وهو أن يستوضح من كل آية ما يليق بها ، اذ القرآن يشتمل على ذكر صفات الله تعالى وذكر أفعاله وأحوال أنبيائه والمكذبين لهم وأوامره وزواجره والجنة والنار .

(ومنها) التخلي عن موانع الفهم ، فان أكثر الناس منعوا عن فهم معاني القرآن لأسباب وحجب أسدلها الشيطان على قلوبهم ، فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن . قال النبي (ص) : لولا ان الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لينظروا الى الملكوت ، ومعاني القرآن من جملة الملكوت لأنها انما تدرك بنور البصيرة دون الحواس .

وحجب الفهم أربعة :

(أولها) — ان يكون الهم منصرفاً الى تحقيق الحروف باخراجها من مخارجها ، فيكون تأملهم مقصوراً على مخارج الحروف ، وهذا من تسويلات الشيطان .

(ثانيها) — ان يكون مقلداً لمذهب سمعه بالتقليد وجمد عليه وثبت في نفسه التعصب له بمجرد الاتباع للمسموع من غير وصول اليه ببصيرة ومشاهدة .

(ثالثها) — أن يكون مصراً على ذنب أو متصفاً بكبر ، ومبتلى على الجملة بهوى في الدنيا مطاع ، فان ذلك سبب ظلمة القلب وصدأه ، وهو كالخبث على المرآة .

(رابعها) — أن يكون قد قرأ تفسيراً ظاهراً ، واعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن الا ما تناوله النقل ، وان ما وراء ذلك تفسير بالرأي ولم يعلم

ان القرآن له معانٍ كثيرة وبطون وبطون وبطون .

(ومنها) التخصيص ، وهو أن يقدر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن فان سمع أمراً أو نهياً قدر أنه هو المأمور والمنهى ، وان سمع وعداً أو وعيداً فكمثل ذلك ، وان سمع موعظة اتعظ أو عبرة اعتبر ، وهكذا .

(ومنها) التأثر ، وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات في الرحمة والمغفرة والعذاب ونحو ذلك .

(ومنها) الترقي ، وهو أن يترقى الى أن يسمع الكلام من الله لا من نفسه ، فدرجات القراءة ثلاثة : أدناها ان يقدر العبد كأنه يقرأ على الله تعالى واقفاً بين يديه وهو ناظر اليه ومستمع منه ، فيكون حاله عند هذا التقدير السؤال والتملق والتضرع والابتهال ، ثم أن يشهد بقلبه كأن ربه يخاطبه بألطافه ويناجيه بأنعامه واحسانه ، فمقامه الحياء والتعظيم والاصغاء والفهم ، ثم أن يرى في الكلام المتكلم وفى الكلمات الصفات ، فلا ينظر الى نفسه ولا الى قراءته ، ولا الى تعلق الانعام به من حيث انه منعم عليه ، بل يكون مقصور الهم على المتكلم فوقوف الفكر عليه ، كأنه مستغرق بمشاهدة المتكلم عن غيره ، وهذه درجة المقربين ، وما قبلها من درجات أصحاب اليمين، وما عداها من درجة الغافلين . وعن الدرجة العليا أخبر الامام الصادق (ع) فيما روى عنه فقال : والله لقد تجلى الله لخلقه في كلامه ولكن لا يبصرون .

(ومنها) التبري ، وهو ان يتبرى من حوله وقوته والالتفات الى نفسه بعين الرضا والتزكية ، فاذا تلا آيات الوعد والمدح للصالحين فلا يشهد نفسه عند ذلك بل يشهد الموقنين والصديقين فيها . ويتشوق أن يلحقه الله بهم ، واذا تلا آية المقت وذم العصاة والمقصرين شهد نفسه هناك وقدر أنه المخاطب خوفاً واشفاقاً ، والى هذا أشار أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة التي يصف فيها المتقين بقوله : واذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا اليها مسامع

قلوبهم وظنوا أن زفير جهنم في آذانهم ، فاذا رأى نفسه بصورة التقصير في القراءة كان رؤيته سبب قربه ، وحيث يتلو آيات الرحمة ويغلب على حاله الاستبشار ينكشف له صورة الجنة فيشاهدها كأنه يرآها عياناً ، وان غلب عليه الخوف كوشف بالنار حتى يرى أنواع عذابها ، وهكذا .

الباب السابع
فى آداب الدعـاء

العمدة في آدابه الاقبال بالقلب ، لأن من لا يقبل عليك لا يستحق اقبالك عليه ، كما لو حادثك من تعلم غفلته عن محاورتك واعراضه عن مجاورتك ، فانه يستحق اعراضك عن خطابه واشتغالك عن جوابه .

قال الصادق (ع) : من أراد أن ينظر منزلته عند الله فلينظر منزلة الله عنده ، فان الله ينزل العبد مثل ما ينزل العبد الله من نفسه .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام : لا يقبل الله دعاء لاهٍ .

ومن جملة آدابه تسمية الحاجة ، والتعميم في الدعاء ، والبكاء حالته ، والاعتراف بالذنب قبل السؤال ، والتقدم في الدعاء قبل الحاجة اليه ، وأن لا يعتمد في حوائجه على غير الله ، وأن لا يلحن فى الدعاء .

وعن الصادق (ع) قال : احفظ آداب الدعاء ، وانظر من تدعو وكيف تدعو ولماذا تدعو ، وحقق عظمة الله وكبريائه ، وعاين بقلبك علمه بما في ضميرك واطلاعه على سرك وما كمن فيه من الحق والباطل ، واعرف طرق نجاتك وهلاكك كي لا تدعوا الله بشيء عسى فيه هلاكك وأنت تظن ان فيه نجاتك وهلاكك كي لا تدعو الله بشيء عسى فيه هلاكك وأنت تظن ان فيه عجولا » وتفكر ماذا تسأل ولماذا تسأل ، والدعاء استجابة الكل منك للحق

وتذويب المهجة في مشاهدة الرب ، وترك الاختيار جميعاً ، وتسليم الأمور كلها ظاهرها وباطنها الى الله ، فان لم تأت بشرط الدعاء فلا تنتظر الاجابة ، فانه يعلم السر وأخفى ، فلعلك تدعوه بشيء علم من نيتك بخلاف ذلك .

واعلم انه لو لم يكن أمرنا الله بالدعاء لكنا اذا أخلصنا الدعاء تفضل علينا بالاجابة ، فكيف وقد ضمن ذلك لمن أتى بشرائط الدعاء ، قال : فاذا أتيت بما ذكرت لك من شرائط الدعاء واخلصت سرك لوجهه فابشر باحدى ثلاثة : إما أن يعجل لك بما سألت ، أو يدخر لك ما هو أعظم منه ، واما أن يصرف عنك من البلاء ما أن لو أرسله عليك لهلكت .

وروي عن الصادق عليه السلام انه قرأ « أمن يجيب المضطر اذا دعاه » فسئل ما لنا ندعو ولا يستجيب لنا ؟ فقال : لأنكم تدعون من لا تعرفونه ، وتسألون ما لا تفهمونه .

الباب الثامن
فى اسرار الزكاة والمعروف

قال بعض العارفين : السر في ايجاب الزكاة وانفاق المال امتحان العبد ، وفيه ثلاثة معانٍ :

(الأول) ان التلفظ بكلمتي الشهادة التزام التوحيد وشهادة باقرار المعبود ، وشرط تمام الوفاء بذلك أن لا يبقى للموحد محبوب سوى الواحد الفرد ، فان المحبة لا تقبل الشركة ، والتوحيد باللسان قليل الجدوى ، وانما يمتحن درجة الحب بمفارقة المحبوبات ، والأموال محبوبة عند الخلق لأنها آلة تنعمهم بالدنيا وبسببها يأنسون بهذا العالم ويفرون من الموت مع ان فيه لقاء المحبوب ، فامتحنوا بتصديق دعواهم في المحبوب ، واستنزلوا عن المال

الذي هو مرقومهم ومعشوقهم ، ولذلك قال الله تعالى : « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » .

(والمعنى الثاني) التطهير من صفة البخل فانه من المهلكات . قال النبي (ص) : ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوىً متبع ، واعجاب المرء بنفسه . وقال الله عز وجل : « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

وانما تزول صفة البخل بأن يتعود بذل المال ، فحب الشيء لا ينقطع الا بقهر النفس على مفارقته حتى يصير ذلك اعتياداً ، فالانفاق بهذا المعنى يطهر صاحبه من حيث البخل المهلك ، وانما طهارته بقدر بذله وبقدر فرحه باخراجه واستبشاره بصرفه الى الله تعالى .

(والمعنى الثالث) شكر النعمة ، فان لله على عبده نعمة في نفسه وماله ، فالعبادات البدنية شكر لنعمة البدن والمالية شكر لنعمة المال . وما أخسّ من ينظر الى الفقير وقد ضيق الرزق عليه وأحوج اليه ، ثم لا تسمح نفسه بأن يؤدي شكر الله تعالى في اغنائه عن السؤال .

وينبغي للمنفق أن يغتنم الفرصة مهما ظهرت داعية الخير من الباطن حذراً من اغواء الشيطان اللعين ، وأن لا يحوج الفقير الى السؤال ، فورد أنه مكافأة لوجهه المبذول وثمن ما أخذ منه وليس بمعروف ، ويتحرى الأوقات الشريفة والأمكنة المنيفة كمكة والمدينة والمشاهد وشهر رمضان وذي الحجة ويوم الغدير ، وأن يسر في المستحب بحيث لا تدري شماله ما تعطي يمينه قال الصادق (ع) : الصدقة في السر والله أفضل من الصدقة في العلانية .

وكان (ع) اذا صلى العتمة وذهب من الليل شطره أخذ جراباً فيه خبز ولحم والدراهم وحمله على عنقه ثم ذهب به الى أهل الحاجة من أهل المدينة فقسمه بينهم ولا يعرفونه ، فلما مضى (ع) فقدوا ذلك وعلموا أنه كان أبا عبدالله عليه السلام .

وقال النبي (ص) : صدقة السر تطفيء غضب الرب .

وقال الصادق (ع) : كل ما فرض الله عليك فاعلانه أفضل من أسراره ، وكلما كان تطوعاً فأسراره أفضل من اعلانه .

وسئل النبي (ص) : أي الصدقة أفضل ؟ قال : ان تتصدق وأنت صحيح شحيح تأمل البقاء وتخشى الفاقة ، ولا تمهل حتى اذا بلغت الحلقوم قلت : لفلان كذا ولفلان كذا .

وينبغي أن تستصغر الاعطاء ليعظم عند الله تعالى وهو يذكر التوفيق والثواب . قال الصادق (ع) : رأيت المعروف لا يصلح الا بثلاث خصال : تصغيره ، وستره ، وتعجيله . فانك اذا صغرته عظمته عند من تصنعه اليه ، فاذا سترته تممته ، واذا عجلته هنأته ، وان كان غير ذلك محقته .

وان يعطي الأجود والأحب والأبعد عن الشبهة . قال تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » وقال تعالى : « أنفقوا من طيبات ما كسبتم » ، وان يقبل يده بعد الاعطاء ، فقد ورد أن الله تعالى يأخذها قبل أن تقع في يد السائل ، فإنه عز وجل يأخذ الصدقات ، وأن يلتمس الدعاء من الآخذ ، فقد ورد أن دعاءه يستجاب فيه ، وأن يصرف الى من في اعطائه أكثرية الأجر كالأرحام والعلماء والصلحاء ، ولا يرد السائل الا بلطف ، فورد : أكرم السائل ببذل يسير أو برد جميل ، ولا يحتقر ما عنده ، فورد : لا تستحيوا من اعطاء القليل فإن الحرمان أقل منه .

ويجتنب المن والأذى كما قال تعالى : « ولا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى » . والمن : أن يرى نفسه محسناً ، بل المحسن هو القابض لايصاله الى الثواب والانجاء من العقاب ، وكونه نائباً عنه تعالى ، وهو حق الله عز وجل أحال عليه الفقير انجازاً لما وعده من الرزق . والأذى التعيير والتوبيخ والقول السيىء والقطوب والاستخدام وهتك الستر والاستخفاف .

وينبغي للآخذ أن يعلم أن الله تعالى أمر المعطي بصرفه اليه ليكفي مهمته ، فيتجرد للعبادة فيشكر الله ويشكر المعطي ، فيدعو له ويثني عليه مع رؤية النعمة من الله سبحانه . قال النبي (ص) : من لم يشكر الناس لم يشكر الله .

وينبغي للمؤمن أن لا يسأل الناس مهما استطاع ، فانه ذل في الدنيا وفقر معجل وحساب طويل يوم القيامة . وقال النبي (ص) يوماً لأصحابه : ألا تبايعون ! فقالوا : قد بايعناك يا رسول الله . قال : تبايعون على أن لا تسألوا الناس شيئاً ، فكان بعد ذلك تقع المخصرة من يد أحدهم فينزل لها ولا يقول لأحد ناولنيها .

وقال (ص) : لو ان أحدكم يأخذ حبلاً فيأتي بحزمة حطب على ظهره فيبيعها فيكف بها وجهه خير له من أن يسأل .

وقال (ص) : من سألنا أعطيناه ، ومن استغنى أغناه الله .

وقال الصادق (ع) : شيعتنا من لا يسأل الناس شيئاً ولو مات جوعاً .

وقال عليه السلام : لو يعلم السائل ما عليه من الوزر ما سأل أحد أحداً ، ولو يعلم المسؤول ما عليه اذا منع ما منع أحد أحداً .

وقال (ع) : من سأل من غير حاجة فكأنما يأكل الجمر .

واعلم ان للجسد زكاة كما ان في المال زكاة ، وهو نقصه لمزيد الخير والبركة ، اما اضطراراً بأن يصاب بآفة ، أو اختياراً بأن يصرف في الطاعة ويمنع عن المعصية .

قال الصادق (ع) : قال النبي (ص) يوماً لأصحابه : ملعون كل مال لا يزكى ، ملعون كل جسد لا يزكى ولو في كل أربعين يوم مرة . قيل له : يا رسول الله أما زكاة المال فقد عرفناها فما زكاة الأجساد ؟ فقال لهم : أن تصاب بآفة . قال : فتغيرت وجوه الذين سمعوا ذلك منه . قال : فلما رآهم قد تغيرت ألوانهم قال : هل تدرون ما عنيت بقولي ؟ قالوا : لا يا رسول الله .

قال : ان الرجل يخدش الخدشة وينكب النكبة ويعثر العثرة ويمرض المرضة ويشاك الشوكة وما أشبه هذا حتى ذكر في حديثه اختلاج العين .

وفي مصباح الشريعة : قال الصادق عليه السلام : على كل جزء من أجزائك زكاة واجبة لله عز وجل ، بل على كل منبت شعرك ، بل على كل لحظة فزكاة العين النظر بالعبر والغض عن الشهوات وما يضاهيها ، وزكاة الأذن استماع العلم والحكمة والقرآن وفوائد الدين من الموعظة والنصيحة وما فيه نجاتك بالاعراض عما هو ضده من الكذب والغيبة وأشباههما ، وزكاة اللسان النصح للمسلمين والتيقظ للغافلين وكثرة التسبيح والذكر وغيره ، وزكاة اليد البذل والسخاء بما أنعم الله عليك وتحريكها بكتابة العلوم ومنافع ينتفع بها المسلمون في طاعة الله والقبض عن الشرور ، وزكاة الرجل السعي في حقوق الله من زيارة الصالحين ومجالس الذكر واصلاح الناس وصلة الرحم والجهاد وما فيه صلاح قلبك وسلامة دينك .

هذا ما تحمل القلوب فهمه والنفوس استعماله ، وما لا يشرف عليه الا عباده المقربون المخلصون أكثر من أن يحصى ، وهم أربابه وهو شعارهم ودثارهم .

وعن النبي (ص) : لكل شيء زكاة وزكاة الأبدان الصيام .

الباب التاسع
فى اسرار الصوم

قال النبي صلى الله عليه وآله : الصوم جنة من النار .

وقال صلى الله عليه وآله : الصائم في عبادة وان كان نائماً في فراشه ما لم يغتب مسلماً .

وقال (ص) : قال الله تعالى : الصوم لي وأنا اجزي به ، وللصائم فرحتان

حين يفطر وحين يلقى ربه عز وجل ، والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم عند الله أطيب من ريح المسك •

وقال الكاظم (ع) : قيلوا! فان الله تبارك وتعالى يطعم الصائم ويسقيه في منامه •

قيل : ولو لم يكن في الصوم الا الارتقاء من حضيض حظوظ النفس البهيمية الى ذروة التشبه بالملائكة الروحانية لكفى به فضلاً ومنقبة ، وانما كان الصوم جنة من النار لأنه يدفع حر الشهوة والغضب اللتين بهما تصلى نار جهنم في باطن الانسان في الدنيا وتبرز له في الآخرة • وانما قال صلى الله عليه وآله : « ما لم يغتب مسلماً » لأن الغيبة أكل لحم الميتة ، فهو نوع من الأكل يقوى به البدن •

وانما كان الصوم لله مع ان سائر العبادات له ـ كما شرف البيت بالنسبة اليه والأرض كلها له ـ لوجهين :

(احدهما) ان الصوم كف وترك ، وهو في نفسه سر ليس فيه عمل يشاهد وجميع الطاعات بمشهد من الخلق ومرأى ، والصوم لا يعلمه الا الله •

(والثاني) انه قهر لعدو الله ، فان وسيلة الشيطان الشهوات ، وانما تقوى الشهوات بالأكل والشرب ، ولذلك قال النبي (ص) : ان الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم ، فضيقوا مجاريه بالجوع ، والشهوات مرتع الشياطين ومرعاهم •

وانما كان خلوف الفم ـ وهو تغير رائحته ـ أطيب عند الله من ريح المسك لأنه سبب طيب الروح الذي هو عند الله من الانسان كما انه بدنه عند نفسه ، واليه اشير في قوله تعالى : « ما عندكم ينفد وما عند الله يبقى » ، وأين طيب الروح من طيب المسك ؟ فان الأول روحاني عقلي معنوي والثاني جسماني حسي صوري •

(فصـــل)

قال أبو حامد ما ملخصه : اعلم ان للصوم ثلاث درجات : صوم العموم ، وصوم الخصوص ، وصوم خصوص الخصوص : « أما صوم العموم » فهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوات •

« وأما صوم الخصوص » فهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام ، ويتم بأمور ستة :

(الأول) غض البصر وكفه عن الاتساع في النظر الى كل ما يذم ويكره ، بل كل ما يشغل القلب ويلهي عن ذكر الله تعالى • قال النبي (ص) : النظرة سهم مسموم من سهام ابليس ، فمن تركها خوفاً من الله أتاه الله ايماناً يجد حلاوته في قلبه • وقال (ص) : خمس يفطرن الصائم : الكذب ، والغيبة ، والنميمة ، واليمين الكاذبة ، والنظر بشهوة •

(الثاني) حفظ اللسان عن الهذيان والكذب والغيبة والنميمة والفحش والجفاء والخصومة والمراء • قال (ص) : انما الصوم جنة ، فاذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل ، فان امرءاً قاتله أو شاتمه فليقل اني صائم •

(الثالث) كف السمع عن الاصغاء الى المحرمات ، اذ كلما حرم قوله حرم الاصغاء اليه • قال تعالى : « سماعون للكذب أكالون للسحت » • وقال (ص) : المغتاب والمستمع شريكان في الاثم •

(الرابع) كف بقية الجوارح من اليد والرجل عن المكاره ، وكف البطن عن الشبهات وقت الافطار ، اذ لا معنى للصوم عن الحلال والافطار على الحرام فيكون قد بنى قصراً وهدم مصراً ، وشرب الدواء وأكل السم ، لأن المحرمات سموم تهلك الدين والصوم دواء ، ولا ينفع الدواء مع السم • وقال النبي

صلى الله عليه وآله : كم من صائم ليس له من صومه الا الجوع والعطش •
فقيل : هو الذي يفطر على الحرام • وقيل : هو الذي يمسك عن الطعام الحلال ويفطر على لحوم الناس بالغيبة وهو الحرام • وقيل : هو الذي لا يحفظ جوارحه عن الآثام ، ولعل المعنى أعم •

(الخامس) ان لا يستكثر من الحلال وقت الافطار بحيث يمتلىء ، فما من وعاء أبغض الى الله من بطن مليء من الحلال • وكيف يستفاد من الصوم قهر عدو الله وكسر الهوى لتقوى النفس على التقوى ، ثم تفطم عن الشهوات الى الليل حتى تهيج شهوتها وتقوى رغبتها ، ثم تطعم من اللذات الى أن تمتلىء ؟! ولعلها لو تركت على عادتها لكان أولى ، بل ينبغي أن يأكل الأكلة المعتادة ولا يملىء بطنه •

(السادس) أن يكون قلبه بعد الافطار معلقاً مضطرباً بين الخوف والرجاء إذ ليس يدري أيقبل صومه فيكون من المقربين ، أو يرد عليه فيكون من الممقوتين •

أقول : والى هذا النوع من الصوم اشير فيما روي عن الصادق (ع) قال : اذا صمت فليصم سمعك وبصرك وشعرك وجلدك •• وعد أشياء غير هذا وقال : لا يكون يوم صومك كيوم فطرك ، ودع المراء وأذى الخادم ، وليكن عليك وقار الصيام ، فان رسول الله (ص) سمع امرأة تسب جاريتها وهي صائمة فدعى بطعام فقال لها كلي ، فقالت اني صائمة ، فقال كيف تكونين صائمة وقد سببت جاريتك ؟! ان الصوم ليس من الطعام والشراب فقط •

قال أبو حامد : وأما صوم خصوص الخصوص فصوم القلب عن الهمم الدنية والأفكار الدنيوية وكفه عما سوى الله بالكلية ، ويحصل الفطر في هذا الصوم بالفكر فيما سوى الله واليوم الآخر ، وبالفكر في الدنيا الا دنيا تراد للدين ، فان ذلك زاد الآخرة ـ انتهى •

وفي مصباح الشريعة : قال الصادق عليه السلام : قال رسول الله (ص) : الصوم جنة ، أي ستر من آفات الدنيا وحجاب من عذاب الآخرة ، فاذا صمت فأنو بصومك كف النفس عن الشهوات وقطع الهمة عن خطرات الشيطان ، فأنزل نفسك منزلة المرضى لا تشتهي طعاماً ولا شراباً ، متوقعاً في كل لحظة شفاءك من مرض الذنوب ، وطهر باطنك من كل كدر وغفلة وظلمة تقطعك عن معنى الاخلاص لوجه الله تعالى .

ثم قال : قال رسول الله (ص) : قال الله عز وجل : الصوم لي وأنا اجزي به ، فالصوم يميت مواد النفس وشهوة الطمع ، وفيه صفاء القلب وطهارة الجوارح وعمارة الظاهر والباطن والشكر على النعم والاحسان الى الفقراء وزيادة التضرع والخشوع والبكاء وحبل الالتجاء الى الله ، وسبب انكسار الهمة وتخفيف الحساب وتضعيف الحسنات . وفيه من الفوائد ما لا يحصى وكفى بما ذكرنا منبه لمن عقل ووفق لاستعماله .

الباب العاشر
فى أسرار الحج وزيارة النبي والمشاهد

ولنفتح الباب بما رواه في مصباح الشريعة عن الصادق عليه السلام .

قال : قال الصادق عليه السلام : اذا أردت الحج فجرد قلبك لله تعالى من كل شاغل وحجاب كل حاجب ، وفوض أمورك كلها الى خالقك ، وتوكل عليه في جميع ما يظهر من حركاتك وسكناتك ، وسلم لقضائه وحكمه وقدره ، وودع الدنيا والراحة والخلق ، وأخرج من حقوق تلزمك من جهة المخلوقين ، ولا تعتمد على زادك أو راحلتك وأصحابك وقوتك وشبابك ومالك مخافة أن يصير ذلك عدواً ووبالاً ، فإن من ادعى رضاء الله واعتمد على ما سواه

صيره عليه وبالاً وعدواً ليعلم أنه ليس له قوة وحيلة ولا لأحد الا بعصمة الله وتوفيقه .

فاستعد استعداد من لا يرجو الرجوع ، وأحسن الصحبة ، وراع أوقات فرائض الله وسنن نبيه وما يجب عليك من الأدب والاحتمال والصبر والشكر والشفقة والسخاوة وإيثار الزاد على دوام الأوقات .

ثم اغسل بماء التوبة الخالصة ذنوبك ، والبس كسوة الصدق والصفا والخضوع والخشوع ، وأحرم من كل شيء يمنعك عن ذكر الله ويحجبك عن طاعته ، ولب بمعنى اجابة صادقة صافية خالصة زاكية لله تعالى في دعوتك متمسكاً بالعروة الوثقى ، وطف بقلبك مع الملائكة حول العرش كطوافك مع المسلمين بنفسك حول البيت ، وهرول هرولة من هواك ، وتبرأ من حولك وقوتك ، واخرج من غفلتك وزلاتك بخروجك الى منى . ولا تتمن ما لا يحل لك ولا تستحقه ، واعترف بالخطأ بعرفات ، وجدد عهدك عند الله تعالى بوحدانيته ، وتقرب اليه واتقه بمزدلفة ، وأصعد بروحك الى الملأ الأعلى بصعودك على الجبل ، واذبح حنجرة الهوى والطمع عند الذبيحة ، وارم الشهوات والخساسة والدناءة والذميمة عند رمي الجمرات ، واحلق العيوب الظاهرة والباطنة بحلق شعرك ، وادخل فى أمان الله وكنفه وستره وكلاءته من متابعة مرادك بدخولك الحرم ودخول البيت متحققاً لتعظيم صاحبه ومعرفة جلاله وسلطانه ، واستلم الحجر رضاً بقسمته وخضوعاً لعزته ، وودع ما سواه بطواف الوداع ، واصف روحك وسرك للقائه يوم تلقاه بوقوفك على الصفا وكن بمرأى من الله نقياً أوصافك عند المروة ، واستقم على شرط حجتك هذه ووفاء عهدك الذي عاهدت به مع ربك وأوجبته له الى يوم القيامة .

واعلم بأن الله تعالى لم يفرض الحج ولم يخصه من جميع الطاعات بالاضافة الى نفسه بقوله تعالي : « ولله على الناس حج البيت من استطاع

اليه سبيلا » ، ولا شرع نبيه سنة في خلال المناسك على ترتيب ما شرعه الا للاستعانة والاشارة الى الموت والقبر والبعث والقيامة ، وفضل بيان السابقة من الدخول في الجنة أهلها ودخول النار أهلها بمشاهدة مناسك الحج من أولها الى آخرها لأولي الألباب وأولي النهي ٠

(فصـــل)

فى العزم على الحج

ينبغي للعازم أن يعلم انه عزم على أمر رفيع شأنه خطير أمره ، فليجعل عزمه خالصاً لوجه الله بعيداً عن الرياء والسمعة ، والا فقد أتلف ماله وأتعب بدنه واكتسب الاثم وخسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين ، وليرد المظالم ويتب توبة خالصة ، ولا يقدم على ربه قدوم العبد العاصي ، فلا يكون له من سفره نصيب الا التعب ٠

وليتذكر في سفره سفر الآخرة ، فعن قريب اليه يصير ونحوه يسير ٠

(فصـــل)

فى الزاد

ليتذكر فيه زاد سفر الآخرة ، فانه ابعد من هذا السفر والاحتياج فيه الى الزاد من الاعمال الصالحة أكثر ، وليحذر أن تكون أعماله التي هي زاده لا تصحبه بعد الموت بل يفسدها شوائب الرياء ٠

(فصـــل)

فى الراحلة

ليشكر الله على تسخير الدواب له لتحمل أثقاله الى بلد لم يكن بالغه الا بشق الأنفس ، وليتذكر المركب الذي يركبه الى الدار الآخرة ، وهي الجنازة التي يحمل عليها ، فالعجب لمن يستعد للسفر المشكوك فيه ولا يستعد للسفر المتيقن ٠

فصـــل
فى شراء ثوب الاحرام

ليذكر عنده الكفن ولفه فيه ، فانه سيرتدي ويتزر بثوبي الاحرام عند القرب من بيت الله ، وربما لا يتم سفره اليه ، وانه سيلقى الله ملفوفاً في ثياب الكفن لا محالة ، فكما لا يلقى بيت الله الا مخالفاً عادته في الزي والهيئة فلا يلقى الله بعد الموت الا في زي مخالف لزي الدنيا ، وهذان الثوبان متقاربان لعدم الخياطة فيهما .

(فصـــل)
فى الخروج من البلد

ليعلم انه فارق الأهل والوطن متوجهاً الى الله في سفر لا يضاهي أسفار الدنيا ، فليحضر في قلبه ماذا يريد وأين يتوجه وزيارة من يقصد ، وسفر الآخرة ومفارقة الأهل والوطن مفارقة لا رجوع فيها .

(فصـــل)
فى دخول البادية ومشاهدة العقبات

ليتذكر فيها مابين الخروج من الدنيا بالموت الى ميقات القيامة وما بينهما من الأهوال والمطالبات ، وليتذكر من هول قطع الطريق سؤال منكر ونكير ومن سباع البوادي عقارب القبر وديدانه وما فيه من الأفاعي والحيات ، ومن انفراده عن أهله وأقاربه وحشة القبر وكربته ووحدته ، وليتزود فى هذه الأحوال لمخاوف القبر .

(فصـــل)
فى الاحرام والتلبية بالميقات

ليعلم ان معناه اجابة نداء الله ، فليرج القبول وليخش ان يقال لـه « لا لبيك ولا سعديك » فان وقت التلبية بداية الأمر وهو محل الخطر ، فقد

روي ان السجاد عليه السلام لما احرم واستوت به راحلته اصفر لونه وانتقض ووقعت عليه الرعدة ولم يستطع أن يلبي فقال : أخشى ان يقول لي ربي لا لبيك ولا سعديك ، فلما لبى (ع) غشي عليه وسقط من راحلته ، فلم يزل يعتريه ذلك حتى قضى حجته .

(فصـــل)
فى دخول مكة

ليتذكر عندها انه قد انتهى الى حرم آمن ، وليرج عنده أن يأمن بدخوله من عقاب الله ، وليخش أن لا يكون أهلاً للقرب ، فيكون بدخول الحرم خائناً مستحقاً للمقت ، وليكن رجاؤه في جميع الأوقات غالباً ، فالكرم عميم ورب البيت كريم ، وحق الزائر يرعى وذمام المستجير غير مضيع .

(فصـــل)
فى وقوع البصر على البيت

ليحضر عظمة البيت في القلب ويقدر انه حاضر بين يدي رب البيت ، وليرجو أن يرزقه لقاءه فى الآخرة كما رزقه لقاء بيته في الدنيا ، وليتذكر انصباب الناس في القيامة الى جهة الجنة آملين لدخولها كافة فيؤذن لبعض ويمنع الآخرون .

(فصـــل)
فى الطواف بالبيت

ليعلم انه في الطواف متشبه بالملائكة الحافين حول العرش الطائفين حوله ، وان المقصود الحقيقي طواف قلبه بذكر رب البيت حتى لا يبتدىء الذكر الا به ولا يختم الا به كما يبتدىء الطائف بالبيت ويختم به .

(فصـــل)
فى استلام الحجر

ليعتقد انه حينئذ يبايع الله على طاعته والتجنب عن معصيته ، فليصمم

العزم على الوفاء ، ومن غدر في المبايعة استحق المقت ، فقد روي ان الحجر يمين الله في الأرض يصافح بها خلقه كما يصافح الرجل أخاه .

(فصــــل)
فى التعلق بأستار الكعبة والالتصاق بالملتزم

ليكن نيته فى الالتزام طلب القرب حباً وشوقاً للبيت ولرب البيت وتبركاً بالمماسة ورجاءاً للتحصن عن النار في كل جزء لا في البيت ، ولتكن نيته في التعلق بالستر الالحاح في طلب المغفرة وسؤال الأمان كالمذنب المتعلق بثياب من أذنب اليه المتضرع اليه في عفوه عنه المظهر له انه لا ملجأ له منه الا الي ولا مفزع له الا عفوه وكرمه ، وانه لا يفارق ذيله الا بالعفو وبذل الأمن في المستقبل .

(فصــــل)
فى السعي بين الصفا والمروة فى فناء البيت

ليتذكر انه متردد تردد العبد في فناء ملك الملوك جائياً وذاهباً مرة بعد أخرى وكرة بعد أولى ، اظهاراً للخلوص في الخدمة ورجاءاً للملاحظة بعين الرحمة ، كالذي دخل على الملك وخرج وهو لا يدري مـا الذي يقضي به الملك في حقه من قبول أو رد ، فلا يزال يتردد على فناء الدار مرة بعد أخرى يرجو أن يرحم في الثانية ان لم يرحم فى الأولى .

وليتذكر عند تردده تردده بين كفتي الميزان في عرصات القيامة ، وليمثل الصفا بكفة الحسنات والمروة بكفة السيئات ، وليتذكر تردده بين الكفتين ناظراً الى الرجحان والنقصان مردداً بين العذاب والغفران .

(فصــــل)
فى الوقوف بعرفة

ليتذكر بما يرى من ازدحام الخلق وارتفاع الأصوات واختلاف اللغات

واتباع الفرق أئمتهم في الترددات على المشاعر اقتفاءاً لهم وسيراً بسيرتهم عرصات القيامة واجتماع الأمم مع الأنبياء والأئمة ، واقتفاء كل أمـــة نبياً وطمعهم في شفاعتهم وتحيرهم في ذلك الصعيد الواحد بين الرد والقبول .

واذا تذكرت ذلك فالزم قلبك الضراعة والابتهال الى الله حتى تحشر في زمرة الفائزين المرحومين ، وحقق رجاءك بالاجابة ، فالموقف شريف .

(فصـــل)

فى الوقوف بالمشعر

استحضر أنه قد أقبل عليك مولاك بعد أن كان مدبراً عنك طارداً لك عن بابه فأذن لك في دخول حرمه ، فان المشعر من جملة الحرم وعرفة خارجة عنه ، فقد أشرف على أبواب الرحمة وهبت عليك نسمات الرأفة ، وكسبت خلع القبول بالاذن في دخول حرم الملك .

(فصـــل)

فى رمي الجمـــار

ليقصد به الانقياد للأمر ، اظهاراً للرق والعبودية وانتهاضاً لمجرد الامتثال من غير حظ للعقل والنفس ، وليقصد به التشبه بابراهيم عليه السلام حيث عرض له ابليس عليه اللعنة في هذا الموضع ليدخل على حجه الشبهة فأمره الله أن يرميه بالحجارة طرداً له وقطعاً لأصله .

(فصـــل)
فى ذبح الهـدي

ليعلم انه تقرب الى الله تعالى بحكم الامتثال ، وليرج أن يعتق بكل جزء منه جزءاً من النار ، وهكذا ورد الوعد ، وكلما كان الهدي أكثر وأجزاؤه أوفر كان فداؤه من النار أعم •

(فصـــل)
فى رؤية المدينة

اذا وقع بصرك على حيطانها فتذكر انها البلدة التي اختارها الله عز وجل لنبيه (ص) وجعل اليها هجرته وانها داره التي فيها شرع فرائض ربه وسننه وجاهد عدوه وأظهر بها دينه الى أن توفاه الله وجعل تربته فيها •

ثم مثل في نفسك مواقع أقدام رسول الله (ص) عند ترددداتك فيها ، وانه ما من موضع قدم تطأه الا وهي موضع قدمه العزيز ، فلا تضع قدمك عليه الا على سكينة ووجل ، وتذكر مشيه وتخطيه في سككها ، وتصور خشوعه صلى الله عليه وآله وسكينته في المشي واحباط عمل من هتك حرمته برفع صوته فوق صوته •

(فصـــل)
فى زيارة النبي والائمة (ع)

ينبغي أن تقف بين أيديهم في كمال الأدب خاشعاً معظماً ، وأن تزورهم أمواتاً كما تزورهم أحياءاً ، ولا تقرب من قبرهم الا كما تقرب من شخصهم

في حياتهم ٠

واعلم انهم عالمون بحضورك وقيامك وزيارتك ، وانه يبلغهم سلامك وصلواتك ، فمثل صورهم الكريمة في خيالك موضوعين على اللحد بأزائك ، وأحضر عظيم رتبتهم في قلبك ، وتذكر كلماتهم الشريفة ومواعظهم المنيفة ونصائحهم الشافية وهدايتهم الكفية الوافية ٠

الركن الثاني

في العبادات ، وفيه أبواب :

الباب الأول

فى جملة الحقوق التي تلزم الانسان :

روى الصدوق في الفقيه عن زين العابدين عليه السلام قال :

حق الله الأكبر أن تعبده لا تشرك به شيئاً ، فاذا فعلت ذلك باخلاص جعل لك على نفسه أن يكفيك أمر الدنيا والآخرة ٠

وحق نفسك عليك أن تستعملها بطاعة الله تعالى ٠

وحق اللسان اكرامه عن الخنا وتعويده الخير وترك الفضول التي لا فائدة فيها والبر بالناس وحسن القول فيهم ٠

وحق السمع تنزيهه عن سماع الغيبة وسماع ما لا يحل له سماعه ٠

وحق البصر أن تغضه عما لا يحل لك وتعتبر بالنظر به ٠

وحق يدك أن لا تبسطها الى ما لا يحل لك ٠

وحق رجليك أن لا تمشي بهما الى ما لا يحل لك فيهما تقف على الصراط فانظر أن لا تزل بك فتردى بهما في النار ٠

وحق بطنك أن لا تجعله وعاءاً للحرام ولا تزيد على الشبع ٠

وحق فرجك أن تحصنه عن الزنا وتحفظه من أن ينظر اليه ٠

وحق الصلاة أن تعلم أنها وفادة الى الله عز وجل وأنت فيها قائم بين يدي الله تعالى ، فاذا علمت ذلك قمت مقام العبد الذليل الحقير الراغب الراهب الراجي الخائف المستكين المتضرع المعظّم لمن كان بين يديه بالسكون والوقار ، وتقبل عليها بقلبك وتقيمها بحدودها وحقوقها .

وحق الحج أن تعلم أنه وفادة الى ربك وفرار اليه من ذنوبك ، وفيه قبول توبتك وقضاء الفرض الذي أوجبه الله تعالى عليك .

وحق الصوم أن تعلم انه حجاب ضربه الله عز وجل على لسانك وسمعك وبصرك وبطنك وفرجك ليسترك به من النار ، فان تركت الصوم خرقت ستر الله عليك .

وحق الصدقة أن تعلم انها ذخرك عند ربك ووديعتك التي لا يحتاج الى الاشهاد عليها ، وكنت لما تستودعه سراً أوثق منك بما تستودعه علانية ، وتعلم انها تدفع البلاء والاسقام في الدنيا وتدفع عنك النار في الآخرة .

وحق الهدي أن تريد به الله عز وجل ولا تريد به خلقه ، ولا تريد به الا التعرض لرحمة الله ونجاة روحك يوم تلقاه .

وحق السلطان ان تعلم أنك جعلت له فتنة ، وانه مبتلى فيك بما جعله الله له عليك من السلطان ، وان عليك أن لا تتعرض لسخطه فتلقى بيدك الى التهلكة وتكون شريكاً له فيما يأتي اليك من سوء .

وحق سائسك بالعلم التعظيم له والتوقير لمجلسه ، وحسن الاستماع اليه والاقبال اليه ، وان لا ترفع عليه صوتك ، ولا تجيب أحداً يسأله عن شيء حتى يكون هو الذي يجيب ، ولا تحدث في مجلسه أحداً ، ولا تغتاب عنده أحداً ، وأن تدفع عنه اذا ذكر عندك بسوء ، وأن تستر عيوبه وتظهر مناقبه ، ولا تجالس له عدواً ولا تعادي له ولياً ، فاذا فعلت ذلك شهد لك ملائكة الله بأنك قصدته وتعلمت علمه لله جل اسمه لا للناس .

وأما حق سائسك بالملك فإن تطيعه ولا تعصيه الا فيما يسخط الله عز وجل ، فانه لا طاعة للمخلوق في معصية الخالق •

وأما حق رعيتك بالسلطان فان تعلم انهم صاروا رعيتك لضعفهم وقوتك ، فيجب أن تعدل فيهم وتكون لهم كالوالد الرحيم ، وتغفر لهم جهلهم ولا تعاجلهم بالعقوبة ، وتشكر الله عز وجل على ما آتاك من القوة عليهم •

وأما حق رعيتك بالعلم فان تعلم أن الله عز وجل انما جعلك قيماً لهم فيما آتاك من العلم وفتح لك من خزائنه فان أحسنت في تعليم الناس ولم تخرق بهم ولم تضجر عليهم زادك الله من فضله ، وان أنت منعت الناس علمك أو خرقت بهم عند طلبهم العلم منك كان حقاً على الله عز وجل أن يسلبك العلم وبهاءه ويسقط من القلوب محلك •

وأما حق الزوجة فان تعلم أن الله تعالى جعلها لك سكناً وأنساً ، فتعلم أن ذلك نعمة من الله تعالى عليك ، فتكرمها وترفق بها وان كان حقك عليها أوجب ، فان لها عليك أن ترحمها لأنها أسيرك ، وتطعمها وتكسوها واذا جهلت عفوت عنها •

وأما حق مملوكك فان تعلم أنه خلق ربك وابن أبيك وامك ولحمك ودمك ، لم تملكه لأنك ما صنعته دون الله ولا خلقت شيئاً من جوارحه ولا أخرجت له رزقاً ، ولكن الله تعالى كفاك ذلك ثم سخره لك وائتمنك عليه واستودعك إياه ليحفظ لك ما يأتيه من خير اليه ، فأحسن اليه كما أحسن الله اليك ، وان كرهته استبدلت به ولم تعذب خلق الله تعالى • ولا قوة الا بالله •

وحق أمك أن تعلم انها حملت حيث لا يحتمل أحد أحداً ، واعطتك من ثمرة قلبها ما لا يعطي أحد أحداً ، ووقتك بجميع جوارحها ، ولم تبال أن تجوع وتطعمك وتعطش وتسقيك وتعرى وتكسوك وتضحى وتظلك ، وتهجر النوم لأجلك ، ووقتك الحر والبرد لتكون لها ، فانك لا تطيق شكرها الا

بعون الله وتوفيقه •

وأما حق أبيك فان تعلم انه أصلك ، فانك لولاه لم تكن مهما رأيت من نفسك ما يعجبك فاعلم أن أباك أصل النعمة عليك فيه ، فاحمد الله واشكره على قدر ذلك •

وأما حق ولدك فأن تعلم انه منك ومضاف اليك في عاجل الدنيا بخيره وشره ، وانك مسؤول عما وليته من حسن الأدب والدلالة على ربه عز وجل والمعونة على طاعته ، فاعمل فى أمره عمل من يعلم انه مثاب على الاحسان اليه معاقب على الاساءة اليه •

وأما حق أخيك فان تعلم انه يدك وعزك وقوتك فلا تتخذه سلاحاً على معصية الله ولا عدة للظلم على خلق الله ، ولا تدع نصرته على عدوه والنصيحة له ، فان أطاع الله والا فليكن الله أكرم عليك منه •

وأما حق مولاك المنعم عليك فان تعلم انه انفق فيك ماله وأخرجك من ذل الرق ووحشته الى عز الحرية وانسها فأطلقك من أسر الملكة وفك عنك قيد العبودية وأخرجك من السجن وملكك نفسك وفرغك لعبادة ربك ، وتعلم انه أولى الخلق بك في حياتك وموتك ، وان نصرته عليك واجبة بنفسك وما احتاج اليه منك •

وأما حق مولاك الذي أنعمت عليه فأن تعلم ان الله عز وجل جعل عتقك له وسيلة اليه وحجاباً لك من النار ، وان ثوابك في العاجل ميراثه اذا لم يكن له رحم مكافأة لما انفقت من مالك وفي الآجل الجنة •

وأما حق ذي المعروف عليك فأن تشكره وتذكر معروفه وتكسبه المقالة الحسنة ، وتخلص له الدعاء فيما بينك وبين الله تعالى ، فاذا فعلت ذلك كنت قد شكرته سراً وعلانية ، ثم ان قدرت على مكافأته يوماً كافيته •

وحق المؤذن أن تعلم انه مذكر لك ربك عز وجل وداع لك الى حظك

وعونك على قضاء فرض الله عليك ، فاشكره على ذلك شكر المحسنين اليك .

وأما حق امامك في صلاتك فأن تعلم انـه تقلد السفارة بينك وبين ربك عز وجل وتكلم عنك ولم تتكلم عنـه ، ودعى لك ولم تدع لـه . وكفاك هول المقام بين يدي الله عز وجل ، فان كان نقص كان به دونك وان كان تماماً كنت شريكه ، ولم يكن له عليك فضل فوقى نفسك بنفسه وصلاتك بصلاته ، فتشكر له على قدر ذلك .

وأما حق جليسك فأن تلين له جانبك وتنصفه في مجازاة اللفظ ولا تقوم من مجلسك الا باذنه ، ومن يجلس اليك يجوز له القيام عنك بغير اذنك ، وتنسى زلاته وتحفظ خيراته ولا تسمعه الا خيراً .

وأما حق جارك فحفظه غائباً واكرامه شاهداً ونصرته اذا كان مظلوماً ، ولا تتبع له عورة ، فان علمت عليه سوءاً سترته عليه ، وان علمت انه يقبل نصيحتك نصحته فيما بينك وبينه ، ولا تسلمه عند شديدة ، وتقيل عثرته وتغفر ذنبه وتعاشره معاشرة كريمة .

وأما حق الصاحب فأن تصحبه بالتفضل والانصاف وتكرمه كما يكرمك، ولا تدعه يسبق الى مكرمة فان سبق كافيته ، وتوده كما يودك ، وتزجره عما يهم به من معصية ، وكن عليه رحمة ولا تكن عليه عذاباً .

وأما حق الشريك فان غاب كفيته وان حضر رعيته ، ولا تحكم دون حكمه ولا تعمل برأيك دون مناظرته ، وتحفظ عليه ماله ولا تخنه فيما غر أو خان من أمره ، فان يد الله تعالى على الشريكين ما لم يتخاونا .

وأما حق مالك فأن لا تأخذه الا من حله ولا تنفقه الا في وجهه ، ولا تؤثر على نفسك من لا يحمدك فاعمل به بطاعة ربك ، ولا تبخل به فتبوء بالحسرة والندامة والتبعة .

وأما حق غريمك الذي يطلبك فان كنت مؤسراً أعطيته ، وان كنت معسراً

أرضيته بحسن القول ورددته عن نفسك رداً لطيفاً .

وحق الخليط أن لا تغره ولا تغشه ولا تخدعه وتتقي الله في أمره .

وحق الخصم المدعى عليك فان كان ما يدعي عليك حقاً كنت شاهده على نفسك ولم تظلمه وأوفيته حقه ، وان كان ما يدعي باطلاً رفقت به ولم تأت به في أمره غير الرفق ولم تسخط ربك .

وحق خصمك الذي تدعي عليه ان كنت محقاً فى دعواك أجملت مقاولته ولم تجحد حقه ، وان كنت مبطلاً في دعواك اتقيت الله عز وجل وتبت اليه وتركت الدعوى .

وحق المستشير ان علمت لـه رأياً حسناً أشرت عليه ، وان لم تعلم أرشدته الى من يعلم .

وحق المشير عليك أن لا تتهمه فيما لا يوافقك من رأيه ، وان وافقك حمدت الله تعالى .

وحق المستنصح أن تؤدي اليه النصيحة ،وليكن مذهبك الرحمة له والرفق به

وحق الناصح أن تلين له جناحك وتصغي اليه بسمعك ، فان أتى بالصواب حمدت الله تعالى وان لم يوفق رحمته ولم تتهمه وعلمت انه أخطأ ولم تؤاخذه بذلك الا أن يكون مستحقاً للتهمة فلا تعبأ بشيء من أمره على حال .

وحق الكبير توقيره لسنه واجلاله لتقدمه في الاسلام قبلك وترك مقابلته عند الخصام ، ولا تسبقه الى طريق ولا تتقدمه ولا تستجهله ، وان جهل عليك احتملته وأكرمته لحق الاسلام وحرمته .

وحق الصغير رحمته في تعليمه والعفو عنه والستر عليه والرفق به والمعونة .

وحق السائل اعطاؤه على قدر حاجته .

وحق المسؤول ان أعطى فاقبل منه بالشكر والمعرفة بفضله ، وان منع فاقبل عذره .

وحق من سرك لله ان تحمد الله تعالى أولاً ثم تشكره •

وحق من اساءك أن تعفو عنه ، وان علمت ان العفو يضر انتصرت •

قال الله تعالى • « ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل » •

وحق أهل ملتك اضمار السلامة والرحمة لهم والرفق بمسيئهم وتألفهم واستصلاحهم وشكر محسنهم وكف الأذى عنهم ، وتحب لهم ما تحب لنفسك وتكره لهم ما تكره لنفسك ، وان يكون شيوخهم بمنزلة أبيك وشبابهم بمنزلة اخوتك وعجائزهم بمنزلة أمك والصغار بمنزلة أولادك •

وأما حق أهل الذمة أن تقبل منهم ما قبل الله عز وجل منهم ولا تظلمهم ما وفوا لله عز وجل بعهده •

الباب الثاني

فى آداب المعيشة والمجالسة مع أصناف الخلق اجمالاً ، ملتقطة من كلام الحكماء وأخبار أهل البيت عليهم السلام :

اذا أردت حسن المعيشة فالق صديقك وعدوك بوجه الرضا من غير ذلة لهم ولا وحشة منهم •

وتوقر في غير كبر وتواضع في غير مذلة •

وكن في جميع امورك في أوسطها ، فكلتا طرفى قصد الأمور ذميم •

ولا تنظر في عطفيك ، ولا تكثر الالتفات ، ولا تقف على الجماعات ، واذا جلست فلا تستوفز [١] •

وتحفظ من تشبيك أصابعك ، والعبث بلحيتك وخاتمك، وتخليل أسنانك وادخال يدك في أنفك ، وكثرة بصاقك وتنخمك ، وطرد الذباب عن وجهك ، وكثرة التمطي والتثاءب في وجوه الناس وفي الصلاة وفي غيرها •

وليكن مجلسك هادئاً ، وحديثك منظوماً مرتباً ، واصغ الى الكلام

(١) المستوفز : الذي ينتصب في جلسته ويضع اليتيه على قدميه •

الحسن من حدثك بغير اظهار تعجب مفرط ، ولا تسأله اعادته .

واسكت عن المضاحك والحكايات ، ولا تحدث عن اعجابك بولدك ولا جاريتك ولا شعرك وتصنيفك وسائر ما يخصك .

ولا تتصنع تصنع المرأة في التزين ولا تتبذل تبذل العبيد ، وتوق كثرة الكحل والاسراف فى الدهن ، ولا تلح في الحاجات ، ولا تشجع أحداً على الظلم .

ولا تعلم اهلك وولدك فضلاً عن غيرهم مقدار مالك ، فانهم ان رأوه قليلاً هنت عندهم ، وان كان كثيراً لم تبلغ قط رضاهم ، واجفهم من غير عنف ، ولن لهم من غير ضعف .

ولا تهازل أمتك ولا عبدك فيسقط وقارك ، واذا خاصمت فتوقر وتحفظ من جهلك وتجنب عجلتك ، وتفكر في حجتك ، ولا تكثر من الاشارة بيديك ، ولا تكثر الالتفات الى من وراءك .

ولا تجث على ركبتيك ، واذا هدأ غيظك فتكلم ، وان قربك سلطان فكن منه على حد السنان ، وان استرسل اليك فلا تأمن انقلابه عليك ، وارفق به رفقك بالصبي ، وكلمه بما يشتهيه ولا يحملنك لطفه بك أن تدخل بينه وبين أهله وولده وجيشه وان كنت لذلك مستحقاً عنده ، فان سقطة الداخل بين الملك وأهله سقطة لا تنعش وزلة لا تقال .

واياك وصديق العافية ، فانه أعدى الأعداء ، ولا تجعل مالك اكرم من عرضك ، واذا دخلت مجلساً فالأدب البداية بالتسليم وترك التخطي لمن سبق والجلوس حيث تسعى وحيث يكون أقرب الى التواضع ، وأن تحيي بالسلام من قرب منك عند الجلوس ، ولا تجلس على الطريق ، وان جلست فأدبه غض البصر ، ونصرة المظلوم واغاثة الملهوف وعون الضعيف وارشاد الضال ورد السلام واعطاء السائل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والارتياد

لموضع البصاق ، فلا تبصق عن جهة القبلة ولا عن يمينك ولكن عن يسارك وتحت قدمك اليسرى .

ولا تجالس الملوك ، فان فعلت فأدبه ترك الغيبة ومجانبة الكذب وصيانة السر وقلة الحوائج وتهذيب الألفاظ والاعراب في الخطاب ، والمذاكرة بأخلاق الملوك وقلة المداعبة وكثرة الحذر منهم وان ظهرت المودة ، وأن لا يتجشأ [١] بحضرته ولا يتخلل بعد الأكل عنده .

وعلى الملك أن يتحمل كل شيء الا افشاء السر والقدح في الملك والتعرض للحرم .

ولا تجالس العامة ، فان فعلت فأدبه ترك الخوض في حديثهم ، وقلة الاصغاء الى أراجيفهم ، والتغافل عما يجري في سوء ألفاظهم ، وقلة اللقاء لهم مع الحاجة اليهم .

واياك وأن تمازح لبيباً أو غير لبيب ، فان اللبيب يحقد عليك والسفيه يجترىء عليك ، لأن المزاح يخرق الهيبة ، ويسقط ماء الوجه ، ويعقب الحقد ، ويذهب بحلاوة الود ، ويشين فقه الفقيه ويجرء السفيه ، ويسقط المنزلة عند الحكيم ، ويمقته المتقون . وهو يميت القلب ، ويباعد عن الرب ، ويكسب الغفلة ، ويورث الذلة ، وبه تظلم السرائر وتموت الخواطر ، وبه تكثر العيوب وتبين الذنوب . وقد قيل : لا يكون المزاح الا من سخف أو بطر ، ومن بلي في مجلس بمزاح أو لفظ فليذكر الله تعالى عند قيامه . قال النبي (ص) : من جلس فى مجلس وكثر فيه لفظه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك : « سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت استغفرك وأتوب اليك » غفر له ما كان في مجلسه ذلك .

(١) تجشأ : هو الصوت من الفم يكون عند الشبع .

الباب الثالث

فى الاخاء والألفة

قال تعالى في معرض الامتنان : « لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم » .

وقال تعالى : « فأصبحتم بنعمته اخواناً » يعني بالالفة .

ثم ذم التفرقة وزجر عنهـا فقال : « واعتصموا بحبـل الله جميعاً ولا تفرقوا » .

وقال : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا » .

وقال النبي (ص) : من أراد الله به خيراً رزقه خليلاً صالحاً ، ان نسي ذكره وان ذكر أعانه .

وقال (ص) : من آخى أخاً في الله رفع الله له درجة في الجنة لا ينالها بشيء من عمله .

وقال أمير المؤمنين (ع) : أعجز الناس من عجز عن اكتساب الاخوان ، وأعجز منه من ضيع من ظفر به .

وقال النبي (ص) : أوثق عرى الايمان الحب في الله والبغض فى الله والتولي لأولياء الله والتبري من أعداء الله .

وقال الباقر (ع) : اذا أردت أن تعلم أن فيك خيراً فانظر الى قلبك ، فان كان يحب أهل طاعة الله ويبغض أهل معصيته ففيك خير والله يحبك ، واذا كان يبغض أهل طاعة الله ويحب أهل معصيته فليس فيك خيراً والله يبغضك ، والمرء مع من أحب .

وتحقيق المقام في بيان الحب والبغض في الله : ان الصحبة تنقسم الى ما يقع بالاتفاق — كالصحبة بحسب الجوار وبحسب الاجتماع في مدرسة أو سوق أو سفر أو على باب السلطان أو غير ذلك — والى ما ينشأ اختياراً أو يقصد ، وهو الذي يبعث على الأخوة في الدين ، اذ لا ثواب الا على الأفعال الاختيارية •

والصحبة عبارة عن المجالسة والمخالطة والمجاورة ، وهذه الأمور لا يقصد بها الانسان غيره الا اذا أحبه ، فان غير المحبوب يجتنب ويباعد ولا يقصد مخالطته •

والمحبوب إما أن يحب لذاته ، واما أن يحب ليتوصل به الى مقصود آخر ورائه ، وذلك المقصود اما أن يكون مقصوراً على الدنيا وحظوظها ، واما أن يكون متعلقاً بالآخرة ، واما أن يكون متعلقاً بالله تعالى • فهـذه أربعة أقسام :

(القسم الأول) وهو حبك الانسان لذاته ، وهو ممكن أن يكون هو في ذاته محبوباً عندك على معنى انك تلتذ برؤيته ومعيته ومشاهدة أخلاقه لاستحسانك له ، فان كل جميل لذيذ فى حق من أدرك جماله ، وكل لذيذ محبوب ، واللذة تتبع الاستحسان ، والاستحسان يتبع الملائمة والمناسبة والموافقة بين الطباع •

ثم ذلك المستحسن اما ان لا يكون الصورة الظاهرة — أي الخلقة — واما أن يكون الصورة الباطنة ، وهي كمال العقل وحسن الخلق ، ويتبع حسن الأخلاق حسن الأفعال لا محالة ، ويتبع كمال العقل غزارة العلم ، وكل ذلك مستحسن عند ذي الطبع السليم والعقل المستقيم • وكل مستحسن مستلذ به ومحبوب ، بل في ائتلاف القلوب أمر أغمض من هذا ، فانه قد تستحكم المودة بين شخصين من غير ملاحة في صورة وحسن في خلق وخلق ، ولكن

بمناسبة باطنة توجب الألفة والموافقة ، فان شبه الشيء ينجذب اليه بالطبع ، والاشباه الباطنة خفية ولها أسباب دقيقة ليس في قوة البشر الاطلاع عليها ، وعنه عبر رسول الله (ص) بقوله : الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف . فالتناكر نتيجة التباين ، والائتلاف نتيجة التناسب الذي عبر عنه بالتعارف .

ويدخل في هذا القسم المحبة للجمال اذا لم يكن المقصود قضاء الشهوة وهذا الحب لا يدخل فيه الحب لله ، بل هو الحب بالطبع وشهوة النفس ، وهو أن اتصل به غرض مذموم صار مذموماً والا فهو مباح .

(القسم الثاني) ان يحبه لينال من ذاته غير ذاته ، فيكون وسيلة الى محبوب غيره ، والوسيلة الى المحبوب محبوب ، ولذلك يحب الناس الذهب والفضة من حيث انهما وسيلة الى المقاصد ، وهو ان كان لفائدة دنيوية لم يكن من جملة الحب في الله ، ثم ينقسم ذلك الى مذموم ومباح .

(القسم الثالث) أن يحبه لا لذاته بل لغيره ، وذلك الغير غير راجع الى حظوظه فى الدنيا بل يرجع الى حظوظه في الآخرة ، كمن يحب استاذه وشيخه لأن يتوسل به الى تحصيل العلم وتحسين العمل ، ومقصوده من العلم والعمل الفوز في الآخرة ، فهذا من جملة المحبين لله ، وكذلك من يحب تلميذه لأنه يتلقف منه العلم وينال بواسطته رتبة التعليم ويترقى به الى درجة التعظيم في ملكوت السماء . قال عيسى عليه السلام : من علم وعمل وعلّم فذلك يدعى عظيما في ملكوت السماء .

ولا يتم التعليم الا بمتعلم ، فهو اذاً آلة في تحصيل هذا الكمال ، فان أحبه لأنه آلة له اذ جعل صدره مزرعة لحرثه فهو محب لله .

بل نزيد ونقول : من يجمع الضيفان ويهيىء لهم الأطعمة اللذيذة تقرباً الى الله فأحب طباخاً لحسن صنعته في الطبخ فهو من جملة المحبين في الله ،

وكذا لو أحب من يتولى له ايصال الصدقة الى المستحقين فقد أحبه فى الله .

بل نزيد على هذا ونقول : من أحب من يخدمه في غسل ثيابه وكنس بيته وطبخ طعامه لتفرغه بذلك للعلم والعمل ، ومقصوده من استخدامه في هذه الأعمال الفراغ للعبادة فهو محب في الله .

(القسم الرابع) أن يحب في الله ولله لا لينال منه علماً أو عملاً أو يتوسل به الى أمر وراء ذاته ، وهذا أعلا الدرجات وأعظمها ، وهذا القسم أيضاً ممكن فان من آثار غلبة الحب أن يتعدى الى كل من يتعلق بالمحبوب ويناسبه ولو من بعد ، فمن أحب انساناً حباً شديداً أحب محب ذلك الانسان وأحب محبوبه وأحب من يخدمه وأحب من يثني عليه محبوبه وأحب من يتسارع الى رضا محبوبه ، وكذلك من أحب الله تعالى أحب احباءه . ويأتي الكلام في محبة الله انشاء الله تعالى .

ويلزم المحب في الله أن يبغض فى الله ، فاذا أحببت انساناً من حيث انه مطيع لله تعالى فاذا عصى ربه فلابد أن تبغضه لأنه عاص لله وممقوت عند الله .

روي ان الله تعالى أوحى الى نبي من الأنبياء : اما زهدك في الدنيا فقد تعجلت الراحة ، وأما انقطاعك الي فقد تعززت بي ، ولكن هل عاديت فيَّ عدواً أو واليت فيَّ ولياً ؟!

الباب الرابع

في تقسيم الاخوان والأصدقاء

روي عن الباقر عليه السلام قال : قام رجل بالبصرة فقال : يا أمير المؤمنين أخبرنا عن الاخوان ؟ فقال (ع) : الاخوان صنفان : اخوان الثقة ، واخوان المكاشرة • فأما اخوان الثقة فهم الكهف والجناح والأهل والمال ، فاذا كنت من أخيك على حد الثقة فابذل له مالك وبدنك وصاف من صافاه وعادِ من عاداه واكتم سره وعيبه واظهر منه الحسن ، واعلم أيها السائل انهم أقل من الكبريت الأحمر • وأما اخوان المكاشرة فانك تصيب لذتك منهم فلا تقطعن ذلك منهم ، ولا تطلبن ما وراء ذلك عن ضميرهم ، وابذل لهم ما بذلوا من طلاقة الوجه وحلاوة اللسان •

وعن الصادق عليه السلام قال : قال أمير المؤمنين (ع) : لا عليك أن تصحب ذا العقل وان لم تحمد كرمه ، ولكن انتفع بعقله واحترس من سيىء أخلاقه ، ولا تدعن صحبة الكريم فان لم تنتفع بعقله ولكن انتفع بكرمه بعقلك وفرّ كل الفرار من اللئيم الأحمق •

وقال الصادق عليه السلام : عليك بالتلاد ، واياك وكل محدث لا عهد له ولا أمان ولا ذمة ولا ميثاق ، وكن على حذر من أوثق الناس في نفسك ، فان الناس أعداء النعم •

وفي رواية اخرى عنه (ع) : لا تكون الصداقة الا بحدودها ، فمن كانت فيه هذه الحدود أو شيء منها فانسبه الى الصداقة ، ومن لم يكن فيه شيء منها فلا تنسبه الى شيء من الصداقة : فأولها أن يكون سريرته وعلانيته لك واحدة ، والثانية أن يرى زينك زينه وشينك شينه ، والثالثة أن لا تغيره

عليك ولاية ولا مال ، والرابعة أن لا يمنعك شيئاً تناله مقدرته ، والخامسة — وهي تجمع هذه الخصال — ان لا يسلمك عند النكبات .

وفي مصباح الشريعة : قال الصادق عليه السلام : قد قل ثلاثة أشياء في كل زمان : الاخاء في الله ، والزوجةالصالحة الأليفة في دين الله، والولد الرشيد. ومن أصاب أحد الثلاثة فقد أصاب خير الدارين والحظ الأوفر في الدنيا .

واحذر أن تؤاخي من أرادك لطمع أو خوف أو فتل أو أكل أو شرب ، واطلب مؤاخاة الأتقياء وفي ظلمات الأرض ولو أفنيت عمرك في طلبهم ، فان الله عز وجل لم يخلق على وجه الأرض أفضل منهم بعد النبيين ، وما أنعم الله على العبد بمثل ما أنعم به من التوفيق لصحبتهم . قال الله تعالى : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين » .

الباب الخامس
فى حقوق الأخوة والصحبة

وهي في المال والنفس واللسان والقلب بالعفو والدعاء والاخلاص والوفاء والتخفيف وترك التكلف والتكليف ، وتجمعها ثمانية أمور :

(الأول) المال ، وله مراتب ثلاث :

(أولها) — وهي أدناها أن تنزله منزلة عبدك وخادمك في القيام بحوائجه وأموره من دون أن تحوجه الى سؤال .

(الثانية) — وهي أوسطها أن تنزله منزلة نفسك وترضى بمشاركته إياك في مالك .

(الثالثة) — وهي أعلاها أن تؤثره على نفسك وتقدم حاجته على حاجتك ، قال تعالى : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » .

وقال السجاد (ع) لرجل : هل يدخل أحدكم يده في كم أخيه وكيسه فيأخذ منه ما يريد من غير اذن ؟ قال : لا . قال : فلستم باخوان .

(الثاني) في الاعانة بالنفس في قضاء حاجاته والقيام بها قبل السؤال وهذه أيضاً لها درجات : أدناها القيام بالحاجة عند السؤال والقدرة مع البشاشة . وعن الصادق (ع) قال : اني لأتسارع الى قضاء حوائج أعدائي مخافة أن أردهم فيستغنوا عني . هذا في الأعداء فكيف في الأصدقاء .

(الثالث والرابع) على اللسان بالسكوت عن ذكر عيوبه في حضرته وغيبته والمماراة والمنافسة معه الا في الله ، وعن أسراره التي تنهى اليه ولو بعد القطيعة ، فان ذلك من لؤم الطبع ، وان يسكت عن القدح في أحبائه وأهله وولده ، وعن حكاية قدح غيره فيه ، فان الذي سبك من بلغك ، وبالنطق باظهار التودد والتفقد والدعاء والثناء ، وينصحه ويخوفه اذا ارتكب حراماً وينبهه على عيوبه ، ويقبح القبيح في عينه ويحسن الحسن .

قال (ص) : المؤمن مرآة المؤمن — أي يرى منه ما لا يرى من نفسه ، كما يستفيد بالمرآة الوقوف على عيوب صورته الظاهرة .

(الخامس) العفو عن زلاته وهفواته ، وهفوته ان كانت في الدين نصحته وأرشدته ، وان كانت لتقصير في الأخوة عفوت عنه ولا تعاقبه ، واذا اعتذر اليك فاقبل عذره . قال النبي (ص) : من اعتذر اليه اخوه فلم يقبل فعليه مثل اثم صاحب المكس .

(السادس) الدعاء له في حياته ومماته بكل ما يحبه لنفسه ولأهله ، ولا تفرق بين نفسك وبينه ، فان دعاءك له دعاء لنفسك . قال النبي (ص) : اذا دعى رجل لأخيه في ظهر الغيب قال الملك : ولك مثل ذلك .

وعن الباقر عليه السلام في قوله تعالى : « ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله » قال : هو المؤمن يدعو لأخيه بظهر الغيب ،

فتقول له الملائكة : آمين • ويقول الله العزيز الجبار : ولك مثلا ما سألت ، ولقد أعطيت ما سألت بحبك إياه •

وروي عن النبي (ص) انه قال : مثل الميت في قبره مثل الغريق يتعلق بكل شيء ، ينتظر دعوة من ولد أو والد أو أخ أو قريب ، وانه ليدخل على قبور الأموات من دعاء الأحياء من الأنوار مثل الجبال •

(السابع) الوفاء والاخلاص ، والوفاء هو الثبات على الحب وادامته الى الموت معه وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه ، فان الحب انما يراد للآخرة، فان انقطع قبل الموت حبط العمل وضاع السعي ، ولذلك قيل : « قليل الوفاء بعد الوفاة خير من كثير الوفاء في حال الحياة » •

وروي أنه (ص) أكرم عجوزاً دخلت عليه ، فقيل له في ذلك فقال : انها كانت تأتينا أيام خديجة •

ومن الوفاء مراعات جميع أقاربه وأصدقائه ، وان لا يتغير حاله في التواضع مع أخيه وان ارتفع شأنه واتسعت ولايته ، وأن لا يصادق أعداءه •

(الثامن) التخفيف وترك التكليف ، وذلك بأن لا يكلف أخاه ما يشق عليه ، ولا يستمد منه من جاه ولا مال ، ولا يكلفه التواضع له والتفقد والقيام بحقوقه ، بل لا يقصد بصحبته الا الله تبارك وتعالى تبركاً بدعائه واستيناساً بلقائه •

قال أمير المؤمنين (ع) : شر الأصدقاء من تكلف لك ، ومن أحوجك الى مداراة ، وألجأك الى اعتذار •

وعن الصادق (ع) قال : اثقل اخواني على من يتكلف لي واتحفظ منهم ، وأخفهم على قلبي من أكون معه كما أكون وحدي •

الباب السادس

فى حقوق المسلم والمؤمن

وهي أمور :

(الأول) أن يحب للكافة ما يحب لنفسه ، ويكره لهم ما يكره لنفسه .

قال الصادق (ع) : انما المؤمنون اخوة بنو أب وام ، واذا ضرب على رجل منهم عرق سهر له الآخرون .

وقال (ع) : المؤمن أخو المؤمن كالجسد الواحد ، ان اشتكى شيئاً منه وجد ألم ذلك في سائر جسده ، وأرواحهما من روح واحدة ـ الحديث .

وقال (ع) : المؤمنون خدم بعضهم لبعض ، قال : يفيد بعضهم بعضاً ـ الحديث .

وفي الصحيح عنه (ع) قال لأصحابه : اتقوا الله ، وكونوا اخوة بررة متحابين في الله متواصلين متراحمين ، تزاوروا وتلاقوا وتذاكروا أمرنا .

(الثاني) أن لا يؤذى أحداً من المسلمين بقول أو فعل . قال النبي (ص): المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده .

وقال (ص) : أتدرون من المسلم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . فقال : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده . قالوا : فمن المؤمن ؟ قال : من أمنه المؤمنون على أنفسهم وأموالهم . قالوا : فمن المهاجر ؟ قال : من هجر الشر واجتنبه .

وعن الباقر (ع) قال : ألا أنبئكم بالمؤمن ؟ من أئتمنه المؤمنون على أنفسهم وأموالهم . ألا أنبئكم بالمسلم ؟ من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر السيئات وترك ما حرم الله ، والمؤمن حرام على المؤمن أن

يظلمه أو يخذله أو يغتابه أو يدفعه دفعة .

(الثالث) ان يتواضع لكل مسلم ولا يتكبر عليه ، فان الله لا يحب كل مختال فخور . وقال (ص) : ان الله أوحى الي : ان تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ، ثم ان تفاخر عليه غيره فليحتمل ، فقد قال الله تعالى لنبيه (ص): « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » .

وقال الصادق (ع) : ان في السماء ملكين موكلين بالعباد ، فمن تواضع لله رفعاه ، ومن تكبر وضعاه .

وفي حديث حسن ان علي بن الحسين (ع) مرَّ على المجذومين وهو راكب حماره وهم يتغدون ، فدعوه الى الغداء فقال : أما لولا اني صائم لفعلت ، فلما صار الى منزله أمر بطعام فصنع وأمر أن يتنوقوا فيه ، ثم دعاهم فتغدوا عنده وتغدى معهم .

(الرابع) ان لا يسمع بلاغات الناس بعضهم على بعض ، ولا يبلغ بعضهم ما يسمع من بعض . قال (ص) : لا يدخل الجنة قتات [1] .

وفي الصحيح عن الباقر (ع) قال : قال رسول الله (ص) : يا معشر من أسلم بلسانه ولم يسلم بقلبه لا تتبعوا عثرات المسلمين ، فمن تتبع عثرات المسلمين تتبع الله عثراته ، ومن تتبع الله عثراته يفضحه .

وفي الموثق عنه (ع) قال : أقرب ما يكون العبد الى الكفر أن يؤاخي الرجل الرجل على الدين فيحصي عليه زلاته ليعيره بها يوماً .

وعنه (ع) قال : من روى على مؤمن رواية يريد بها شينه وهدم مروته ليسقط من أعين الناس أخرجه الله تعالى من ولايته الى ولاية الشيطان ، فلا يقبله الشيطان .

(الخامس) أن لا يزيد في الهجرة لمن يعرفه أكثر من ثلاثة أيام مهما غضب عليه . قال النبي (ص) : لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان

---

(١) هو النمام : من قتَّ الحديث أشاعه بين الناس .

فيعرض هذا ويعرض هذا ، وخيرهم الذي يبدأ بالسلام .

وقال (ص) : من أقال مسلماً عثرته أقاله الله يوم القيامة

وقال (ص) : أيما مسلمين تهاجروا فمكثا ثلاثاً لا يصطلحان الا كانا خارجين من الاسلام ولم يكن بينهما ولاية ، وأيهما سبق الى كلام صاحبه كان السابق الى الجنة يوم الحساب .

وعنه (ع) قال : لا يزال ابليس فرحاً ما تهاجر المسلمان ، فاذا التقيا اصطكت ركبتاه وتخلعت أوصاله ونادى ياويله ما لقى من الثبور .

(السادس) أن يحسن الى كل من قدر منهم أن استطاع ، فعن السجاد عن آبائه عن جده (ع) قال : قال رسول الله (ص) : اصنع المعروف الى أهله فان لم تصب أهله فأنت أهله .

وفي رواية عنه (ص) : قال : رأس العقل بعد الدين التودد الى الناس ، واصطناع المعروف الى كل بر وفاجر .

وقال الباقر عليه السلام : من خالطت فان استطعت أن تكون يدك العليا عليهم فافعل .

(السابع) ان لا يدخل على أحد الا باذنه ، بل يستأذن ثلاثاً فان أذن له والا انصرف ، فعن أمير المؤمنين (ع) ان النبي (ص) كان يسلم ثلاثاً فان أذن له والا انصرف .

(الثامن) أن يخالط الجميع بخلق حسن ويعاملهم بحسن طريقته ، فانه اذا أراد لقاء الجاهل بالعلم واللاهي بالفقه والغبي بالبيان اذى وتأذى . قال الصادق عليه السلام : خالقوا الناس بأخلاقهم .

(التاسع) أن يوقر المشائخ ويرحم الصبيان . قال النبي (ص) : ليس منا من لم يوقر كبيرنا ولم يرحم صغيرنا .

---

(١) وهو النمام ، من (قتّ الحديث) أشاعه بين الناس .

وقال (ص) : من تمام اجلال الله اكرام ذي الشيبة المسلم •

وقال الصادق (ع) : قال رسول الله (ص) : من عرف فضل كبير لسنه فوقره آمنه الله من فزع يوم القيامة •

وفي رواية : من وقر ذا شيبة في الاسلام آمنه الله من فزع يوم القيامة •

(العاشر) أن يكون مع كافة الخلق مستبشراً طلق الوجه رفيقاً • قال (ص) : أتدرون على من حرمت النار ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم • قال على اللين الهين السهل القريب • وقال عليه السلام ان الله يحب السهل الطلق •

وقال الصادق (ع) : من أخذ من وجه أخيه المؤمن قذاة كتب الله له عشر حسنات ، ومن تبسم في وجه أخيه كانت له حسنة •

وقال (ع) : من قال لأخيه مرحباً كتب الله له مرحباً الى يوم القيامة •

وعنه (ع) قال : قال رسول الله (ص) من أكرم أخاه المسلم بكلمة يلطفه بها وفرج عنه كربته لم يزل في ظل الله الممدود عليه الرحمة ما كان في ذلك •

وعنه (ع) قال : قال أمير المؤمنين (ع) : المؤمن الف مألوف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف •

(الحادي عشر) أن لا يعد مسلماً بوعد الا ويفي به • قال السجاد (ع) في صفة المنافق : واذا وعدك اخلفك •

وقال الصادق (ع) : عدة المؤمن أخاه نذر لا كفارة له ، فمن أخلف فبخلف الله بدا ولمقته تعرض ، وذلك قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتاً عند الله ان تقولوا ما لا تفعلون » •

وعنه (ع) قال : قال رسول الله (ص) : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليف اذا وعد •

وعنه (ع) قال : انما سمي اسماعيل صادق الوعد لأنه وعد رجلاً في مكان فانتظره فى ذلك المكان سنة ، فسماه الله تعالى صادق الوعد ، ثم ان

الرجل أتاه بعد ذلك فقال اسماعيل : ما زلت منتظراً لك .

(الثاني عشر) ان ينصف الناس من نفسه ، ولا يأتي اليهم الا ما يحب أن يؤتى اليه . قال أمير المؤمنين (ع) : من ينصف الناس من نفسه لم يزده الله الا عزاً .

وقال الصادق (ع) لرجل : ألا أخبرك بأشد ما فرض الله على خلقه ؟ قال : بلى . قال : انصاف الناس من نفسك ، ومواساتك أخاك ، وذكر الله في كل موطن ، أما اني لا أقول « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » وان كان هذا من ذلك ، ولكن ذكر الله فى كل موطن اذا هممت على طاعة أو معصية .

وروي أن اعرابياً أتى النبي (ص) وهو في بعض غزواته فأخذ بغرز راحلته فقال : يا رسول الله علمني عملاً أدخل به الجنة . فقال (ص) : ما أحببت أن يأتيه الناس اليك فأته اليهم ، وما كرهت أن يأتيه الناس اليك فلا تأته اليهم . خل سبيل الراحلة .

(الثالث عشر) أن يزيد في توقير من تدل هيئته وثيابه على علو منزلته ، وينزل الناس منازلهم . روى ان النبي (ص) دخل بعض بيوته ، فدخل عليه أصحابه حتى دحس وامتلأ ، فجاء جرير بن عبدالله البجلي فلم يجد مكاناً فقعد على الباب ، فلف رسول الله (ص) رداءه فألقاه عليه ، فقال له : اجلس على هذا . فأخذه جرير ووضعه على وجهه وجعل يقبله ويبكي ، ثم لفه فرمى به الى رسول الله (ص) وقال : ما كنت لأجلس على ثوبك أكرمك الله كما أكرمتني ، فنظر النبي (ص) يميناً وشمالاً ثم قال : اذا أتاكم كريم قوم فاكرموه .

وقال أمير المؤمنين (ع) : لما قدم عدي بن حاتم الى النبي (ص) أدخله النبي (ص) بيته — ولم يكن في البيت غير حصفة ووسادة من أدم — فطرحها

رسول الله (ص) لعدي .

(الرابع عشر) أن يصلح ذات البين من المسلمين مهما وجد اليه سبيلا .

قال (ص) : أفضل الصدقة اصلاح ذات البين .

وفي الصحيح عن الصادق (ع) قال : لأن أصلح بين اثنين أحب الي من أن أتصدق بدينارين .

وعن المفضل قال : قال أبو عبدالله عليه السلام : اذا رأيت بين اثنين من شيعتنا منازعة فافتدها من مالي .

وعن أبي حنيفة (سائق الحاج) قال : مرَّ بنا المفضل وأنا وختني نتشاجر في ميراث فوقف علينا ساعة ثم قال لنا : تعالوا الى المنزل ، فأتيناه فأصلح بيننا بأربعمائة درهم فدفعها الينا من عنده حتى اذا استوثق كل منا من صاحبه قال : أما انها ليست من مالي ولكن أبو عبدالله أمرني اذا تنازع رجلان من أصحابنا في شيء أن أصلح بينهما وافتديها من ماله ، فهذا مال أبي عبدالله عليه السلام .

وفي الحسن عنه (ع) قال : المصلح ليس بكاذب .

(الخامس عشر) ان يستر عورات المسلمين كلهم . قال (ص) : من ستر على مسلم ستره الله تعالى في الدنيا والآخرة .

وعن الصادق (ع) قال : قال رسول الله (ص) من أذاع فاحشة كان كمبتديها ، ومن عيَّر مؤمناً بشيء لم يمت حتى يركبه .

وعنه (ع) قال : من قال في مؤمن ما رأته عيناه وسمعته أذناه فهو من الذين قال الله تعالى : « ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم » .

(السادس عشر) أن يتقي مواضع التهم صيانة لقلوب الناس عن سوء الظن ، ولألسنتهم عن الغيبة ، فانهم اذا عصوا الله بذكره وكان هو السبب

فيه كان شريكاً •

قال (ص) : كيف ترون من يسب أبويه ؟ فقالوا : وهل من أحد يسب أبويه • فقال : نعم يسب أبوي غيره فيسبون أبويه •

(السابع عشر) أن يشفع لكل من له حاجة الى المسلمين الى كل من له عنده منزلة ، ويسعى في قضاء حاجته بما يقدر عليه ، ففي الكافي عن المفضل بن عمر عن الصادق عليه السلام قال : ان الله تعالى خلق خلقاً من خلقه انتجبهم لقضاء حوائج فقراء شيعتنا ليثيبهم على ذلك الجنة ، فان استطعت ان تكون منهم فكن •

وعنه (ع) قال : قضاء حاجة المؤمن خير من عتق ألف رقبة ، وخير من حملان الف فرس في سبيل الله •

وعنه (ع) : لقضاء حاجة امرىء مؤمن أحب الى الله من عشرين حجة ، كل حجة ينفق فيها صاحبها مائة الف •

وعن أبان بن تغلب قال : سمعت الصادق (ع) يقول : من طاف بالبيت اسبوعاً كتب الله تعالى له ستة آلاف حسنة ، ومحا عنه ستة آلاف سيئة ، ورفع له ستة آلاف درجة — وفي رواية وقضى له ستة آلاف حاجة — قال : ثم قال : وقضاء حاجة المؤمن أفضل من طواف وطواف — حتى عدَّ عشراً •

وعنه (ع) قال : ان المؤمن لترد عليه الحاجة لأخيه فلا يكون عنده فيهتم بها قلبه ، فيدخله الله بهمه الجنة •

وعنه (ع) قال : من بخل بمعونة أخيه المسلم والقيام له في حاجته ابتلي بالقيام بمعونة من يأثم عليه ولا يؤجر •

وعنه عليه السلام قال : قال رسول الله (ص) : من أعان مؤمناً نفس الله عنه ثلاثاً وسبعين كربة واحدة في الدنيا واثنتين وسبعين كربة عند كربته العظمى حيث يتشاغل الناس بأنفسهم •

(الثامن عشر) ان يبدأ كل مسلم بالسلام قبل الكلام ويصافحه عند السلام ، فعن الصادق عليه السلام قال : من بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه •

وقال (ع) : ابدأوا بالسلام قبل الكلام ، فمن بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه •

وقال (ع) : ان الله عز وجل قال : البخيل من بخل بالسلام •

وعنه (ع) قال : اذا سلم أحدكم فليجهر بسلامه ، ولا يقول « سلمتُ فلم يردوا علي » ولعله يكون قد سلم ولم يسمعهم ، واذا ردّ أحدكم فليجهر برده ولا يقول المسلم « سلمت فلم يردوا علي » •

وعنه (ع) قال : يسلم الصغير على الكبير ، والمار على القاعد ، والقليل على الكثير •

وعنه (ع) قال : القليل يبدأون الكثير بالسلام ، والراكب يبدأ الماشي ، وأصحاب البغال يبدأون بأصحاب الحمير ، وأصحاب الخيل يبدأون اصحاب البغـال •

وعنه (ع) قال : يسلم الراكب على الماشي ، والماشي على القاعد ، واذا لقيت جماعة جماعة سلم الأقل على الأكثر ، واذا لقي واحد جماعة سلم الواحد على الجماعة •

وعنه عليه السلام قال : لا تبدأوا أهل الكتاب بالتسليم ، واذا سلموا عليكم فقولوا : وعليكم •

وعن أبي عبيدة قال : كنت زميل أبي جعفر (ع) ، وكنت ابدأ بالركوب ثم يركب هو ، فاذا استوينا سلم وساءل مساءلة رجل لا عهد له بصاحبه وصافح • قال : وكان اذا نزل نزل قبلي فاذا استويت أنا وهو على الأرض سلم وساءل مساءلة من لا عهد له بصاحبه • فقلت : يابن رسول الله انك

لتفعل شيئاً ما يفعله من قبلنا وان فعل مرة فكثير ؟ فقال : أما علمت ما في المصافحة ، ان المؤمنين يلتقيان فيصافح أحدهما صاحبه فما تزال الذنوب تنحات عنهما كما ينحات الورق [1] عن الشجر والله ينظر اليهما حتى يفترقا .

وعنه (ع) قال : ما صافح رسول الله (ص) رجلاً قط فنزع يده حتى يكون هو الذي نزع يده منه .

وعنه (ع) قال : تصافحوا فانه يذهب بالسخيمة .

وعنه (ع) قال : مصافحة المؤمن أفضل من مصافحة الملائكة .

وعنه (ع) قال : ان لكم لنوراً تعرفون به فى الدنيا ، حتى ان أحدكم اذا لقي أخاه قبله في موضع النور من جبهته .

وعنه (ع) قال : لا تقبل رأس أحد ولا يده الا رسول الله أو من أريد به رسول الله صلى الله عليه وآله .

وفي رواية اخرى : ان تقبيل اليد لا يصلح الا لنبي أو وصي نبي .

وينبغي تعظيم المؤمن بالقيام ، لعمومات ما دل على الحث على التعظيم . قال تعالى : « ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب » وقال تعالى : « ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه » .

وقال (ص) : لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تقاطعوا ، وكونوا عباد الله اخواناً .

وربما يؤدي ترك القيام الى التباغض والتقاطع والاهانة ، وقد روي ان النبي (ص) قام الى فاطمة ، وقام الى جعفر لما قدم من الحبشة ، وقال للانصار : قوموا الى سيدكم .

وفي المحاسن عن الصادق (ع) انه سئل عمن قام من مجلسه يعظم الرجل؟ قال : مكروه الا لرجل في الدين .

---

(١) الحت : نثر الورق من الغصن ، وانحات أي تناثر .

وعنه (ع) قال : قال رسول الله (ص) : ان من حق الداخل على أهل البيت أن يمشوا معه هنيئة اذا دخل واذا خرج .

وأما ما روي عن النبي (ص) انه قال : من أحب أن يتمثل له النساء والرجال قياماً فليتبوّ مقعده من النار ، فهو محمول على ما يصنعه الجبابرة من الزامهم الناس بالقيام في حال قعودهم الى أن ينقضي مجلسهم ، لا هذا القيام المخصوص القصير زمانه ، ولو سلم فهو محمول على من أحب ذلك تجبراً وعلواً على الناس .

وأما ما روي عن النبي (ص) انه كان يكره أن يقام له ، وكان اذا قام لا يقومون له لعلمهم بكراهة ذلك ، فهو منه (ص) تواضع وتخفيف على أصحابه ، وينبغي للمؤمن أن لا يحب ذلك .

(التاسع عشر) أن يصون عرض أخيه ونفسه وماله عن ظلم غيره مهما قدر ، ويرد عنه ويناضل دونه وينصره ، فقد قال (ص) : من تطول على أخيه في غيبة سمعها منه في مجلس فردها عنه رد الله عنه ألف باب من الشر في الدنيا والآخرة ، وان لم يردها وهو قادر على ردها كان عليه كوزر من اغتابه سبعين مرة .

(العشرون) تسميت العاطس . قال الصادق (ع) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : اذا عطس الرجل فسمتوه ولو من وراء جزيرة . وفي رواية : ولو من وراء البحر .

وعنه (ع) قال : من سمع عطسة فحمد الله تعالى وصلى على النبي وأهل بيته لم يشتك عينه ولا ضرسه . ثم قال (ع) : ان سمعتها فقلها وان كان بينك وبينه البحر .

وعنه (ع) قال : من عطس ثم وضع يده على قصبة أنفه ثم قال : «الحمد لله رب العالمين كثيراً كما هو أهله وصلى الله على محمد النبي وآله » خرج

من منخره الأيسر طائر أصغر من الجراد وأكبر من الذباب حتى يصير تحت العرش يستغفر الله له الى يوم القيامة .

وعنه (ع) قل : قال رسول الله (ص) : العطاس للمريض دليل العافية وراحة البدن .

وفي رواية : انه ينفع البدن كله ما لم يزد على الثلاث ، فان زاد على الثلاث فهو داء وسقم .

وسئل الصادق عن قوله تعالى : « ان أنكر الأصوات لصوت الحمير » ؟ فقال : العطسة القبيحة .

وعنه (ع) قال : قال رسول الله (ص) : تصديق الحديث عند العطاس .

وفي رواية اخرى : اذا كان الرجل يتحدث بحديث فعطس عاطس فهو شاهد حق .

(الحادي والعشرون) التقية والمداراة مع الأشرار . عن الصادق (ع) في قوله تعالى : « اولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا » ؟ قال : بما صبروا على التقية . « ويدرأون بالحسنة السيئة » ؟ قال : الحسنة التقية والسيئة الاذاعة .

وعنه (ع) قال : ان تسعة أعشار الدين التقية ، ولا دين لمن لا تقية له .

وعنه عليه السلام قال : التقية من دين الله .

وعن الباقر (ع) قال : التقية ديني ودين آبائي ، ولا ايمان لمن لا تقية له .

وعنه (ع) قال : التقية في كل ضرورة ، وصاحبها أعلم بها حين تنزل به .

وعنه (ع) : التقية في كل شيء يضطر اليه ابن آدم فقد أحله الله .

وعنه (ع) : انما جعلت التقية ليحقن بها الدم ، فاذا بلغ الدم فليس تقية .

(الثاني والعشرون) ان تجتنب مخالطة الأغنياء ويختلط بالمساكين ،

ويحسن الى الايتام ، فقد كان النبي (ص) يقول : اللهم احيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين •

وقال (ص) : اياكم ومجالسة الموتى • قيل : ومن الموتى؟ قل : الأغنياء •

وقال الصادق (ع) : ما من عبد مسح يده على رأس يتيم ترحماً له الا أعطاه الله عز وجل بكل شعرة نوراً يوم لقيامة •

وروي : انه يكتب الله تعالى له بعدد كل شعرة مرت عليها يده حسنة •

وقال رسول الله (ص) : من أنكر منكم قساوة قلبه فليدن يتيماً فيلاطفه وليمسح رأسه يلن قلبه باذن الله ، فان لليتيم حقاً •

(الثالث والعشرون) النصيحة لكل مسلم والجهد في ادخال السرور ف قلبه ، ففي الصحيح عن الصادق عليه السلام قال : يجب للمؤمن على المؤمن النصيحة له في المشهد والمغيب •

وقال الباقر (ع) : قال رسول الله (ص) : لينصح الرجل منكم أخاه كنصيحته لنفسه •

وقال الصادق (ع) : قال رسول الله (ص) : من أصبح ولم يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم •

وقال (ص) : الخلق عيال الله ، فأحب الخلق الى الله من نفع عيال الله وأدخل على أهل بيته سروراً •

وعن الباقر (ع) قال : قال رسول الله (ص) : من سر مؤمناً فقد سرني ، ومن سرني فقد سر الله •

وعنه (ع) قال : تبسم الرجل في وجه أخيه حسنة ، وصرفه القذى عنه حسنة ، وما عبد الله بشيء أحب الى الله من ادخال السرور على المؤمن •

وقال الصادق (ع) : لا يرى أحدكم اذا أدخل على مؤمن سروراً أنه عليه أدخله فقط ، بل والله علينا ، بل والله علي رسول الله (ص) •

(الرابع والعشرون) أن يعود مرضاهم • قال الصادق (ع) : من عاد مريضاً من المسلمين وكّل الله به سبعين ألفاً من الملائكة يغشون رحله يسبحون فيه ويقدسون ويهللون ويكبرون الى يوم القيامة نصف صلواتهم لعائد المريض•

وعنه (ع) قال : أيما مؤمن عاد مؤمناً حتى يصبح شيعه سبعون ألف ملك ، فاذا قعد غمرته الرحمة واستغفروا له حتى يمسي ، وان عاده مساءاً كان له مثل ذلك حتى يصبح •

وعن الصادق (ع) قال : اذا دخل أحدكم على أخيه عائداً له فليدع له ، فان دعاءه مثل دعاء الملائكة •

وقال عليه السلام : من عاد مريضاً في الله لم يسأل المريض للعائد شيئاً الا استجاب الله له •

وعنه عليه السلام قال : تمام العيادة للمريض أن تدع يدك على ذراعه وتعجل القيام من عنده ، فان عيادة النوكي أشد على المريض من وجعه •

وعنه (ع) : العيادة قدر فواق الناقة أو حلب ناقة •

وعنه (ع) : ان أمير المؤمنين (ع) قال : ان من أعظم العواد أجراً عند الله لمن اذا عاد أخاه خفف الجلوس ، الا أن يكون المريض يحب ذلك ويريده ويسأله ذلك •

وعنه (ع) : لا عيادة في وجع العين ، ولا تكون عيادة في أقل من ثلاثة أيام ، فاذا وجبت فيوم ويوم لا ، فاذا طالت العلة ترك المريض وعياله •

(الخامس والعشرون) تشييع جنائزهم وحمل السرير والتعزية • قال الباقر (ع) : من مشى مع جنازة حتى يصلي عليها ثم رجع كان له قيراط ، واذا مشى معه حتى يدفن كان له قيراطان • والقيراط مثل أحد •

وقال (ع) : من تبع جنازة امرىء مسلم أعطي يوم القيامة أربع شفاعات ولم يقل شيئاً الا قال الملك : ولك مثل ذلك •

وقال الصادق عليه السلام : من أخذ بقائمة السرير غفر الله له خمساً وعشرين كبيرة ، واذا ربّع خرج من الذنوب .

وقال عليه السلام لاسحاق بن عمار : اذا حملت جوانب السرير سرير الميت خرجت من الذنوب كما ولدتك امك .

وقال الباقر (ع) : ان المشي خلف الجنازة أفضل من بين يديها ، ولا بأس ان مشيت بين يديها .

وقال رسول الله (ص) : من عزّى حزيناً كسي في الموقف حلة يحبر بها .

وقال الكاظم عليه السلام : يعزى قبل الدفن وبعده .

وقال الصادق عليه السلام : التعزية الواجبة بعد الدفن .

وقال : كفاك من التعزية بأن يراك صاحب المصيبة .

وعزى (ع) قوماً فقال : جبر الله وهنكم وأحسن عزاكم ورحم متوفاكم ، ثم انصرف .

(السادس والعشرون) زيارة قبورهم وعمل البر لأمواتهم .

روى الصدوق عن الصادق (ع) : انه سئل عن زيارة القبور وبناء المساجد فيها ؟ فقال : أما زيارة القبور فلا بأس ، ولا يبنى عندها مساجد .

وكانت فاطمة عليها السلام تأتي قبور الشهداء كل غداة سبت ، فتأتي قبر حمزة فتترحم عليه وتستغفر له .

وقال الكاظم عليه السلام : اذا دخلت المقابر فطأ القبور ، فمن كان مؤمناً استراح الى ذلك ، ومن كان منافقاً وجد ألمه .

وعن محمد بن مسلم قال : قلت لأبي عبدالله (ع) : الموتى نزورهم ؟ فقال : نعم . قلت : فيعلمون بنا اذا أتيناهم ؟ فقال : أي والله انهم ليعلمون بكم ويفرحون بكم ويستأنسون اليكم . قلت : فأي شيء نقول اذا أتيناهم؟ قال : قل « اللهم جاف الأرض عن جنوبهم وصاعد اليك أرواحهم ولقّهم

منك رضواناً واسكن اليهم من رحمتك ما تصل به وحدتهم وتؤنس به وحشتهم انك على كل شيء قدير » .

وقال الرضا (ع) : ما من عبد زار قبر مؤمن فقرأ عليه « انا أنزلناه » سبع مرات الا غفر الله له ولصاحب القبر .

وقال الصادق (ع) : ست تلحق المؤمن بعد وفاته : ولد يستغفر له ، ومصحف يخلفه ، وغرس يغرسه ، وصدقة ماء يجريه ، وقليب يحفره ، وسنة يؤخذ بها من بعده .

وقال (ع) : من عمل من المسلمين عن ميت عملاً صالحاً أضعف له ونفع الله به الميت .

وقال (ع) : يدخل على الميت في قبره الصلاة والحج والصدقة والبر والدعاء ، ويكتب أجره للذي يفعله وللميت .

الباب السابع
في بيان بعض الحقوق اجمالاً

اعلم ان الجملة الجامعة : أن لا تستصغر أحداً من اخوان الدين حياً كان أو ميتاً فتهلك ، لأنك لا تدري لعله خير منك ، فانه ــ وان كان فاسقاً ــ فلعله يختم له بالصلاح ويختم لك بمثل حاله . ولا تنظر اليهم بعين التعظيم لهم في حال دنياهم ، فان الدنيا صغيرة عند الله صغير ما فيها ، ومهما عظم أهل الدنيا في نفسك فقد عظمت الدنيا ، فتسقط من عين الله .

ولا تبذل لهم دينك لتنال من دنياهم فتصغر في أعينهم وتحرم دنياهم ، فان لم تحرم كنت قد استبدلت الذي هو أدنى بالذي هو خير .

ولا تعاديهم بحيث تظهر العداوة فيطول الأمر عليك في المعادات ويذهب

به دينك ودنياك فيهم ويذهب دينهم فيك ، الا اذا رأيت منكراً في الدين فتعادي أفعالهم القبيحة .

وتنظر اليهم بعين الرحمة لهم لتعرضهم لمقت الله وعقوبته بعصيانه ، فحسبهم جهنم يصلونها ، ولا تحقد عليهم ولا تسكن اليهم في مودتهم لك وثنائهم في وجهك وحسن بشرهم لك ، فانك اذا طلبت حقيقة ذلك لم تجد في المائة الا واحداً وربما لا تجده .

ولا تشك اليهم احوالك فيكلك الله اليهم ، ولا تطمع أن يكونوا لك في الغيب والسر كما فى العلانية ، فذلك طمع كاذب . ولا تطمع بما في أيديهم فتستعجل الذل ولا تنال الغرض . ولا تظهر عليهم تكبراً لاستغنائك عنهم فان الله يلجئك اليهم عقوبة على التكبر باظهار الاستغناء .

واذا سألت أخاً منهم حاجة فقضاها فهو أخ مستفاد ، وان لم يقضها فلا تعاتبه فيصير عدواً تطول عليك مقاساته .

ولا تشتغل بوعظ من لا ترى فيه مخايل القبول ، فلا يسمع منك ويعاديك وليكن وعظك عاماً من غير تنصيص على شخص .

ومهما رأيت منهم كرامة وخيراً فاشكر الله الذي سخرهم لك ، واستعذ بالله أن يكلك اليهم .

واذا بلغك عنهم غيبة أو رأيت منهم شراً أو أصابك منهم ما يسوؤك فكل أمرهم الى الله ، واستعذ بالله من شرهم ، ولا تشغل نفسك بالمكافاة فيزيد الضرر ويضيع العمر بذلك ، ولا تقل لهم « لم تعرفوا موضعي » ، واعتقد انك لو استحققت ذلك لجعل الله لك موضعاً في قلوبهم ، فالله المحبب والمبغض الى القلوب .

وكن فيهم سميعاً لحقهم أصم عن باطلهم : نطوقاً بحقهم صموتاً عن باطلهم . واحذر صحبة أكثر الناس ، فانهم لا يقيلون عثرة ولا يغفرون زله

ولا يسترون عورة ، ويحاسبون على النقير والقطمير ويحسدون على القليل والكثير ، يستنصفون ولا ينصفون ويؤاخذون على الخطأ والنسيان ، ويغيرون الاخوان بالنميمة والبهتان ، فصحبة أكثرهم خسران وقطيعتهم رجحان ، ان رضوا فظاهرهم الملق وان سخطوا فباطنهم الحنق ، لا يؤمنون في حنقهم ولا يرجون في ملقهم ، ظاهرهم ثياب وباطنهم ذئاب ، ينطلقون بالظنون ويتغامزون وراءك بالعيون ، ويتربصون بصديقهم من الحسد ريب المنون ، يحصون عليك العثرات في صحبتهم ليجبهوك بها في غضبهم ووحشتهم .

ولا تعول على مودة من لم تختبره حق الخبرة ، بأن تصحبه مدة في دار وموضع واحد ، فتجربه في عزله وولايته وغناه وفقره ، أو تسافر معه أو تعامله في الدينار والدرهم ، أو تقع في شدة فتحتاج اليه ، فان رضيته في هذه الأحوال فاتخذه أباً لك ان كان كبيراً وابناً ان كان صغيراً وأخاً ان كان مثلك .

الباب الثامن

في حقوق الجوار

اعلم ان الجوار يقتضي حقاً وراء ما يقتضيه اخوة الاسلام ، فيستحق الجار من الحقوق ما يستحق كل مسلم وزيادة لما روي عنه (ع) قال : الجيران ثلاثة : جار له حق واحد ، وجار له حقان ، وجار له ثلاثة حقوق . فالجار الذي له ثلاثة حقوق الجار المسلم ذو الرحم ، فله حق الجوار وحق الاسلام وحق الرحم ، وأما الذي له حقان فالجار المسلم ، له حق الجوار وحق الاسلام وأما الذي له حق واحد فالجار المشرك .

وجملة حق الجار أن يبدأه بالسلام ، ولا يطيل معه الكلام ، ولا يكثر عن حاله السؤال ، ويعوده في المرض ، ويعزيه في المصيبة ، ويقوم معه في

العزاء ، ويهنيه في الفرح ، ويظهر الشركة في السرور معه ، ويصفح عن زلاته ، ولا يتطلع من السطح على عوراته ، ولا يضايقه في وضع الجذع على جداره ، ولا في صب الماء من ميزابه ، ولا في مطرح التراب من فنائه ، ولا يضيق طريقه الى الدار ، ولا يتبعه النظر فيما يحمله الى داره ، ويستر ما ينكشف له من عوراته ، وينعشه من صرعته اذا نابته نائبة ، ولا يغفل عن ملاحظة داره عند غيبته ، ولا يتسمع عليه كلامه ، ويغض بصره عن حرمته ، ولا يديم النظر الى خادمته ، ويتلطف لولده في كلمتــه ، ويرشده الى ما يجهله من أمر دينه ودنياه •

هذا كله مضافاً الى حقوق الاسلام المتقدمة ، ففي الحديث النبوي : أتدرون ما حق الجار ؟ ان استعان بك اعنته ، وان استقرضك أقرضته ، وإن افتقد عدت اليه ، وان مرض عدته ، وان مات اتبعت جنازته ، وان أصابه خير هنأته ، وان اصابته مصيبة عزيته ، ولا تستطيل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح الا باذنه ، واذا اشتريت فاكهة فاهده له ، فان لم تفعل فأدخلها سراً ، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده ، ولا تؤذه بقتار قدرك الا ان تغرف له منهــا •

وفي الصادقي : حسن الجوار يزيد في الرزق •

وعنه عليه السلام : ان يعقوب لما ذهب منه بنيامين نادى : يا رب أما ترحمني أذهبت عيني وأذهبت ابني ؟! فأوحى الله تعالى : لو أمتهما لأحييتهما لك حتى أجمع بينك وبينهما ، ولكن تذكر الشاة التي ذبحتها وشويتها وأكلت وفلان الى جانبك صائم لم تنله منها شيئاً •

وفي رواية أخرى : وكان بعد ذلك يعقوب ينادي مناديه كل غداة من منزله على فرسخ : ألا من أراد الغداة فليأت الى يعقوب ، واذا أمسى نادى : ألا من أراد العشاء فليأت الى يعقوب •

وعنه (ع) : حسن الجوار زيادة فى الأعمار وعمارة في الديار •

وعنه (ع) : ليس منا من لم يحسن مجاورة من جاوره •

وعن الباقر (ع) قال : قال رسول الله (ص) : ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع قال : وما من أهل قرية يبيت فيهم جائع ينظر الله اليهم يوم القيامة •

وقال (ع) : من القواصم الفواقر التي تقصم الظهر جار السوء ، ان رأى حسنة أخفاها ، وان رأى سيئة أفشاها •

وفي الحسن عن الباقر (ع) : كل أربعين داراً جيران من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله •

الباب التاسع

فى حقوق الأقارب والرحم

قال الله تعالى : « واتقوا الله الذي تسائلون به والأرحام ان الله كان عليكم رقيباً » • ففي الحسن عن الصادق قل : هي أرحام الناس ، ان الله تعالى أمر بصلتها وعظمها ، ألا ترى انه جعلها منه •

وفي الموثق عنه (ع) ان رجلاً أتى النبي (ص) فقال : يا رسول الله أهل بيتي أبوا الا توثباً علي وقطيعة لي وشتيمة ، فأرفضهم • فقال : اذاً يرفضكم الله جميعاً • قال : كيف أصنع ؟ قال : تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك ، فانك اذا فعلت ذلك كان لك من الله عليهم ظهير •

وعنه (ع) قال : ما نعلم شيئاً يزيد في العمر الا صلة الرحم ، حتى أن الرجل يكون أجله ثلاث سنين فيكون وصولاً للرحم فيزيد الله في عمره ثلاثين سنة فيجعلها ثلاثاً وثلاثين سنة ، ويكون أجله ثلاثاً وثلاثين سنة فيكون قاطعاً لرحمه فينقصه الله ثلاثين سنة ويجعل أجله الى ثلاث سنين •

وعن الباقر (ع) قال : صلة الأرحام تزكي الاعمال وتنمي الأموال وتدفع البلوى وتيسر الحساب وتنسىء في الأجل .

وعنه (ع) قال : قال رسول الله (ص) : أوصي الشاهد من امتي والغائب منهم ومن في أصلاب الرجال وأرحام النساء الى يوم القيامة أن يصل الرحم ، وان كان منه على مسيرة سنة ، فان ذلك من الدين .

وعنه (ع) قال : ان الرحم متعلقة يوم القيامة بالعرش تقول : صل من وصلني واقطع من قطعني .

قال الشهيد الثاني (ره) : الرحم هو القريب المعروف بالنسب وان بعدت لحمته وجاز نكاحه بالنص والاجماع .

الباب العاشر

فى حقوق الوالدين والولد

قال الله تعالى : « وبالوالدين احساناً » وقال : « أما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » .

وفي الصحيح عن أبي ولاد الحناط قال : سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله تعالى « وبالوالدين احساناً » ما هذا الاحسان ؟ فقال الاحسان أن تحسن صحبتهما ، وان لا تكلفهما ان يسألاك مما يحتاجان اليه وإن كانا مستغنيين ، أليس يقول الله تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » . قال : ثم قال عليه السلام : واما قول الله تعالى « اما يبلغن عندك الكبر أحدهما » ـــ الآية . قال : إن أضجراك فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما ان ضرباك . قال : « وقل لهما قولاً كريماً » ان ضرباك فقل لهما «غفر الله لكما»

فذلك منك قول كريم . قال : « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » قال : لا تملأ عينيك من النظر اليهما الا برحمة ورقة ، ولا ترفع صوتك فوق اصواتهما ولا يدك فوق أيديهما ولا تقدم قدامهما .

وعنه (ع) : ان رجلاً أتى النبي (ص) فقال : يا رسول الله أوصني . فقال : لا تشرك بالله شيئاً وان حرقت وعذبت الا وقلبك مطمئن بالايمان ، ووالديك فأطعهما وبرهما حين كانا أو ميتين ، وان امراك أن تخرج من أهلك ومالك فافعل فان ذلك من الايمان .

وعنه عليه السلام انه سئل أي الأعمال أفضل ؟ فقال : الصلاة لوقتها ، وبر الوالدين ، والجهاد فى سبيل الله .

وعنه (ع) قال : اتى رجل رسول الله فقال : يا رسول الله اني راغب في الجهاد نشيط . قال : فقال له النبي : فجاهد في سبيل الله فانك ان تقتل تكن حياً عند الله ترزق ، وان مت فقد وقع أجرك على الله ، وان رجعت رجعت من الذنوب كما ولدت . قال : يا رسول الله ان لي والدين كبيرين يزعمان انهما يأنسان بي ويكرهان خروجي . فقال رسول الله (ص) : فقر مع والديك ، فوالذي نفسي بيده لأنسهما بك يوماً وليلة خير من جهاد سنة .

وعنه (ع) قال : جاء رجل الى النبي (ص) قال : يا رسول الله من أبر ؟ قال : امك . قال : ثم من ؟ قال : امك . قال : ثم من ؟ قال : أباك .

وعن جابر قال : سمعت رجلاً يقول لأبي عبدالله (ع) : ان لي أبوين مخالفين فقال : برهما كما تبر المسلمين ممن يتولانا .

وعن سدير قال : قلت لأبي جعفر (ع) : هل يجزى الولد والده ؟ فقال : ليس له جزاء الا في خصلتين : أن يكون الوالد مملوكاً فيشتريه إبنه فيعتقه ، أو يكون عليه دين فيقضيه عنه .

وعنه (ع) قال : ان العبد ليكون باراً بوالديه في حياتهما ثم يموتان فلا

يقضي عنهما دينهما ولا يستغفر لهما فيكتبه الله عاقاً ، وانه ليكون لهما عاقاً في حياتهما غير بار بهما فاذا ماتا قضى دينهما واستغفر لهما فيكتبه الله تعالى باراً .

وعن الكاظم (ع) قال : سأل رجل رسول الله (ص) ما حق الوالد على ولده ؟ قال : ان لا يسميه باسمه ولا يمشي بين يديه ولا يجلس قبله ولا يستسب له .

وعن الباقر (ع) قال : قال رسول الله (ص) : اياكم وعقوق الوالدين فان ريح الجنة توجد من مسيرة ألف سنة ولا يجدها عاق ، ولا قاطع رحم ، ولا شيخ زان ، ولا جار أزاره خيلاء . انما الكبر رداء الله تعالى .

وعن زيد بن علي عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله (ص) : يلزم الوالدين من العقوق لولدهما ما يلزم الولد لهما من عقوقهما .

وعن الصادق (ع) قال : قال رسول الله (ص) : رحم الله والدين أعانا ولدهما على برهما .

وفي رواية اخرى : قلت : كيف يعينه على بره ؟ قال : يقبل ميسوره ويتجاوز عن معسوره ، ولا يرهقه ولا يخرق به ، وليس بينه وبين أن يصير في حد من حدود الكفر الا أن يدخل في عقوق أو قطيعة رحم .

وعن الصادق عليه السلام قال : قال رسول الله (ص) : حق الولد على والده اذا كان ذكراً أن يستفره امه ويستحسن اسمه ويعلمه كتاب الله ويطهره ويعلمه السباحة ، وان كانت انثى يستفره امها ويستحسن اسمها ويعلمها سورة النور ولا يعلمها سورة يوسف ولا ينزلها الغرف ويعجل سراحها الى بيت زوجها .

الباب الحادي عشر
في حقوق المملوك

روي انه كان من آخر ما أوصى به رسول الله (ص) ان قال : اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم ، أطعموهم مما تأكلون وألبسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون ، فما احببتم فامسكوا وما كرهتم فبيعوا ولا تعذبوا خلق الله فان الله تعالى ملككم اياهم ولو شاء لملكهم اياكم .

وروي انه جاء رجل الى رسول الله (ص) فقال : يا رسول الله كم نعفو عن الخادم ؟ فصمت عنه رسول الله (ص) ثم قال : اعف عنه كل يوم سبعين مرة .

وقال الصادق عليه السلام : اذا اشتريت رأساً فلا ترينه ثمنه في كفة الميزان ، فما من رأس رأى ثمنه فى كفة الميزان فأفلح ، فاذا اشتريت رأساً فغير اسمه وأطعمه شيئاً حلواً اذا ملكته وتصدق بأربعة دراهم .

وعنه (ع) انه سئل عن أخوين مملوكين هل يفرق بينهما وعن المرأة وولدها ؟ قال : لا هو حرام الا أن يريدوا ذلك .

وعنه (ع) عن أبيه قال : قال علي بن أبي طالب : من اتخذ من الاماء أكثر مما ينكح أو ينكح فالاثم عليه ان بغين .

وعنه (ع) انه بعث غلاماً له في حاجة فأبطأ ، فخرج (ع) على أثره فوجده نائماً فجلس عند رأسه يروحه حتى انتبه ، فلما انتبه قال له (ع) : يا فلان والله ما ذلك لك تنام الليل والنهار ، لك الليل ولنا منك النهار .

وعن السجاد (ع) انه سكبت عليه الماء الجارية ليتوضأ للصلاة فنعست فسقط الابريق من يدها فشجه (ع) فرفع رأسه اليها فقالت الجارية : ان الله عز وجل يقول : « والكاظمين الغيظ » قال : كظمت غيظي . قالت : « والعافين

عن الناس » . قال لها : عفى الله عنك . قالت : « والله يحب المحسنين » . قال : اذهبي فأنت حرة لوجه الله تعالى .

وروي انه عليه السلام دعى مملوكه مرتين فلم يجبه وأجابه في المرة الثالثة ، فقال له : يا بني أما سمعت صوتي ؟ قال : بلى . قال : فمالك لم تجبني . قال : أمنتك . قل : الحمد لله الذي جعل مملوكي يأمنني .

الباب الثاني عشر
فى حقوق الزوجين

لكل من الزوجين حق يجب على صاحبه القيـــام به ، بالكتاب والسنة والاجماع ، ولابد من الاتيان به من دون طلب ولا استعانة بالغير ولا اظهار كراهة في تأديته بل باستبشار وانطلاق وجه .

(أما حقه عليها) فان تطيعه ولا تعصيه ، ولا تتصدق من بيته الا باذنه ، ولا تصوم تطوعاً الا باذنه ، ولا تمنعه نفسها وان كانت على ظهر قتب ، ولا تخرج من بيتها الا باذنه ، وان خرجت بغير اذنه لعنتها ملائكة السماء وملائكة الأرض وملائكة الغضب وملائكة الرحمة حتى ترجع الى بيتها ، كما فى الأخبار .

(وأما حقها عليه) فأن يسدّ جوعتها ، ويستر عورتها ، ولا يقبح لها وجهاً . وقال رسول الله (ص) : خياركم خياركم لنسائكم . وفي رواية : خيركم خيركم لنسائه ، وأنا خيركم لنسائي .

وقال (ص) : عيال الرجل اسراؤه ، وأحب العباد الى الله تعالى أحسنهم صنيعاً الى اسرائه .

وقال (ص) : انما مثل المرأة مثل الضلع المعوج ، ان تركته انتفعت به وان أقمته كسرته .

وقال (ص) : من صبر على خلق امرأة سيئة الخلق واحتسب في ذلك الأجر أعطاه الله تعالي ثواب الشاكرين .

الباب الثالث عشر

فى العزلة والمخالطة

قد اختلف الناس في الترجيح بينهما فذهب الى كل فريق ، فذهب قوم الى ترجيح المخالطة لقوله تعالى : « ألّف بين قلوبهم » وقوله تعالى : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا » وقوله (ص) : المؤمن الف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف ، وقوله (ص) : من فارق الجماعة مات ميتة جاهلية ، وللأخبار الدالة على استحباب التزاور والتصافح والمعانقة وعيادة المرضى وتشييع الجنائز وقضاء الحوائج والاهتمام بأمور المسلمين واصلاح ذات البين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتعاون على البر والتقوى وحضور الجمعة والجماعة ، وما دل على الأمر بالتعليم والتعلم ، وما دل على الأمر بالنفع والانتفاع بالكسب والمعاملة ، وما دل على التأديب والتأدب ومداراة الناس وتحمل اذاهم والاستيناس والايناس وحضور الولائم واجابة الدعوة ومدح التواضع والأمر به والتجربة والتجارب ، ونحو ذلك مما لا يتم الا بالمعاشرة .

وذهب قوم الى ترجيح العزلة ، وقد ألف المحقق العارف ابن فهد رسالة في ذلك ، واستشهد بأخبار وآثار كثيرة ، منها :

عن الصادق عليه السلام قال : لولا الموضع الذي وضعني الله فيه لسرني أن أكون على رأس جبل لا أعرف الناس ولا يعرفوني حتى يأتيني الموت .

وعن الباقر (ع) انه قال لعبد الواحد الأنصاري : ما يضرك — أو ما يضر رجلاً — اذا كان على الحق ما قاله له الناس ولو قالوا له مجنون ، وما يضره ولو كان على رأس جبل يعبد الله تعالى حتى يجيئه الموت .

وعن الصادق (ع) قال : ما يضر المؤمن أن يكون منفرداً عن الناس ولو

على قلة جبل — فأعادها ثلاث مرات •

وعن الباقر (ع) قال : ما يضر من عرّفه الله الحق أن يكون على قلة جبل يأكل من نبات الأرض حتى يجيئه الموت •

وعن الصادق (ع) قال : ما يضر من كان على هذا الأمر أن لا يكون ما يستظل به الا الشجر فلا يأكل الا من ورقه •

وعنه عليه السلام : قال لا عليك ان لا يعرفك الناس — ثلاثا •

وعنه (ع) قال : قال الله تبارك وتعالى : ان اعبد أوليائي عبد مؤمن ذو حظ من صلاة أحسن عبادة ربه ، وعبد الله في السريرة ، وكان غائصاً في الناس ، فلم يشر اليه بالأصابع ، وكان رزقه كفافاً ، فصبر عليه فعجلت به المنية فقلّ تراثه وقلّت بواكيه •

وعن الباقر (ع) قال : قال رسول الله (ص) : قال الله تبارك وتعالى : ان أعبد أوليائي عندي رجل خفيف ذو حظ من صلاة أحسن عبادة ربه في الغيب وكان غامضاً في الناس جعل رزقه كفافاً فصبر عليه حتى مات فقلّ تراثه وقلّت بواكيه •

وقال الصادق (ع) : ان مايحتج الله تبارك وتعالى به على عبده أن يقول : لم أخمل ذكرك •

وقال (ع) لحفص بن غياث : يا حفص كن ذنباً ولا تكن رأساً •

وعنه (ع) انه قال له معروف الكرخي : أوصني يابن رسول الله • قال : أقلل معارفك • قل زدني • قال : انكــر من عرفت منهم • قال : زدني • قال : حسبك •

ولأن فيها فوائد كثيرة : منها التفرغ للعبادة والفكر والاستيناس بمناجاة الله تعالى عن مناجاة الخلق •

ولأن فيها التخلص من المهلكات والأخلاق الرذيلة كالغيبة وسماعها والرياء

والتكبر والحقد والحسد والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتخلص من الفتن والخصومات ، وصيانة الدين والنفس عن الخوض فيها والتعرض لأخطارها ، والخلاص من شر الناس ، ومن انقطاع طمع الناس عنه وانقطاع طمعه عنهم ، والخلاص من مشاهدة الثقلاء والحمقاء وأخلاقهم الرديئة وغير ذلك .

وتحقيق المقام على وجه انيق وطرز رشيق تلتئم عليه الأخبار الواردة في هذا المضمار بوجوه :

(الأول) ان يقال : ان العزلة الممدوحة انما هي العزلة بالقلب دون البدن كما يرشد الى ذلك ما رواه عبدالله بن سنان عن الصادق عليه السلام قال : طوبى لعبد عرف الناس ، فصاحبهم ببدنه ولم يصاحبهم بقلبه فعرفوه في الظاهر وعرفهم في الباطن .

(الثاني) ان يراد بالعزلة العزلة عن أهل الدنيا الذين يشغلون الانسان عن ذكر الله ، لا أهل الآخرة من العلماء والعقلاء والعرفاء الذين يكتسب من أخلاقهم ويستفيد من علومهم وأحوالهم ويتوصل الى الأجر والثواب بمخالطتهم ويشهد لذلك قول الكاظم عليه السلام : يا هشام الصبر على الوحدة علامة قوة العقل ، فمن عقل عن الله اعتزل الدنيا والراغبين فيها ورغب فيما عند الله ، ومن رغب فيما عند الله كان أنيسه في الوحشة وصاحبه في الوحدة وغناه في العيلة ومعزه من غير عشيرة .

(الثالث) أن يقال : ان العزلة لابد فيها من العلم والزهد ، كما تنبيء عنه عينها وزاؤها ، فالعزلة بدون عين العلم ذلة ، وبدون زاء الزهد علة ، وبدون لام الجهل عزة ، فالجاهل لا يليق له العزلة ، ففي الكافي عن الصادق عليه السلام انه قيل له : رجل عرف هذا الأمر — أي الامامة — لزم بيته ولم يتعرف الى أحد من اخوانه . قال : فقال : كيف يتفقه هذا في دينه ؟

ثم هذا العالم ان كان ذا نفس قدسية وقوة ملكوتية خشن في ذات الله قادر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وارشاد الضال ومعاونة الضعيف وادراك اللهيف ونصرة المظلوم ونحو ذلك ، ولا تأخذه في الله لومة لائم ، فالأولى بحاله المخالطة والا فالعزلة .

(الرابع) أن يقال : ان الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة والانبساط اليهم مجلبة لقرناء السوء ، فليكن الانسان بين المنقبض والمنبسط ، وكذلك يجب الاعتدال في المخالطة والعزلة ، ويختلف ذلك بحسب الأحوال وبملاحظة الفوائد والآفات ، فليلاحظ كل ما يصلحه وما يليق بحاله .

الركن الثالث

في المهلكات من الأخلاق الردية التي هي السموم القاتلة المهلكة للدين ، وفيه أبواب :

الباب الأول

فى شهوة البطن

اعلم ان البطن على التحقيق ينبوع الشهوات ومنبت الأدواء والآفات ، اذ يتبعها شهوة الفرج وشدة الشبق الى المنكوحات ، ثم يتبع شهوة المطعم والمنكح شدة الرغبة في المال والجاه اللذين هما الوسيلة الى التوسع في المطعومات والمنكوحات ، ويتبع استكثار المال والجاه أنواع الرعونات وضروب المنافسات والمحاسدات ، ويتولد من ذلك آفة الرياء وغائلة التفاخر والتكاثر والكبرياء ، ثم يتداعى ذلك الى الحسد والحقد والعداوة والبغضاء ، ثم يفضي ذلك بصاحبه الى اقتحام البغي والمنكر والفحشاء ، وكل ذلك ثمرة اهمال المعدة وما يتولد من بطر الشبع والامتلاء .

ولو ذلل العبد نفسه بالجوع وضيق مجاري الشيطان لأذعنت نفسه

لطاعة الله ولم تسلك سبيل البطر والطغيان ، ولم ينجر به ذلك الى الانهماك في الدنيا وايثار العاجلة على العقبى ، ولم يتكالب هذا التكالب على الدنيا .

قال رسول الله (ص) : لا يدخل ملكوت السماوات قلب من ملأ بطنه .

وقال (ص) : الفكر نصف العبادة ، وقلة الطعام هي العبادة .

وقال (ص) : لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب ، فان القلب كالزرع يموت اذا كثر عليه الماء .

وقال (ص) : ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه ، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فان كان هو فاعلاً لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه .

وعنه (ص) : ان الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم ، فضيقوا مجاريه بالجوع والعطش .

وقال الصادق (ع) : ان البطن ليطغى من أكلة ، وان أقرب ما يكون العبد الى الله تعالى اذا خف بطنه ، وابغض ما يكون العبد الى الله تعالى اذا امتلأ بطنه .

وعنه (ع) قال : ليس لابن آدم بد من أكلة يقيم بها صلبه ، فاذا أكل أحدكم طعاماً فليجعل ثلث بطنه للطعام وثلث بطنه للشراب وثلثه للنفس ، ولا تسمنوا سمن الخنازير للذبح .

وقال الباقر عليه السلام : ما من شيء أبغض الى الله تعالى من بطن مملوء .

وقال لقمان لابنه : يا بني اذا امتلأت المعدة نامت الفكرة ، وخرست الحكمة ، وقعدت الأعضاء عن العبادة .

وفوائد الجوع كثيرة :

(الأولى) صفاء القلب واتقاد القريحة ونفاذ البصيرة ، فان الشبع يورث البلادة ويعمي القلب ويكثر البخار في الدماغ كشبه السكر .

(الثانية) رقة القلب وصفائه الذي به يتهيأ لادراك لذة المناجاة والتأثر

بالذكر •

(الثالثة) الانكسار والذل وزوال البطر والفرح والأشر الذي هو مبدأ الطغيان والغفلة عن الله •

(الرابعة) أن لا ينسى بلاء الله وعذابه ، ولا ينسى أهل البلاء ، فان الشبعان ينسى الجائعين وينسى الجوع ، والفطن لا يشاهد بلاءاً الا ويتذكر بلاء الآخرة ، فيتذكر بالجوع جوع أهل النار وأن ليس لهم طعام الا من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع ، وبالعطش عطشهم وعطش أهل المحشر فى عرصات القيامة •

(الخامسة) كسر شهوات المعاصي كلها والاستيلاء على النفس الامارة بالسوء ، فان منشأ المعاصي كلها الشهوات والقوى ، ومادة الشهوات والقوى الأطعمة والأشربة •

(السادسة) دفع النوم ودوام السهر ، فان من شبع شرب كثيراً ، ومن كثر شربه كثر نومه ، وفي كثرة النوم ضياع العمر وفوت التهجد وبلادة الطبع وقساوة القلب •

(السابعة) تيسير المواظبة على العبادة ، لأن كثرة الأكل تحتاج الى زمان يشتغل فيه بالأكل وتحصيله وتحصيل الآلـة وأسبابه ، والاشتغال بادخاله واخراجه •

(الثامنة) صحة البدن ودفع الأمراض ، فان سببها كثرة الأكل وحصول فضول الأخلاط في المعدة والعروق ، ثم المرض يمنع العبادات ويشوش القلب ويمنع من الذكر والفكر ويحوج الى الفصد والحجامة والدواء والطبيب ، والى مؤن وتبعات لا يخلو الانسان فيها بعد التعب من أنواع المعاصي •

قال عليه السلام : المعدة بيت الداء ، والحمية رأس كل دواء ، واعط كل بدن ما عودته •

(التاسعة) خفة المؤنة .

(العاشرة) التمكن من الايثار والتصدق بالفاضل عن الضروري .

وفي مصباح الشريعة : قال الصادق (ع) : قلة الأكل محمودة على كل حال وعند كل قوم ، لأن فيه المصلحة للظاهر والباطن ، والمحمود من المأكول أربعة : ضرورة ، وعدة ، وفتوح ، وقوت . فالضرورة للأصفياء ، والعدة لقوم الأتقياء ، والفتوح للمتوكلين ، والقوت للمؤمنين .

وليس شيء أضر لقلب المؤمن من كثرة الأكل ، وهي مورثة شيئين : قسوة القلب ، وهيجان الشهوة . والجوع أدام للمؤمن ، وغذاء للروح ، وطعام للقلب ، وصحة للبدن ـ الحديث .

واعلم انه حيث كان طبع الانسان طالباً لغاية الشبع جاء الشرع في المبالغة في الجوع ، حتى يكون الطبع باعثاً والشرع مانعاً، فيتقاومان ويحصل الاعتدال والوسط المطلوب في جميع الأخلاق والأحوال ، فالأفضل حينئذ بالاضافة الى الطبع المعتدل أن يأكل بحيث لا يحس بثقل المعدة ولا بألم الجوع ، فإن المقصود من الأكل بقاء الحياة وقوة العبادة ، وثقل الطعام يمنع العبادة وألم الجوع أيضاً يشغل القلب ويمنع منها ، فالمقصود ان يأكل أكلاً معتدلاً بحيث لا يبقى للأكل فيه أثر ، ليكون متشبهاً بالملائكة ، فانهم مقدسون عن ثقل الطعام وألم الجوع . واليه الاشارة بقوله تعالى : « كلوا واشربوا ولا تسرفوا » .

والقوام فيه ان لا يأكل طعاماً ولا يشرب شراباً حتى يشتهيه ، ويكف نفسه عنهما وهي تشتهيه .

الباب الثاني
فى شهوة الفرج

اعلم ان هـــذه الشهوة من أعظم المهلكات لابن آدم ان لم تضبط وتقهر وترد الى حد الاعتدال ، ولها طرفان : افراط بأن تقهر العقل فتصرف همة الرجل الى التمتع بالنساء والجواري فتحرمه عن سلوك طريق الآخرة وقد تقهر الدين وتجر الى اقتحام الفواحش ، وقد تنتهي به الى الفسق البهيمي الذي ينشأ عن استيلاء الشهوة فيسخر الوهم العقل لخدمة الشهوة . وقد خلق العقل ليكون مطاعاً لا ليكون خادماً للشهوة محتالاً لأجلها ، وهو مرض قلب فارغ لا همة له ، ولذا قيل : ان الشيطان قال للمرأة : أنت نصف جندي وأنت سهمي الذي أرمي به فلا أخطي ، وأنت موضع سري ، وأنت رسولي في حاجتي . فنصف جنده الشهوة ونصفه الغضب .

وأعظم الشهوة شهوة النساء ، ويجب الاحتراز منها في مبدأ الامر بترك معاداة النظر والفكر ، والا فاذا استحكم عسر دفعه ، ولهذا قيل : اذا قام ذكر الرجل ذهب ثلثا عقله .

وقال الله تعالى : «قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم» .

وقال النبي (ص) : النظرة سهم مسموم من سهام ابليس ، فمن تركها خوفاً من الله أعطاه الله ايماناً يجد حلاوته في قلبه .

وقال (ص) : اتقوا فتنة الدنيا وفتنة النساء ، فان أول فتنة بني اسرائيل كانت من النساء .

وتفريط هذه الشهوة اما بالعفة الخارجة من الاعتدال أو بالضعف عن امتناع المنكوحة ،وهو أيضاً مذموم ، والمحمود أن تكون هذه الشهوة معتدلة

منقادة للعقل والشرع فى الانبساط والانقباض ، ومهما افرطت فكسرها يكون بالجوع والصوم وبالتزويج . قال النبي (ص) : معاشر الشباب عليكم بالباءة ، فمن لم يستطع فعليه بالصوم ، فان الصوم له وجاء .

والحكمة في ايجاد هذه الشهوة مع كثرة غوائلها وآفاتها بقاء النسل ودوام الوجود ، وان يقيس بلذتها لذات الآخرة ، فان لذة الوقاع لو دامت لكانت أقوى لذات الأجساد ، كما أن ألم النار أعظم آلام الجسد ، والترهيب والترغيب يسوقان الخلق الى سعاداتهم وثوابهم .

الباب الثالث

فى اللسان

وهو من نعم الله العظيمة ولطائف صنعه الغريبة ومننه الجسيمة ، فانه صغير جرمه عظيم طاعته وجُرمه ، ولا يعلم الكفر والايمان اللذان هما غاية الطاعة والطغيان الا بشهادة اللسان ، وما من موجود أو معدوم خالق أو مخلوق متخيل أو معلوم مظنون أو موهوم الا واللسان يتناوله ويتعرض له باثبات أو نفي بحق أو باطل .

وهذه الخاصية لا توجد في غيره من الأعضاء ، فان العين لا تصل الى غير الألوان والصور ، والأذن لا تصل الى غير الأصوات ، واليد لا تصل الى غير الأجسام ، وكذا سائر الأعضاء .

واللسان رحب الميدان ، له في الخير والشر مجال واسع ، فمن أهمله فرخى العنان سلك به طرق الهلكة والخسران ، اذ لا تعب في تحريكه ولا مؤنة في اطلاقه ، فينبغي ضبطه تحت حكم العقل والشرع .

وحيث كان الطبع مائلاً الى اطلاقه وارخاء عنانه جاء الشرع بالبحث على امساكه حتى يحصل التعادل ، كما تقدم في الجوع .

وتحقيق الكلام فيه يتم في فصول :

الفصل الأول

في خطر اطلاقه وفضيلة صمته

قال النبي صلى الله عليه وآله : من صمت نجا .

وقال (ص) : الصمت حكمة ، وقليل فاعله .

وقال (ص) : من يتكفل لي بما بين لحييه ورجليه أتكفل له بالجنة .

وقال (ص) : من وقى شر قبقبه وذبذبه ولقلقه فقد وقي ، والقبقب : البطن . والذبذب : الفرج . واللقلق : اللسان .

وقال (ص) هل يكبّ الناس على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم .

وقال (ص) : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت .

وقال (ص) : ان لسان المؤمن وراء قلبه ، فاذا أراد أن يتكلم بشيء تدبره بقلبه ثم أمضاه بلسانه ، وان لسان المنافق أمام قلبه فاذا همّ بشيء أمضاه بلسانه ولم يتدبره بقلبه .

وقال (ص) : من كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه ، ومن كثرت ذنوبه كانت النار أولى به .

وقال (ص) : امسك لسانك فانها صدقة تتصدق بها على نفسك . ثم قال (ص) : ولا يعرف عبد حقيقة الايمان حتى يخزن لسانه .

ومر أمير المؤمنين (ع) برجل يتكلم بفضول الكلام ، فوقف عليه فقال : يا هذا انك تملي على حافظيك كتاباً الى ربك فتكلم بما يعنيك ودع ما لا يعنيك .

وعن السجاد (ع) قال : ان لسان ابن آدم يشرف على جميع جوارحه كل صباح فيقول : كيف اصبحتم ؟ فيقولون : بخير ان تركتنا ، ويقولون : الله الله فينا ، ويناشدونه ويقولون : انما نثاب ونعاقب بك .

وقال الباقر عليه السلام : ان شيعتنا الخرس ·

وقال الصادق (ع) : النوم راحة للجسد ، والنطق راحة للروح ، والسكوت راحة للعقل ·

وقال : في حكمة آل داود : على العاقل أن يكون عارفاً بزمانه ، مقبلاً على شأنه ، حافظاً للسانه ·

وقال (ع) : قال لقمان لابنه : يا بني ان كنت زعمت ان الكلام من فضة فان السكوت من ذهب ·

وعن أمير المؤمنين (ع) : المرء مخبوء تحت لسانه ، فزن كلامك واعرضه على العقل والمعرفة ، فان كان لله وفي الله فتكلم وان كان غير ذلك فالسكوت خير منه ·

وسئل السجاد (ع) عن الكلام والسكوت أيهما أفضل ؟ فقال (ع) : لكل واحد منهما آفات ، فاذا سلما من الآفات فالكلام أفضل من السكوت · قيل : وكيف ذاك يابن رسول الله ؟ قال : لأن الله عز وجل ما بعث الأنبياء والأوصياء بالسكوت ، انما بعثهم بالكلام ، ولا استحقت الجنة بالسكوت ، ولا استوجبت ولاية الله بالسكوت ، ولا توقيت النار بالسكوت ، ولا تجنب سخط الله بالسكوت ، انما ذلك كله بالكلام ، ما كنت لأعدل القمر بالشمس انك تصف فضل السكوت بالكلام ولست تصف فضل الكلام بالسكوت ·

الفصل الثاني
فى آفات اللسان ، وهي أمور :

(الأول) ــ وهو أهونها وأحسنها ــ التكلم فى المباح ، وهو تضييع للعمر الشريف ويحاسب عليه ويكون قد استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير ·

روي ان لقمان دخل على داود عليه السلام وهو يسرد الدرع ولم يكن رآها قبل ذلك ، فجعل يتعجب مما يرى ، فأراد أن يسأله عن ذلك فمنعته الحكمة فأمسك نفسه ولم يسأله ، فلما فرغ قام داود ولبسها فقال : نعم الدرع للحرب • فقال لقمان : الصمت حكم وقليل فاعله — أي حصل العلم به من غير سؤال • وقيل : كان يتردد اليــه سنة وهو يريد أن يعلم ذلك ولم يسأل •

وعلاج هذا أن يعلم أن الموت بين يديه ، وانه مسؤول عن كل كلمة ، وان أنفاسه رأس ماله ، وان لسانه شبكة يقدر على أن يقتنص بها الحور العين، فاهماله وتضييعه خسران • والعلاج من حيث العمل أن يلزم نفسه السكوت عن بعض ما يعنيه ليتعود اللسان ترك ما لا يعنيه •

(الثاني) — الخوض في الباطل ، وهو الكلام في المعاصي ، كحكايات أحوال النساء ومجالس الخمر ومقامات الفساق وتنعم الأغنياء وتجبر الملوك وأحوالهم •

قال النبي (ص) : ان الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من الثريا •

وقال النبي (ص) : اعظم الناس خطايا يوم القيامة هو أكثرهم خوضاً في الباطل •

واليه الاشارة بقوله تعالى : « وكنا نخوض مع الخائضين • ويدخل في هذا الخوض حكايات البدع والمذاهب الفاسدة ، فان الحديث في ذلك كله خوض فى الباطل • »

(الثالث) المراء والمجادلة • قال (ص) : لا تمار أخاك ولا تمازحه ولا تعده موعداً فتخلفه •

وقال (ص) : من ترك المراء وهو محق بنى له بيت في أعلا الجنة ، ومن

ترك المراء وهو مبطل بنى له بيت في مربض الجنة .

وقال (ص) : لا يستكمل عبد حقيقة الايمان حتى يدع المراء والجدال وان كان محقاً .

وقال لقمان لابنه : يابني لا تجادل العلماء فيمقتوك .

واعلم ان المراء عبارة عن الطعن في كلام الغير لاظهار خلل فيه من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير واظهار مزيد الكياسة . والجدال عبارة عن مراء يتعلق باظهار المذاهب وتقريرها .

(الرابع) ــ الخصومة ، وهي لجاج في الكلام ليستوفى به مال أو حق مقصود ، وذلك تارة يكون ابتداءاً وتارة يكون اعتراضاً ، والمراء لا يكون إلا اعتراضاً على كلام سبق .

قال رسول الله (ص) : ان أبغض الرجال الى الله الألد الخصم .

وقال صلى الله عليه وآله : من جادل في خصومة بغير علم لم يزل في سخط الله حتى ينزع .

(الخامس) ــ الفحش والسب وبذاءة اللسان ، مصدره الخبث واللؤم .

قال رسول الله (ص) : اياكم والفحش ، فان الله لا يحب الفحش ولا التفحش .

وقال (ص) : ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفحاش ولا البذي .

وقال (ص) : الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها .

وقال (ص) : يا عائشة لو كان الفحش رجلاً لكان رجل سوء .

وقال (ص) : ان الله لا يحب الفاحش المتفحش الصياح في الأسواق .

وقال (ص) : سباب المسلم فسوق وقتاله كفر .

(السادس) ــ اللعن لانسان أو حيوان أو جماد . قال النبي (ص) : المؤمن ليس بلعان .

وقال (ص) : لا تلاعنوا بلعنة الله ولا بغضبه ، ومن كان يستحق اللعن لابداعه في الدين جاز لعنه بل وجب • قال تعالى : « اولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » • وقال تعالى : « اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون » •

وقال (ص) : لعن الله الكاذب ولو كان مازحاً •

وكان أمير المؤمنين (ع) يقنت في بعض نوافله بلعن صنمي قريش •

(السابع) ــ الغناء والشعر • قال الله تعالى : « فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور » • قال الصادق عليه السلام : هو الغناء •

وقال (ع) في قوله تعالى : « لا يشهدون الزور » قال : الغناء •

وقال عليه السلام : الغناء عش النفاق •

وقال الباقر عليه السلام : الغناء مما وعد الله عز وجل عليه النار ، وتلا هذه الآية : « ومن الناس من يشري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله » •

واما الشعر فيطلق على معنيين :

(أحدهما) الكلام الموزون المقفى ، سواء كان حقاً أو باطلاً ، وعلى حقه يحمل حديث : « ان من الشعر لحكمة » وما ورد في مدح الشعر ، فإن المراد به ما كان حقاً من الموزون المقفى الذي ليس فيه تمويه ولا كذب •

(والثاني) الكلام المشتمل على التخيلات الكاذبة والتمويهات المزخرفة التي لا أصل ولا حقيقة لها ، سواء كان لها وزن وقافية أم لا ، وعليه يحمل ما ورد في ذمه ، وهو المراد من نسبة قريش القرآن الى الشعر ، وقولهم للنبي صلى الله عليه وآله انه شاعر • وقال تعالى : « وما علمناه الشعر وما ينبغي له ان هو الا ذكر وقرآن مبين » ، فان القرآن ليس بموزون •

وقال الباقر عليه السلام في قوله تعالى : « والشعراء يتبعهم الغاوون » هل رأيت شاعراً يتبعه أحد ، انما هم قوم تفقهوا لغير الله فضلوا وأضلوا •

(الثامن) ــ المزاح ، وأصله مذموم منهي عنه الا القدر اليسير في غير معصية الله .

قال (ص) : لا تمار أخاك ولا تمازحه . والمراد النهي عن الافراط منه ، لقوله (ص) « اني لأمزح ولا أقول الا حقاً » .

وروي انه (ص) أتت عجوز اليه فقال لها : لا تدخل الجنة عجوز . فبكت فقال (ص) : انك لست يومئذ بعجوز ، قال الله تعالى : « انا أنشأناهن انشاءاً . فجعلناهن أبكاراً . عرباً أترابا » .

وروي انه جاءت اليه (ص) امرأة يقال لها ام أيمن فقالت : ان زوجي يدعوك . فقال : ومن هذا هو الذي بعينه بياض ؟ فقالت : لا والله ما بعينه بياض . فقال (ص) : بلى ان بعينه بياضاً . قالت : لا والله . فقال : مامن أحد الا بعينه بياض .

وجاءته امرأة اخرى فقالت : يا رسول الله احملني على بعير . فقال (ص): نحملك على ابن بعير . فقالت : ما أصنع به لا يحملني . فقال (ص) : هل من بعير الا وهو ابن بعير .

وروي انه (ص) انه كان يأكل رطباً مع ابن عمه وأخيه أمير المؤمنين ، وكان يأكل ويضع النوى أمامه ، فلما فرغا كان النوى كله مجتمعاً عند علي عليه السلام ، فقال له : يا علي انك لأكول . فقال له : يا رسول الله الأكول من يأكل الرطب ونواه .

(التاسع) ــ السخرية والاستهزاء ، وهما حرام مهما كانا مؤذيين . قال تعالى : « لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم » .

ومعنى السخرية الاستحقار والاستهانة والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه ، وقد يكون ذلك بالمحاكاة بالقول والفعل ، وقد يكون بالاشارة والايماء .

وروي عنه (ص) انه قال : ان المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال : هلم هلم ، فيجيء بكربه وغمه ، فاذا أتى اغلق دونه ، ثم يفتح له باب آخر فيقال : هلم هلم فما يأتيه •

(العاشر) — افشاء السر ، وهو منهي عنه لما فيه من الايذاء والتهاون • قال (ص) : اذا حدث الرجل الحديث ثم التفت فهي أمانة • وقال (ص) : الحديث بينكم أمانة •

(الحادي عشر) — الوعد الكاذب • قال (ص) : العدة دين • وقال صلى الله عليه وآله : ثلاث من كن فيه فهو منافق وان صام وصلى وزعم انه مسلم : اذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا ائتمن خان •

(الثاني عشر) الكذب في القول واليمين ، وهو من قبائح الذنوب وفواحش العيوب • قال (ص) : كبرت خيانة ان تحدث أخاك حديثاً هو لك مصدق وأنت له فيه كاذب •

وقال (ص) : الكذب ينقص الرزق •

وقال (ص) : على كل خصلة يطبع أو يطوى عليها المؤمن الا الخيانة والكذب •

وقال أمير المؤمنين (ع) : أعظم الخطايا عند الله اللسان الكذوب •

وقال (ص) : ثلاث نفر لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر اليهم ولا يزكيهم : المنان بعطية ، والمنفق سلعته بالحلف الفاجر ، والمسبل أزاره •

وقال (ص) : ما حلف حالف بالله فأدخل فيها مثل جناح بعوضة الا كانت نكتة في قلبه الى يوم القيامة •

وقال (ص) : مالي أراكم تتهافتون في الكذب تهافت الفراش في النار ، كل الكذب مكتوب كذباً لا محالة الا أن يكذب الرجل في الحرب فإن الحرب خدعة ، أو يكون بين رجلين شحناء فيصلح بينهما ، أو يحدث امرأته يرضيها •

(الثالث عشر) ـ الغيبة ، وتحقيق الكلام فيها يتم بأمور :

(الأول) في ذمها ، قال تعالى : « ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه » .

وقال (ص) : من مشى في غيبة أخيه وكشف عورته كانت أول خطوة خطاها وضعها في جهنم وكشف الله عورته على رؤوس الخلائق ، ومن اغتاب مسلماً بطل صومه ونقض وضوؤه ، فإن مات وهو كذلك مات وهو مستحل لما حرم الله .

وعن الصادق عليه السلام قال : قال رسول الله الغيبة أسرع في دين الرجل المسلم من الآكلة في جوفه .

وقال (ع) : من قال في مؤمن ما رأته عيناه وسمعته اذناه فهو من الذين قال الله عز وجل : « ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم » .

وقال (ع) : من روى على مؤمن رواية يريد بها شينه وهدم مروته ليسقط عن أعين الناس أخرجه الله من ولايته الى ولاية الشيطان فلا يقبله الشيطان .

وقال عليه السلام : الغيبة حرام على كل مسلم ، وانها لتأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب .

(الثاني) في بيان معناها . قال النبي (ص) : هل تدرون ما الغيبة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : ذكرك أخاك بما يكره . قيل : أرأيت ان كان في أخي ما أقول ؟ قال : ان كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، فإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته .

وعن الصادق عليه السلام : هو ان تقول لأخيك في دينه ما لم يفعل ، وتثبّت عليه أمراً قد ستره الله عليه .

وفي رواية اخرى : الغيبة ان تقول في أخيك ما ستر الله عليه ، وأما الأمر الظاهر فيه — مثل الحدة والعجلة — فلا •

واعلم أن الغيبة غير مقصورة على اللسان ، بل تكون بالقول والكتابة والاشارة والايماء والغمز والحركة وكل ما يفهم المقصود • وقد قيل : ان القلم أحد اللسانين •

وروي عن عائشة قالت : دخلت علينا امرأة فلما ولت أومأت بيدي (أي قصيرة) فقال (ص) : قد اغتبتيها •

ومن أقسامها ان يذكر عنده انسان فيقول : الحمد لله الذي لم يبتلنا بطلب الدنيا وحب الجاه ونحو ذلك ، فهو جمع بين رياء وغيبة •

(الثالث) في الأسباب الباعثة على الغيبة ، وهي امور : منها تشفي الغيظ بذكر مساوىء عدوه ، ومنها موافقة الأقران ومساعدتهم في التفكه في أعراض الناس حتى لا يستثقلوه ولا ينفروا عنه ، ومنها العدد كقوله ان أكلت حراماً ففلان وفلان يأكله وان فعلت كذا ففلان فعل ونحوه ، ومنها الاستشعار من انسان انه سيقصده بطول لسانه فيه فيقدح في حاله حتى يسقط أثر شهادته ، ومنها أن ينسب الى شيء فيريد أن يبرأ منه بذكر الذي فعله ، ومنها ارادة أن يرفع نفسه بنقص غيره بأن يقول فلان جاهل وفهمه ركيك وغرضه انه أفضل منه ، ومنها الحسد له بأن يريد زوال نعمة اكرام الناس له والثناء عليه بذكر عيوبه ، ومنها اللعب والهزل والمطايبة فيذكر غيره حتى يضحك الناس ، ومنهـا السخرية والاستهزاء استحقاراً له فإن ذلك قد يجري في الحضور فيجري أيضاً في الغيبة ، ومنها التعجب من المنكر كأن يقول ما أعجب ما رأيت من فلان كذا وكذا ، ومنها الرحمة وهو ان يغتم بسبب ما ابتلي به ، ومنها الغضب لله على منكر فعله فيذكره في غيابه ، وكان ينبغي له في الثلاثة الاخيرة لو كان مخلصاً فيها ان لايذكر الاسم •

(الرابع) في العلاج ، وهو قسمان اجمالي وتفصيلي :

أما الاجمالي فهو أن يعلم انه معرض لسخط الله ، وانه أحبط حسنات نفسه واستحق دخول النار وكفى بذلك رادعاً عنها ، وحكي ان رجلا قال لآخر : بلغني انك تغتابني . فقال : ما بلغ من قدرك عندي ان احكمك في حسناتي .

وأما التفصيلي فلينظر الى السبب ويعالجه بضده ، فان كان هو الغضب فيعالجه بما يأتي فيه ويقول ان أمضيت غضبي فيه فلعل الله يمضي غضبه عليّ وقد قال (ص) : ان لجهنم باباً لايدخله الا من شفى غيظه بمعصية الله .

وان كان هو الموافقة فليعلم انه تعرض لسخط الخالق في رضاء المخلوق.

وأما تنزيه النفس فان يعلم ان التعرض لمقت الخالق أشد من التعرض لمقت الخلق وسخط الله عليه متيقن ورضاء الناس مشكوك فيه .

وأما العدد فهو جهل ، لانه تعذر بالاقتداء بمن لا يجوز الاقتداء به ، وكان كمن يلقي نفسه من شاهق اقتداءاً بغيره .

وأما قصد المباهاة وتزكية النفس فليعلم انه أبطل فضله ضد الله وهو من الناس في خطر ، فربما نال اعتقادهم فيه بخبث فعله فيكون قد خسر الدنيا والآخرة .

وأما الحسد فهو جمع بين عذابين دنيوي واخروي ، لان الحاسد في عذاب كما يأتي .

وأما الاستهزاء فمقصوده اخزاء غيره عند الناس ، وهو قد أخزى نفسه عند الله والملائكة والانبياء والاوصياء ، فهو بالاستهزاء على نفسه .

وأما الترحم فهو وان كان حسناً ولكن قد حسدك ابليس بأن نقل من حسناتك اليه ما هو أكثر من رحمتك .

وأما التعجب المخرج للغيبة فينبغي ان يتعجب بنفسه ، حيث اهلك دينه

بدين غيره او بدنياه وهو مع ذلك لا يأمن عقوبة الدنيا .

(الخامس) في بيان الاعذار المسوغة للغيبة ، وهي أمور :

« الأول » ـ التظلم عند من يرجو زوال ظلمه ، قال تعالى : « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول الا من ظلم » . وقال (ص) : لصاحب الحق مقال. وقال (ص) : مطل الغنى ظلم . وقال ليُّ الواجد ظلم يحل عرضه وعقوبته .

« الثاني » ـ الاستفتاء ، كأن يقول للمفتى : قد ظلمني ابي او أخي فكيف طريقي فى الخلاص والاسلم التعريض وعدم ذكر الاسم .

« الثالث » ـ تحذير المؤمن من الوقوع في الخطر ونصلح المستشير ، فاذا رأى متفقهاً يتلبس بما ليس من اهـله فلك ان تنبه الناس على نقصه وقصوره .وكذلك اذا استشير فيشراء مملوك او تزويجامرأة وكان مستحضراً للعيوب فليذكرها ، لما ورد من جواز الوقيعة في أصحاب البـدع ، وان المستشار مؤتمن .

(الرابع) الجرح للشاهد والراوي ، صيانة لحقوق المسلمين وحفظاً للأحكام الشرعية .

(الخامس) أن يكون المقول فيه ذلك متظاهراً به كالفاسق المتظاهر بفسقه . قال الصادق عليه السلام : اذا جاهر الفاسق بفسقه فلا حرمة له ولا غيبة له . وعن الباقر (ع) قال : ثلاثة ليس لهم حرمة : صاحب هوى مبتدع ، والامام الجائر ، والفاسق المعلن بالفسق . وعن النبي (ص) : من ألقى جلباب الحياء عن وجهه فلا غيبة له . وعنه (ص) : ليس لفاسق غيبة . وظاهر هذه الأخبار جواز غيبته وإن استنكف عن ذلك .

(السادس) أن يكون الانسان معروفاً باسم أو لقب يعرب عن غيبته ، كالأعرج والأعمش والأشتر ونحوها اذا لم يمكن التعريف بدون ذلك . قال الصادق عليه السلام : جاءت زينب العطارة الحولاء الى نساء النبي صلى الله

عليه وآله ـ الحديث .

(السابع) اذا علم اثنان أو جماعة معصية من آخر فذكرها بعضهم لبعض جاز ذلك ، لأنها لا تؤثر عند السامع ، وفيه اشكال .

(السادس) في كفارة الغيبة . يجب على المغتاب أن يندم ويتوب ويأسف على ما فعله ليخرج عن حق الله . وهل يكفي الاستغفار أم لابد من الاستحلال؟ وجهان بل قولان لتعارض الأخبار ظاهراً :

فعن الصادق قال : سئل النبي (ص) : ما كفارة الاغتياب ؟ قال : تستغفر الله لمن اغتبته كلما ذكرته .

وفي العلل عنه (ص) قال : الغيبة أشد من الزنا . فقيل : يا رسول الله ولمَ ذلك ؟ قال : اما صاحب الزنا يتوب فيتوب الله عليه ، وأما صاحب الغيبة يتوب فلا يتوب الله عليه حتى يكون صاحبه الذي يحله .

وقد روي عن الصادق عليه السلام ما يصلح للجمع بين الأقوال والأخبار . قال (ع) : ان اغتبت فبلغ المغتاب فاستحل منه ، وان لم يلحقه فاستغفر الله : وذلك لأن في الاستحلال مع عدم البلوغ اليه اثارة للغيبة وجلباً للضغائن ، وفي حكم من لم يبلغه من لم يقدر على الوصول اليه بموت أو غيبة .

الرابع عشر

النميمة

قال تعالى : « هماز مشاء بنميم . مناع للخير معتدٍ أثيم . عتلٌ بعد ذلك زنيم » وقال تعالى : « ويل لكل همزة لمزة » . قيل الهمزة : النمام ، واللمزة : المغتاب .

وقال النبي (ص) : لا يدخل الجنة نمام .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام : شراركم المشاؤون بالنميمة ، المفرقون بين الأحبة ، المبتغون للبراء المعايب •

وقال الباقر (ع) : الجنة محرمة على المغتابين والمشائين بالنميمة •

والنمام هو من ينم قول الغير الى المقول فيه ويكشف ما يكره كشفه ، سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول اليه : أو كرهه ثالث ، وسواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرمز أو الايماء ، وسواء كان المنقول من الأعمال أو الأقوال ، وسواء كان ذلك عيباً ونقصاناً على المنقول عنه أولا • فحقيقة النميمة افشاء السر وهتك الستر وكشفه •

ومن حملت اليه النميمة فعليه بأمور ستة :

(الأول) عدم تصديقه لأنه فاسق وقد قال تعالى : « إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا » •

(الثاني) ان ينهره عن ذلك لقوله تعالى : « وأمر بالمعروف وانه عن المنكر » • (الثالث) ان يبغضه لأنه بغيض الله •

(الرابع) أن لا يظن المنقول عنه السوء ، لقوله تعالى : « اجتنبوا كثيراً من الظن ان بعض الظن اثم » •

(الخامس) أن لا يحمله ذلك على التجسس والبحث ليتحقق حقيقة الحال ، قال تعالى « ولا تجسسوا » •

(السادس) ان لا يرضى لنفسه ما نهي عنه النمام فلا يحكي نميمته ويقول قال فلان فيك كذا • وقد روى عن أمير المؤمنين (ع) ان رجلاً أتاه يسعى اليه برجل فقال : يا هذا نحن نسأل عما قلت فإن كنت صادقاً مقتناك وإن كنت كاذباً عاقبناك • وان شئت أن نقيلك أقلناك • قال : اقلني يا امير المؤمنين •

الخامس عشر

كلام ذي اللسانين

وهو الذي يتردد بين المتعاديين ويكلم كل واحد بكلام يوافقه وذلك عين النفاق . قال رسول الله (ص) : يجيء يوم القيامة دو الوجهين دالعاً لسانه في قفاه وآخر من قدامه يلتهبان ناراً حتى يلتهبا خده ، ثم يقال : هذا الذي كان في الدنيا ذا وجهين وذا لسانين يعرف بذلك يوم القيامة .

وقال الباقر (ع) : بئس العبد عبداً يكون ذا وجهين وذا لسانين يطري أخاه شاهداً ويأكله غائباً ، ان اعطي حسده وان ابتلى خذله .

السادس عشر

المـــدح

وفيه ست آفات أربعة في المادح :

(الأولى) انه قد يفرط فينتهي به الافراط الى الكذب .

(الثانية) انه قد يدخله الرياء ، فإنه بالمدح مظهر للحب وقد لا يكون مضمراً له ولا معتقداً لما يقوله ، فيكون مرائياً منافقاً .

(الثالثة) انه قد يقول ما لا يتحققه ولا سبيل له للاطلاع عليه .

(الرابعة) انه قد يفرح الممدوح وهو ظالم فاسق وذلك غير جائز . قال (ص) : ان الله ليغضب اذا مدح الفاسق .

واثنتان في الممدوح : احداهما انه قد يحدث فيه كبر أو اعجاب وهما مهلكان . الثانية انه اذا أثنى عليه بالخير فرح به وفتر ورضي عن نفسه .

فاذا سلم المدح من هذه الآفات فلا بأس به . وروي عنه (ص) انه قال : احثوا التراب في وجوه المداحين . وقال امير المؤمنين (ع) لما اثني عليه : اللهم اغفر لي ما لا يعلمون ولا تؤخذني بما يقولون واجعلني خيراً مما يظنون .

الباب الرابع
في الغضب

وهو شعلة من نار اقتبست من نار الله الموقدة الا انها لا تطلع على الأفئدة وانها لمستكنة في طي الفؤاد استكنان الجمر تحت الرماد ، ويستخرجها الكبر الدفين من قلب كل جبار عنيد ، كما يستخرج الحجر النار من الحديد ، وتستخرجها حمية الدين من قلوب المؤمنين .

وسببه ثوران نار الغضب ، وهي الحرارة المودعة في الانسان واشتعالها ، فيغلى بها دم القلب وينتشر في العروق ويرتفع الى أعالي البدن كما ترتفع النار وكما يرتفع الماء الذي يغلي في القدر ، ولذلك ينصب الى الوجه فيحمر الوجه والعين والبشرة لصفائها تحكى ما ورائها من حمرة الدم كما تحكى الزجاجة لون ما فيها .

وانما ينبسط الدم اذا غضب على من دونه واستشعر القدرة عليه ، فإن صدر الغضب على من هو فوقه وكان معه يأس من الانتقام تولد منه انقباض الدم من ظاهر الجلد الى جوف القلب وصار حزناً ، ولذلك يصفر اللون ، وان كان الغضب على نظير يشك فيه تولد منه تردد بين انقباض وانبساط فيحمر ويصفر ويضطرب .

وقوة الغضب محلها القلب ، ومعناها غليان دم القلب لطلب الانتقام ،

وانما تتوجه هذه القوة عند ثورانها الى دفع المؤذيات قبل وقوعها ، والى التشفي والانتقام بعد وقوعها ، والانتقام فوت هذه القوة وشهوتها وفيه لذتها ولا تسكن الا به .

والناس فى هذه القوة على درجات ثلاث في أول الفطرة من التفريط والافراط والاعتدال :

(أما التفريط) فبفقد هذه القوة أو ضعفها ، وذلك مذموم ، وهو الذي يقال فيه انه لا حمية له ، ومن ثمرته عدم الغيرة على الحرام ، واحتمال الذل وصغر النفس والخور والسكوت عند مشاهدة المنكرات . وقد وصف الله تعالى خيار الصحابة بالشدة والحمية فقال : « أشداء على الكفار » وقال تعالى : « يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم » والشدة والغلظة من آثار قوة الغضب .

(والافراط) هو أن تغلب هذه الصفة حتى تخرج من سياسة العقل والدين وطاعتهما فلا يبقى للمرء معها بصيرة ونظر وفكر واختيار ، ويعمى ويصم عن كل موعظة ، ومن آثاره تغير اللون وشدة الرعدة في الأطراف وخروج الأفعال عن الترتيب والنظام واضطراب الحركة والكلام وانطلاق اللسان بالفحش والشتم وقبح الكلام والضرب والتهجم ، ولذلك قال (ص) : الغضب يفسد الايمان كما يفسد الخل العسل .

وعن ميسر قال : ذكر الغضب عند أبي جعفر (ع) فقال : ان الرجل ليغضب فما يرضى أبداً حتى يدخل النار ، فأيما رجل غضب على قوم وهو قائم فليجلس من فوره ذلك ، فإنه سيذهب عنه رجز الشيطان ، وأيما رجل غضب على ذي رحم فليدن منه فليمسه ، فإن الرحم اذا مست سكنت .

وعن أبي حمزة الثمالي عنه (ع) قال : ان الغضب جمرة من الشيطان توقد في جوف ابن آدم ، وان أحدكم اذا غضب احمرت عيناه وانتفخت

أوداجه ودخل الشيطان فيه ، فاذا خاف أحدكم ذلك من نفسه فليلزم الأرض ، فإن رجز الشيطان يذهب عنه عند ذلك •

وعن الصادق عليه السلام : الغضب مفتاح كل شر •

وعنه عليه السلام قال : من كف غضبه ستر الله عورته •

وعنه (ع) قال : ان في التوراة مكتوب : ابن آدم اذكرني حين تغضب أذكرك عند غضبي فلا امحقك فيما امحق، واذا ظلمت بمظلمة فارض بانتصاري لك فإن انتصاري لك خير من انتصارك لنفسك •

وقال عليه السلام : من لم يملك غضبه لم يملك عقله •

وعنه (ع) فيما ناجى الله به موسى : يا موسى امسك غضبك عمن ملكتك عليه اكف عنك غضبي •

واعلم ان قمع أصل الغيظ من القلب غير ممكن ، بل التكليف انما هو بكسر سورته وتضعيفه حتى لا يشتد هيجان الغيظ في الباطن ، وينتهي ضعفه الى أن يظهر أثره في الوجه ، بل ينبغي للانسان أن يكون غضبه تحت اشارة العقل والشرع ، فيغضب في محل الغضب ويحلم في محل التحلم ، ولا يخرجه غضبه عن الاختيار • قال تعالى : « والكاظمين الغيظ » ولم يقل : والفاقدين الغيظ •

والأسباب المهيجة للغضب : الزهو ، والعجب ، والهزل ، والهزؤ ، والذل والتعيير ، والمارات والمضادة ، والعذر ، وشدة الحرص على فضول المال والجاه • وهي بأجمعها أخلاق رديئة مذمومة شرعاً •

ولا خلاص عن الغضب مع بقاء هـذه الأسباب ، فلابد من إزالتها بأضدادها ، فينبغي أن يميت الزهو بالتواضع ، والعجب بالمعرفة بنفسك ، والفخر بمعرفة انه من الرذائل وانما الفخر بالفضائل ، وأما الهزل فيزيله بالجد في طلب الفضائل والأخلاق الحسنة ، وأما الهزؤ فيزيله بالتكرم عن ايذاء

الناس وبصيانة النفس عن أن يستهزىء بك ، وأما التعيير فبالحذر عن قول القبيح وصيانة النفس عن مرّ الجواب ، واما شدة الحرص على مزايا العيش فتزال بالقناعة بقدر الضرورة طلباً لعز الاستغناء وترفعاً عن ذل الحاجة .

وكل خلق من هذه الأخلاق يفتقر في علاجه الى رياضة وتحمل مشقة ، وأصل الرياضة فى ازالة هذه الأخلاق يرجع الى معرفة غوائلها لترغب النفس عنها وتنفر عن قبحها . ثم المواظبة على مباشرة اضدادها مدة مديدة حتى تصير بالعادة مألوفة هينة على النفس ، فاذا انمحت عن النفس فقد زكت وطهرت عن هذه الرذائل وتخلصت عن الغضب الذي يتولد منها .

وعلاجه عند هيجانه — كما اشير اليه في الأخبار المتقدمة — الاستعاذة من الشيطان ، والجلوس ان كان قائماً ، والاضطجاع ان كان جالساً ، والوضوء أو الغسل بالماء البارد . قال (ص) : اذا غضب أحدكم فليتوضأ وليغتسل فإن الغضب من النار . وأمر (ص) بالاستعاذة من الشيطان ، وان يتفكر فيما ورد في فضائل كظم الغيظ والعفو والحلم والاحتمال . قال الله في معرض المدح : « والكاظمين الغيظ » وقال (ص) : من كف غضبه كف الله عنه عذابه، ومن اعتذر الى ربه قبل الله عذره ، ومن خزن لسانه ستر الله عورته .

وقال (ص) : أشدكم من ملك نفسه عند الغضب ، وأحلمكم من عفا عند القدرة .

وقال (ص) : من أحب السبيل الى الله تعالى جرعتان : جرعة غيظ تردها بحلم ، وجرعة مصيبة تردها بصبر .

وعن السجاد (ع) قال : ما أحب ان لي بذل نفسي حمر النعم ، وما تجرعت جرعة أحب الي من جرعة غيظ لا اكافي بها صاحبها .

وعن الباقر عليه السلام قال : من كظم غيظاً وهو يقدر على امضائه حشا الله قلبه أمناً وايماناً يوم القيامة .

وعن الصادق عليه السلام قال : نعم الجرعة الغيظ لمن صبر عليها ، فإن عظيم الأجر لمن عظم البلاء ، وما أحب الله قوماً الا ابتلاهم •

وعنه (ع) : ما من عبد كظم غيظاً إلا زاده الله تعالى عزاً في الدنيا وعزاً في الآخرة •

وعنه (ع) : من كظم غيظاً ولو شاء ان يمضيه امضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضاه •

وعن الصادق عليه السلام قال : قال رسول الله (ص) : ما أعز الله بجهل قط ، ولا أذل بحلم قط •

وعن حفص قال : بعث الصادق (ع) غلاماً له في حاجة فأبطأ ، فخرج عليه السلام في أثره فوجده نائماً ، فجلس عند رأسه يروحه حتى انتبه قال له أبو عبدالله (ع) : يا فلان والله ما ذلك لك تنام الليل والنهار ، لك الليل ولنا منك النهار •

الباب الخامس

فى الحقد

اعلم ان الغضب اذا لزم كظمه لعجز عن التشفي في الحال رجع الى الباطن واحتقن فيه فصار حقداً ، ومعنى الحقد أن يلزم قلبه استثقاله والبغضة له والتنفر عنه ، وان يدوم على ذلك ويبقى ، وقد قال رسول الله (ص) : المؤمن ليس بحقود • والحقد ثمرة الغضب ، والحقد يثمر ثمانية امور :

(الأول) الحسد ، وهو أن يحملك الحقد على أن تتمنى زوال النعمة منه •

(الثاني) أن تزيد على اضمار الحسد فى الباطن فتشمت بما يصيبه من البلاء •

(الثالث) أن تهجره وتقطعه وان أقبل عليك •

(الرابع) أن تعرض عنه استصغاراً له .

(الخامس) أن تتكلم فيه بما لا يحلّ من كذب وغيبة وافشاء سر وهتك ستر وغيره .

(السادس) أن تحاكيه استهزاءاً وسخرية منه .

(السابع) ايذاؤه بالضرب وما يؤلم بدنه .

(الثامن) أن تمنعه حقه من صلة رحم أو قضاء دين أو رد مظلمة وكل ذلك حرام .

وأقل درجات الحقد أن يحترز من الآفات الثمانية ، ولكن تستثقله وتبغضه في الباطن وتمتنع من البشاشة والرفق والعناية .

والأولى ان يبقى على حالته السابقة معه ، وان أمكنه أن يزيد في الاحسان على العفو مجاهدة للنفس وارغاماً للشيطان فذلك مقام الصديقين ، وهو من أفضل أعمال المقربين ، فللحقود ثلاثة أحوال عند القدرة :

(أحدها) أن يستوفى حقه الذي يستحقه من غير زيادة ونقصان ، وهو العدل .

(والثاني) ان يحسن اليه بالعفو والصلة ، وذلك هو الفضل .

(والثالث) أن يطلبه بما لا يستحقه ، وذلك هو الجور .

وعلاج الحقد أن يعلم انه مهما كان في قلبه حقد فلا يزال مغموماً مهموماً مبتلى معذباً في الدنيا والآخرة ، وان ينظر في فضيلة العفو والرفق . قال تعالى : « خذ العفو وأمر بالعرف » . وقال تعالى : « وان تعفو أقرب للتقوى » .

وعن الصادق (ع) قال : قال رسول الله (ص) : ألا أخبركم بخير خلائق الدنيا والآخرة ؟ العفو عمن ظلمك ، وتصل من قطعك ، والاحسان الى من أساء اليك ، واعطاء من حرمك .

وعنه (ع) قال : قال رسول الله (ص) : عليكم بالعفو ، فإن العفو لا يزيد العبد الا عزاً ، فتعافوا يعزكم الله •

وعن معتب قال : كان أبو الحسن موسى عليه السلام في حائط له يصرم ، فنظرت الى غلام له قد أخذ كارة من تمر فرمى بها وراء الحائط ، فأتيته وأخذته وذهبت به اليه ، فقلت له : جعلت فداك اني وجدت هذا وهذه الكارة • فقال للغلام : فلان • قال : لبيك • قال : اتجوع ؟ قال : لا يا سيدي • قال : فتعرى ؟ قال : لا ياسيدي • قال : فلأي شيء أخذت هذا ؟ قال : اشتهيت ذلك قال : اذهب فهي لك ، وقال : خلوا عنه •

وعن الكاظم عليه السلام قال : الرفق نصف العيش •

الباب السادس

في الحسد

وهو من نتائج الحقد كما سبق ، والحقد من نتائج الغضب ، فهو فرع فرع الغضب • وللحسد من الفروع الذميمة ما لا يكاد يحصى • قال الباقر عليه السلام : ان الحسد ليأكل الايمان كما تأكل النار الحطب •

وقال الصادق (ع) : آفة الدين الحسد والعجب والفخر •

وعنه (ع) قال : قال الله تعالى لموسى : يابن عمران لا تحسدن الناس على ما آتيتهم من فضلي ، ولا تمدن عينيك الى ذلك ولا تتبعه نفسك ، فإن الحاسد ساخط لنعمي صاد" لقسمي الذي قسمت بين عبادي ، ومن يك كذلك فلست منه وليس مني •

وعنه (ع) قال : اتقوا الله ولا يحسد بعضكم بعضاً — الحديث •

وفي مصباح الشريعة : قال الصادق عليه السلام : الحاسد مضر بنفسه

قبل أن يضر بالمحسود ، كابليس أورث بحسده لنفسه اللعنة ولآدم الاجتباء والهدى والرفع الى محل حقائق العهد والاصطفاء ، فكن محسوداً ولا تكن حاسداً ، فإن ميزان الحاسد أبداً خفيف يثقل ميزان المحسود والرزق مقسوم فماذا ينفع الحسد الحاسد وما يضر المحسود الحسد ، والحسد أصله من عمى القلب وجحود فضل الله وهما جناحان للكفر ، وبالحسد وقع ابن آدم في حسرة الأبد وهلك مهلكاً لا ينجو منه أبداً ، ولا توبة للحاسد لأنه مصر عليه معتقد به مطبوع فيه ، يبدو بلا معارض به ولا سبب ، والطبع لا يتغير عن الأصل وان عولج .

ثم اعلم انه لا حسد الا على نعمة ، فاذا أنعم الله على أخيك بنعمة فلك فيها حالتان : (احداهما) أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها ، وهذه الحالة تسمى حسداً . (الثانية) أن لا تحب زوالها ولا تكره وجودها ودوامها ولكنك تشتهي لنفسك مثلها ، وهذه تسمى غبطة ومنافسة ، وقد يوضع أحد اللفظين بدل الآخر ، ولا حجر في الأسامي بعد فهم المعاني .

قال (ص) : ان المؤمن يغبط والكافر يحسد . وقال تعالى : « وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » .

وقال (ص) : لا حسد الا في اثنين : رجل آتاه الله مالاً فسلطه الله على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله علماً فهو يعمل به ويعلمه الناس . فسمى الغبطة حسداً كما قد يسمى الحسد منافسة .

والحسد حرام على كل حال إلا في نعمة أصابها فاجر أو كافر وهو يستعين بها على تهيج الفتنة وافساد ذات البين وإيذاء الخلق ، فلا يضر كراهتها ومحبة زوالها من حيث هي آلة الفساد لا من حيث انها نعمة ، بحيث لو أمن فسادها لم يغمه تنعمه .

والحسد إنما يكثر بين أقوام تجمعهم روابط تتوارد على أغراضهم ،

فاذا خالف واحد صاحبه في غرض من أغراضه نفر طبعه وأبغضه وثبت الحقد فيه ، وحيث لا رابطة بين شخصين فلا تحاسد بينهما ، فلذلك يحسد العالم العالم دون العابد ، والتاجر يحسد مثله ولا يحسد العالم ، ويحسد الرجل أخاه وابن عمه أكثر مما يحسد الأجانب ، والمرأة تحسد ضرتها وسرية زوجها أكثر مما يحسد ام الزوج وابنته ، وذلك للتزاحم على المقاصد .

وأسباب الحسد المذموم :

(العداوة) بأن يكره النعمة على المحسود لأنه عدوه ، فلا يريد له الخير .

(أو التعزز) وهو أن يعلم ان المحسود يتكبر بالنعمة عليه وهو لا يطيق احتمال كبره وتفاخره لعزة نفسه .

(أو الكبر) وهو أن يكون في طبع الحاسد أن يتكبر على المحسود ويمتنع ذلك عليه بنعمة .

(أو التعجب) وهو أن تكون النعمة عظيمة والمنصب كبيراً ، فيتعجب من فوز مثله بمثل تلك النعمة .

(أو الخوف) من فوت المقاصد المحبوبة ، وهو أن يخاف من فوت مقاصده بسبب نعمته ، بأن يتوصل بها الى مزاحمته في أغراضه .

(أو حب الرياسة) التي تبتنى على الاختصاص بنعمة لا يساوى فيها ، أو خبث نفس وبخلها وشحها بالخير لعباد الله وان كانت النعمة لا تنقل .

وقد تجتمع هذه الأسباب أو أكثرها في شخص واحد فيعظم الحسد لذلك .

وعلاج الحسد علمي وعملي :

(أما العلمي) فهو أن يعلم الحاسد ان للحسد ضرراً عليه فى الدنيا والدين ، لأنه بالحسد سخط قضاء الله تعالى وكره نعمته التي قسمها لعباده وعدله الذي أقامه في ملكه بخفي حكمته ، وهذه جناية عظيمة على العدل الحكيم . علي ان الحاسد فارق أولياء الله في حبهم الخير لعباد الله ، وشارك

ابليس وسائر الكفار في حبهم للمؤمنين البلايا وزوال النعم . قال تعالى : « ان تمسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها » وقال تعالى : « ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم » .

وأما ضرره في الدنيا فهو أن الحاسد لا يزال متألماً بالحسد مهموماً مغموماً معذباً ، لأن أعداءه لا يزال نعم الله تتجدد عليهم يوماً فيوماً وساعة فساعة ولا تزول النعمة عن المحسود بالحسد ، ولو كان كذلك لما بقيت نعمة على المؤمنين لحسد الكفار اياهم ، ولا ضرر على المحسود أصلاً ، لأن ما قدره الله تعالى له من النعم فلا حيلة في دفعه ، بل الضرر على الحاسد كما عرفت .

والحسد ينفع المحسود في الدنيا والآخرة :

أما في الدنيا فهو أن أهم أغراض الخلق مساءة الأعداء وغمهم وشقاوتهم وكونهم معذبين مغمومين ، ولا عذاب أعظم مما في الحاسد من ألم الحسد ، وقد فعل الحاسد بنفسه ما هو مراد أعدائه .

وأما في الدين فلأن المحسود مظلوم من جهة الحاسد ، لا سيما اذا أخرجه الحسد الى القول أو الفعل بالغيبة أو القدح فيه وهتك ستره وذكر مساويه ، فهذه هدايا يهديها الحاسد الى المحسود بانتقال حسناته الى ديوانه ، حتى يلقاه مفلساً محروماً من الحسنات ، كما حرم من الراحة في الدنيا فقد اضيف للمحسود نعمة الى نعمة والى الحاسد شقاوة الى شقاوة .

(وأما العلاج العملي) فهو أن يحكم الحسد وكلما يتقاضاه من قول أو فعل ، فينبغي أن يكلف نفسه بنقيضها ، فان بعثه الحسد على القدح فيه كلف لسانه المدح له والثناء عليه ، وان حمله على التكبر ألزم نفسه التواضع والاعتذار اليه ، وان بعثه على كف الانعام عنه ألزم نفسه الزيادة . ومهما

فعل ذلك عن تكلف وعرفه المحسود طاب قلبه وأحبه ، ومهما أحبه عاد الحاسد وأحبه وتولد بينهما الموافقة التي تقطع مادة الحسد ، ويصير ما تكلفه أولاً طبعاً آخر •

والأصل في العلاج قمع أسباب الحسد من الكبر وعزة النفس وشدة الحرص كما يأتي انشاء الله تعالى •

واعلم ان الحاسد له في أعدائه ثلاثة أحوال :

(الأولى) ان يحب مساءتهم بطبعه ولكنه يكره حبه لذلك وميل قلبه اليه بعقله ، ويمقت نفسه عليه ويودّ أن يكون له حيلة في ازالة ذلك الميل ، وهذا القسم معفو عنه قطعاً لأنه غير داخل تحت الاختيار •

(الثانية) أن يحب ذلك ويظهر الفرح بمساءته إما بلسانه أو بجوارحه ، وهذا هو الحسد المحظور قطعاً •

(الثالثة) وهي بين الطرفين أن يحسد بالقلب من غير مقته لنفسه على حسده ومن غير انكار منه على قلبه ، لكن يحفظ جوارحه من طاعة الحسد في مقتضاها ، وهذا محل خلاف بين العارفين : فقيل انه لا يخلو عن إثم بقدر قوة ذلك الحب وضعفه ، لأنك وإن كفيت ظاهرك بالكلية الا انك بباطنك تحب زوال النعمة ، وليس في نفسك كراهة لهذه الحالة ، فأنت أيضاً حسود عاصٍ ، لأن الحسد صفة القلب لا صفة الفعل ، قال تعالى : « ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا» وقال : «ودّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء » ، والفعل ـ كالغيبة والوقيعة في المحسود ـ انما هو عمل صادر عن الحسد لا عين الحسد •

وذهب ذاهبون الى أنه لا يأثم اذا لم يظهر الحسد على جوارحه ، ويرشد اليه كثير من الأخبار : فروي من طرق العامة بأسانيد عديدة عن النبي (ص) قال : وضع عن امتي تسع خصال : الخطأ ، والنسيان ، وما لا يعلمون ،

وما لا يطيقون ، وما اضطروا اليه، وما استكرهوا عليه، والطيرة ، والوسوسة في التفكير في الخلق ، والحسد ما لم يظهر بلسان أو يد .

وعنه (ص) قال : ثلاث لا ينجو منهن أحد : الظن ، والطيرة ، والحسد . وسأحدثكم بالمخرج من ذلك : اذا ظننت فلا تحقق ، واذا تطيرت فامض ، واذا حسدت فلا تبغ .

وفي رواية اخرى : ثلاث لا ينجو منهن أحد وقلّ من ينجو منهن ... الى آخرها .

وفي رواية أخرى : ثلاثة في المؤمن له منهن مخرج ، ومخرجه من الحسد أن لا يبغي .

الباب السابع
في الرياء

وتحقيق الكلام فيه في فصول :

(الفصل الأول)

في ذمه وحرمته

قال الله تعالى : « ويل للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون . الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون » وقال تعالى : « يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً » وقال تعالى : « كالذي ينفق ماله رآء الناس » وقال تعالى : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » .

وقال رسول الله (ص) : ان أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر . قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : الرياء ، يقول الله تعالى يوم القيامة اذا جازى العباد بأعمالهم : اذهبوا الى الذين كنتم تراؤون لهم في الدنيا فانظرو هل تجدون عندهم الجزاء !!

وقال (ص) : يقول الله تعالى : من عمل عملاً اشرك فيه غيري فهو له كله وأنا منه بريء ، وأنا أغنى الأغنياء عن الشرك .

وقال (ص) : لا يقبل الله عملاً فيه مقدار ذرة من رياء .

وقال (ص) : ان أدنى الرياء شرك .

وعن الصادق (ع) قال : قال الله تعالى : أنا خير شريك ، من أشرك معي

غيري في عمل عمله لم أقبله الا ما كان لي خالصاً .

وعنه (ص) قال : قال رسول الله (ص) : سيأتي على الناس زمان تخبث فيه سرائرهم وتحسن فيه علانيتهم طمعاً في الدنيا ، لا يريدون به ما عند ربهم ، يكون دينهم رياء ، لا يخالطهم خوف ، يعمهم الله بعقاب فيدعونه دعاء الغرق فلا يستجاب لهم .

وعنه (ع) قال : قال رسول الله (ص) : ان الملك يصعد بعمل العبد مبتهجاً به ، فاذا صعد بحسناته يقول الله : اجعلوها في سجين ، انه ليس اياي أراد به.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام : ثلاث علامات للمرائي : ينشط اذا رأى الناس ، ويكسل اذا كان وحده ، ويحب ان يحمد في كل اموره .

وقال (ع) : اخشوا الله خشية ليست بتقدير ، واعملوا في غير رياء ولا سمعة ، فانه من عمل لغير الله وكّله الله الى عمله .

وقال الصادق (ع) : اجعلوا أمركم هذا لله ولا تجعلوه للناس ، فانه ما كان لله فهو لله وما كان للناس فلا يصعد الى الله .

وعنه (ع) : كل رياء شرك ، انه من عمل للناس كان ثوابه على الناس ، ومن عمل لله كان ثوابه على الله .

وعنه عليه السلام في قول الله عز وجل « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » قال : الرجل يعمل شيئاً من الثواب لا يطلب به وجه الله ، انما يطلب تزكية الناس يشتهي أن يسمع به الناس ، فهذا الذي أشرك بعبادة ربه . ثم قال : ما من عبد سَرَّ خيراً فذهبت الأيام أبداً حتى يظهر الله له خيراً ، وما من عبد يسر شراً فذهبت الأيام حتى يظهر الله له شراً .

وعنه (ع) : ما يصنع أحدكم أن يظهر حسناً ويسر سيئاً ، أليس يرجع الى نفسه فيعلم ان ذلك ليس كذلك ، والله تعالى يقول : « بل الانسان على

نفسه بصيرة » ان السريرة اذا صحت قويت العلانية .

(الفصل الثاني)

فى حقيقة الرياء والفرق بينه وبين السمعة وأقسام الرياء

أصل الرياء من الرؤية : وهي طلب المنزلة في قلوب الناس باراءتهم خصال الخير . والسمعة من السماع : وهي طلب المنزلة في قلوب الناس باسماعهم ما يوجب ذلك .

وحدُّ الرياء : هو ارادة المنزلة بطاعة الله تعالى . والمرائي هو العابد . والرائي هو الناس المطلوب رؤيتهم لطلب المنزلة في قلوبهم . والمرائي به هي الخصال التي قصد المرائي اظهارها . والرياء هو قصده اظهار ذلك .

والمرائى به كثير ويجمعه خمسة أقسام ، وهي : مجامع ما يتزين به العبد للناس البدن والزي ، والقول ، والعمل ، والاتباع ، والأشياء الخارجة .

وأهل الدنيا يراؤون بهذه الأسباب الخمسة ، الا ان طلب الجاه وقصد الرياء بأعمال ليست من جملة الطاعات أهون الرياء بالطاعات .

(القسم الأول) الرياء فى الدين بالبدن باظهار النحول والصفار ، ليوهم بذلك شدة الاجتهاد وعظم الحزن على أمر الدين وغلبة خوف الآخرة وقلة الأكل وسهر الليل ، ويقرب منه خفض الصوت واغارة العينين وذبول الشفتين ليوهم انه مواظب على الصوم ، ولهذا قال عيسى (ع) : اذا صام أحدكم فليدهن رأسه ويرجل شعره ويكحل عينيه ، وذلك لخوف الرياء .

(القسم الثاني) الرياء بالزي والهيئة ، كتشعث شعر الرأس وحلق الشارب واطراق الرأس في المشي والهدوء في الحركة وابقاء أثر السجود على

الوجه وغلظ الثياب وتشميرها وترقيع الثوب لاظهار انه متابع للسنة غير مقبل على الدنيا .

(القسم الثالث) الرياء بالقول ، كالوعظ والتذكير والنطق بالحكمة وحفظ الأخبار والآثار وتحريك الشفتين بمحضر الناس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمشهد الخلق ونحو ذلك .

(الرابع) الرياء بالأعمال ، كمراءآت المصلي بطول القيام والركوع والسجود واطراق الرأس وترك الالتفات ونحو ذلك .

(الخامس) المراءآت بالأصحاب والزائرين والمخالطين ، بأن يكثر التردد الى العلماء والعباد والزهاد والفقراء والمساكين ، أو يصير سبباً لكثرة ترددهم اليه ليقال انه عظيم الرتبة في الدين .

(الفصل الثالث)

في درجات الرياء

اعلم ان الرياء يتفاوت فبعضه أشد وأغلظ من بعض ، ويختلف باختلاف أركانه ، وأركانه ثلاثة : المراءا به ، والمراءا لأجله ، ونفس قصد الرياء :

الركن الاول ـ نفس قصد الرياء

وله درجات أربع : « الأولى » ـ وهي أغلظها ـ ان لا يكون مراده الثواب أصلاً ، كالذي يصلي بين أظهر الناس الفرض أو النفل ولو انفرد لم يصل . « الثانية » ان يكون له قصد الثواب أيضاً قصداً ضعيفاً . « الثالثة » ان يكون قصد الثواب وقصد الرياء متساويين ، بحيث لو كان كل منها خالياً من الآخر لم يبعثه على العمل . « الرابعة » أن يكون اطلاع الناس مرجحاً ومقوياً لنشاطه ، ولو لم يكن لكان لا يترك العبادة . والكل حرام ومبطل

للعمل لما تقدم من قوله تعالى في الحديث القدسي : انا اغنى الأغنياء عن الشرك ، وقوله تعالى : « ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » ، وقوله عليه السلام في علامةالمرائي : يكسل في الخلوة وينشط عند الناس .

الركن الثاني ـ المراءا به

وهو الطاعات ، وهو ينقسم الى : الرياء بأصول العبادات ، والى الرياء بأوصافها :

(القسم الأول) له درجات ثلاث : « الأولى » الرياء بأصل الايمان ، وهو أغلظ أبواب الرياء ، وأصحابه من المنافقين المخلدين في النار ، وربما كان حال هذا أشد من الكافر حيث جمع بين كفر الباطن ونفاق الظاهر . « الثانية » الرياء بأصول العبادات مع التصديق بأصول الدين ، كالرياء بالصلاة والزكاة والحج والجهاد ، وهذا أهون من الأول . « الثالثة » الرياء بالنوافل والسنن التي لو تركها لا يعصي ولكن يكسل عنها في الخلوة وينشط عند الناس .

(القسم الثاني) الرياء بأوصاف العبادات لا بأصولها ، وهي أيضاً على ثلاث درجات : « الأولى » أن يرائي بفعل ما في تركه نقصان العبادة ، كالذي يكون غرضه تخفيف القراءة والركوع والسجود فاذا رآه الناس أحسن الركوع والسجود والقيام . « الثانية » أن يرائي بفعل ما لا نقصان فى تركه ولكن فعله في حكم التتمة والتكملة للعبادة ، كالتطويل في الركوع والسجود ومد القيام وتحسين الاعتدال وطول القراءة والتأني فيها وفي الأذكار . « الثالثة » أن يرائي بزيادات خارجة عن نفس النوافل ، كحضوره الجماعة قبل القوم وقصده الصف الأول ويمين الامام ونحو ذلك .

الركن الثالث ــ المراءا لأجله

وله درجات ثلاث :

(الأولى) ــ وهي أشدها ــ ان يكون مقصده التمكن من معصية ، كالذي يرائي بعباداته ويظهر التقوى والورع بكثرة النوافل والامتناع من أكل الشبهات ، وغرضه أن يعرف بالأمانة فيولى القضاء والاوقاف والوصايا أو مال الأيتام فيأخذها أو يودع الودائع فيجحدها .

(الثانية) أن يكون غرضه نيل حظ مباح من حظوظ الدنيا من مال أو نكاح امرأة جميلة أو شريفة .

(الثالثة) ان يكون غرضه ان لا ينظر اليه بعين النقص وان يعدّ من الخاصة والزهاد ، كالذي يمشي مستعجلاً فيطلع عليه الناس فيحسن المشي ويترك العجلة كي لا يقال انه من أهل اللهو والسهو لا من أهل الوقار ، أو يبدر منه المزاح فيخاف أن ينظر اليه بعين الاحتقار فيتبع ذلك بالاستغفار وتنفس الصعداء واظهار الحزن .

تقسيم آخر

الرياء منه : جلي ، وخفي ، وأجلى ، وأخفى :

فالجلي الذي يبعث على العمل ويحمل عليه .

وأخفى منه ما لا يحمل على العمل بمجرده الا انه يخفف العمل ، كالذي يعتاد التهجد كل ليلة ويثقل عليه ، فاذا دخل عليه الضيوف نشط .

واخفى من ذلك أن يعرض باظهار العمل بالشمائل ، كاظهار النحول والصفار وخفض الصوت وجفاف الريق وآثار الدموع وغلبة النعاس الدال

على طول التهجد •

واخفى من ذلك أن يختفى بحيث لا يريد الاطلاع ولا يسر بظهور طاعته ، ولكنه اذا رأى الناس أحب ان يبدأوه بالسلام ، وان يقابلوه بالبشاشة والتوقير ، وان يثنوا عليه وينبسطوا في قضاء حوائجه ، ويوسعوا له في المكان، وان قصر فيه مقصر ثقل على قلبه ، ولو لم تسبق منه تلك الطاعات والعبادات لما توقع ذلك •

وقد يكون العمل مخفياً قد قصد به وجه الله تعالى ولكن لما اتفق اطلاع غيره عليه استرّ بذلك ، فان كان قصده اخفاء الطاعة والاخلاص لله ولكن لما اطلع عليه الخلق علم ان الله اطلعهم عليه وأظهر الجميل من أحواله فيستدل به على حسن صنيع الله به ونظره له وألطافه به ، فيكون فرحه بجميل نظر الله لا بحمد الناس وقيام المنزلة في قلوبهم ، ولا بأس بذلك ، قال تعالى : « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا » ، وكذا اذا استدل باظهار الله الجميل وستره القبيح عليه في الدنيا انه كذلك يفعل به في الآخرة ، اذ قال (ص) : ما ستر الله على عبد في الدنيا الا ستر عليه فى الآخرة ، فيكون الأول فرحاً بالقبول في الحال •

وهذا التفات الى المستقبل ، وكذا اذا كان سروره من حيث رغبة المطلعين على الاقتداء به في الطاعة فيتضاعف بذلك أجره ، فيكون له أجر العلانية بما أظهر آخراً وأجر السر بما قصده أولاً ، ومن اقتدى به في طاعة فله أجر اعمال المقتدين به من غير أن ينقص من اجورهم شيء •

وكذا اذا فرح بطاعتهم لله في مدحهم إياه وبحبهم للمطيع وبميل قلوبهم الى الطاعة ، كما روي ان رجلاً قال لرسول الله (ص) : يا رسول الله اسرّ العمل لا أحب ان يطلع عليه أحد ، فيطلع عليه فيسرني ؟ قال : لك أجران أجر السر وأجر العلانية •

وعن الباقر عليه السلام انه سئل عن الرجل يعمل الشيء من الخير فيراه انسان فيسره ذلك ؟ قال : لا بأس ، ما من أحد الا وهو يحب أن يظهر الله له في الناس الخير اذا لم يكن صنع ذلك لذلك .

وأما اذا كان فرحه وسروره من حيث قيام منزلته في قلوب الناس حتى يمدحوه ويعظموه ويقوموا بقضاء حوائجه ويقابلوه بالاكرام في مصادره وموارده فهو رياء مذموم .

ومن جملة أقسام الرياء ترجيحه العمل في الملأ على الخلاء ، وعدَّ بعضهم عكسه أيضاً رياء ، لأنه لو كان عمله خالصاً لله لما تفاوت عنده الخلاء والملاء .

ومن جملة أقسامه ترك العمل خوفاً من الوقوع فى الرياء ، فانه قد اراح الشيطان من الافساد .

تقسيم آخر

قد يكون الرياء بغير العبادات ، وهو قد يكون مستحباً وقد يكون واجباً ، اذ يجب على المؤمن صيانة عرضه وأن لا يفعل ما يعاب عليه ، فلا يليق بذوي المروآت أن يرتكبوا الأمور الخسيسة بأنفسهم عند مشاهدة الناس وان جاز لهم في الخلوة ، ولهذا ورد الأمر بالتزين وإظهار النعمة واظهار الغنا وكتم الفقر ونحو ذلك في الشريعة المقدسة .

وروي ان رسول الله (ص) أراد يوماً أن يخرج على أصحابه وكان ينظر في حب من الماء ويسوي عمامته وشعره ، فقيل له ، أو تفعل ذلك يا رسول الله؟ قال : نعم ان الله يحب من العبد أن يتزين لاخوانه اذا خرج اليهم .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام : ليتزين أحدكم لأخيه المسلم كما يتزين الغريب الذي يحب أن يراه في أحسن الهيئة .

وقال الصادق عليه السلام : الثوب النقي يكبت العدو .. وكل ذلك رياء محبوب .

(الفصل الرابع)

فى سبب الرياء وعلاجه

اعلم ان الرياء بالعبادة انما ينشأ من حب لذة الحمد ، والفرار من ألم المذمة ، والطمع مما في أيدي الناس ، فالعلاج ان يعرف العبد مضرة الرياء ، وما يفوته من صلاح قلبه ، وما يحرم عنه في الحال من التوفيق وفي الآخرة من المنزلة عند الله ، وما يتعرض له من العقاب والمقت والخزي ، وما يفوته من ثواب الآخرة ورضاء الله وانه قد أتعب بدنه وأحبط أجره ، وقد خسر الدنيا والآخرة لما يتعرض له في الدنيا من تشتت الهم بسبب ملاحظة قلوب الخلق ، فإن رضاء الناس غاية لا تدرك ، وكلما يرضى به فريق يسخط به فريق ، ورضاء بعضهم في سخط بعض ، ومن طلب رضاهم فى سخط الله سخط الله عليهم وأسخطهم عليه •

والأمور كلها والقلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء ، ومن أصلح فيما بينه وبين الله أصلح الله فيما بينه وبين الناس ، ومن اسخط الله الذي بيده جميع الأمور برضاء الناس الذين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً فهو أحمق سفيه ، وكيف يبعثه على العمل الطمع بما في أيدي الناس وهو يعلم ان الله هو المسخر للقلوب بالمنع والاعطاء •

ومهما تكن عند امرىء من خليقة　　　وان خالها تخفى على الناس تعلم

وربما كشف الله للناس خبث سره فيمقتوه ويكرهوه ويخسر الدنيا والآخرة ، ولابد من كشف سره على رؤوس الأشهاد يوم حشر العباد • ولو أخلص لله عمله لكشف الله لهم اخلاصه وحببه اليهم وسخرهم له ، وأطلق ألسنتهم بحمده والثناء عليه • هذا كله مع انه لا كمال في مدحهم ولا نقص

في ذمهم ، ولو كان راغباً في المدح وخائفاً من الذم فليرغب في مدح الملائكة المقربين ، بل في مدح رب العالمين ، وليخش من ذمه وذمهم .

ثم ينبغي أن يعوّد نفسه اخفاء العبادات واغلاق الأبواب دونها كما تغلق الأبواب دون الفواحش ، ويجعل قلبه قانعاً بعلم الله واطلاعه على عبادته ، ولا تنازعه نفسه الى طلب علم غير الله بـه ، واذا واظب على ذلك مدة سقط عنه ثقله .

وليستعن بالله ويجاهد ، فمن العبد المجاهدة ومن الله الهداية « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا والله لا يضيع أجر المحسنين .

الباب الثامن
فى العجب

وهو غالباً انما يقع بعد تصفية العمل من شوائب الرياء ، والكلام فيه يقع في فصول :

(الفصل الأول)
فى حقيقته وأقسامه والفرق بينه وبين الادلال

العجب هو اعظام النعمة والركون اليها مع نسيان اضافتها الى المنعم .
وفي الكافي عن علي بن سويد عن أبي الحسن عليه السلام قال : سألته عن العجب الذي يفسد العمل ؟ فقال : للعجب درجات : منها ان يزين للعبد سوء عمله فيراه حسناً ويحسب انه يحسن صنعاً ، ومنها ان يؤمن العبد بربه فيمنّ على الله ولله عليه فيه المنّة .

ثم اذا كان خائفاً على زوال تلك النعمة مشفقاً على تكدرها أو يكون فرحه بها من حيث انها من الله فليس بمعجب ، بل هو اعظام النعمة مع نسيان اضافتها الى المنعم ، واذا انضاف الى ذلك ان غلب على نفسه ان لـه

عند الله حقاً وانه منه بمكان حتى توقع بعمله كرامة له في الدنيا ، واستبعد أن يجري عليه مكروه استبعاداً يزيد على استبعاده فيما يجري على الفساق سمي هذا الادلال بالعمل ، فكأنه يرى لنفسه على الله دالة . وكذلك قد يعطى لغيره شيئاً فيستعظمه ويمنّ عليه فيكون معجباً ، فان استخدمه واقترح عليه الاقتراحات أو استبعد تخلفه عن قضاء حقوقه كان مدلاً عليه .

وآفات العجب كثيرة ، فانه يدعو الى الكبر لأنه أحد أسبابه ، ويتولد من الكبر الآفات الكثيرة ، ويدعو الى نسيان الذنوب واهمالها لظنه انه مستغنٍ عن تفقدها ، ويدعو الى استعظام العبادات والطاعات والمنة بها على الله ، وكفى بذلك نقصاً . ويدعو إعجابه بها الى التعامي عن آفاتها ، والمعجب يغتر بنفسه وبربه ويأمن مكر الله ولا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون .

ويمنعه العجب عن الاستشارة والاستفادة والتعلم ، فيبقى في ذل الجهل وربما يعجب برأيه الخطأ في الأصول والفروع فيهلك .

(الفصل الثاني)

فيما ورد في ذمه

قال الله تعالى في معرض الانكار : «ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم» وقال تعالى: «وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا» فرد على الكفار في اعجابهم بحصونهم وشوكتهم . وقال تعالى : « الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً » وقال تعالى : « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً » وهو يرجع الى العجب بالعمل .

وقال النبي (ص) : ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، واعجاب المرء بنفسه .

وقال (ص) : لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك :

العجب العجب .

وقال الصادق (ع) : ان الله تعالى علم ان الذنب خير للمؤمن من العجب ، ولولا ذلك ما ابتلي مؤمناً بذنب أبداً .

وقال عليه السلام : من دخله العجب هلك .

وقال (ع) : ان الرجل ليذنب الذنب فيندم عليه ويعمل العمل فيسره ذلك فيتراخى عن حاله تلك ، فلأن يكون على حاله تلك خير له مما دخل فيه .

وعنه (ع) قال : اتى عالم عابداً فقال له : كيف صلواتك ؟ فقال : مثلى يسأل عن صلواته وأنا اعبد الله منذ كذا وكذا . قال : فكيف بكاؤك ؟ قال : ابكي حتى تجري دموعي . فقال العالم : ان ضحكك وأنت خائف أفضل من بكائك وانت مدل ، ان المدل لا يصعد من عمله شيء .

وعن أحدهما (ع) قال : دخل رجلان المسجد أحدهما عابد والآخر فاسق فخرجا من المسجد والفاسق صدّيق والعابد فاسق ، وذلك انه يدخل العابد المسجد مدلاً بعبادته يدل بها فتكون فكرته في ذلك ، ويكون فكرة الفاسق في الندم على نفسه ويستغفر الله مما صنع من الذنوب .

وعنه (ع) : قال : قال رسول الله (ص) : بينما موسى (ع) جالس اذ أقبل ابليس وعليه برنس ذو ألوان ، فلما دنا منه خلع البرنس وقام الى موسى عليه السلام فسلم عليه . فقال له موسى : من أنت ؟ فقال أنا ابليس . قال : أنت فلا أقرب الله دارك . قال : اني انما جئت لاسلم عليك لمكانك من الله تعالى . قال : فقال له موسى (ع) : فما هذا البرنس ؟ قال : اختطف به قلوب بني آدم . فقال له موسى : فأخبرني بالذنب الذي اذا أذنبه ابن آدم استحوذت عليه ؟ فقال : اذا أعجبته نفسه واستكثر عمله وصغر في عينه ذنبه .

وعنه (ع) قال : قال الله تعالى لداود (ع) : يا داود بشر المذنبين اني أقبل التوبة وأعفو عن الذنب وأنذر الصديقين ان لا يعجبوا بأعمالهم ، فانه

ليس عبد أنصبه للحساب الا هلك .

وقال الصادق عليه السلام في مصباح الشريعة : العجب كل العجب ممن يعجب بعمله وهو لا يدري بم يختم له ، فمن أعجب بنفسه وفعله فقد ضل عن نهج الرشاد وادعى ما ليس له ، والمدعي من غير حق كاذب وان خفي دعواه أوطال دهره ، فانه أول ما يفعل بالمعجب نزع ما اعجب به ليعلم انه عاجز فقير ، ويشهد على نفسه لتكون الحجة عليه اوكد ــ كما فعل بابليس .

والعجب نبات حبها الكفر وارضها النفاق وماؤها البغي واغصانها الجهل وورقها الضلالة وثمرها اللعنة والخلود في النار ، فمن اختار العجب فقد بذر الكفر وزرع النفاق ، ولابد من أن يثمر .

(الفصل الثالث)

في علاج العجب اجمالاً

فحيث كانت علة العجب الجهل المحض فالعلاج هو العلم والمعرفة المضادة لذلك الجهل ، فليفرض العجب بفعل داخل تحت اختيار العبد كالعبادات ، فان العجب بها أبلغ من العجب بالجمال والقوة والنسب مما لا يدخل تحت الاختيار ، فيقال له الورع والتقوى والعبادة .

والعمل الذي به يعجب اما أن يكون يعجب به من حيث انه فيه وهو محله ومجراه ، او من حيث انه منه وبسببه وقدرته وقوته ، فان كان الأولى فهو جهل ، لأن المحل مستخر وانما يجري فيه وعليه من جهة غيره ، وهو لا مدخل له في الايجاد والتحصيل ، فكيف يعجب بما ليس اليه . وان كان الثاني فينبغي ان يتأمل في قدرته وارادته واعضائه وسائر الأسباب التي بها يتم عمله انها من اين كانت له ، فان كان علم ان جميع ذلك نعمة من الله اليه من غير حق سبق له فينبغي ان يكون اعجابه بجود الله تعالى وكرمه وفضله ،

اذ تفضّل عليه بما لا يستحقه .

وان قال : وفقني للعبادة لحبي له ، فيقال له : ومن خلق الحب في قلبك؟ فسيقول : هو ، فيقال له : فالحب والعبادة كلاهما نعمتان من عنده ابتدأك بهما من غير استحقاق من جهتك ، اذ لا وسيلة لك ولا علاقة ، فيكون الاعجاب بجوده تعالى اذ أنعم بوجودك ووجود صفاتك وأعمالك وأسباب أعمالك ، فلا معنى لعجب العالم بعلمه والعابد بعبادته والجميل بجماله والغني بغنائه ، لأن كل ذلك من فضل الله .

ومن العجائب ان تعجب بنفسك ولا تعجب بمن اليه الأمر كله وبجوده وفضله وكرمه وانعامه .

(الفصل الرابع)

فى أقسام العجب وتفصيل علاجه

اعلم ان الانسان قد يعجب بالأسباب التي بها يتكبر وعلاجه ما يأتي في التكبر ، وقد يعجب بما لا يتكبر به كعجبه بالرأي الخطأ الذي تزين له بجهله وفيما به العجب ثمانية أقسام :

(الأول) أن يعجب ببدنه فى جماله وهيئته وصحته وقوته وتناسب أشكاله وحسن صورته ، وعلاجه التفكر في اقذار باطنه وفي أول أمره وما اليه يكون ، وفي الوجوه الجميلة والأبدان الناعمة كيف تمزقت في التراب واستقذرها طباع اولي الألباب .

(الثاني) القوة والبطش ، كما حكى الله عن قوم قالوا « من أشد منا قوة » وعلاجه أن يعلم ان حمى يوم تضعف قوته ، وان البقة والذباب والشوكة تعجزه .

(الثالث) العجب بالعقل والفطنة لدقائق الأمور من مصالح الدين والدنيا

وعلاجه أن يشكر الله على ما رزقه من العقل ويتفكر انه بأدنى مرض يصيب دماغه كيف يختل عقله بحيث يصير مضحكة للناس .

(الرابع) العجب بالنسب الشريف كالهاشمي ، وعلاجه أن يعلم انه مهما خالف آباءه في أفعالهم وأخلاقهم وظن انه لحق بهم قد جهل ، ويحق ان يقال له :

لئن فخرت بآباء ذوي نسب   لقد صدقت ولكن بئسما ولدوا

(الخامس) العجب بنسب السلاطين والظلمة وأعوانهم دون نسب العلم والدين ، وعلاجه أن يتفكر في مخازيهم ومساويهم وانهم ممقوتون عند الله وقد استحقوا النار وبئس القرار .

(السادس) العجب بكثرة العدد من الخدم والغلمان والولد والأقارب والعشائر والأنصار ، كما قال الكافرون : « نحن أكثر أموالاً وأولاداً » والعلاج ان يتفكر في ضعفه وضعفهم ، وانهم كلهم عبيد وعجزة لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، وكيف يعجب بهم وسيدفن في قبره بعد نزول هادم اللذات ذليلاً مهيناً لا ينفعه ولد ولا أهل ولا صاحب ولا حميم ، ويهربون منه يوم يفر المرء من أخيه وامه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه .

(السابع) العجب بالمال ، كما قال من قال : « أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً » وعلاجه التفكر في آفات المال وغوائله وانه غادٍ ورائح لا أصل له ،

وما المال والأهلون الا وديعة   ولابـد يوماً أن ترد الودائع

والى أن في اليهود والكفار من هو أكثر منه مالاً ، فينبغي أن يكونوا أحسن منه .

(الثامن) العجب بالرأي الخطأ ، كما قال تعالى « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً » وقال تعالى : « وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً »

وعلاجه أن يكون متهماً لرأيه أبداً لا يغتر به الا أن يشهد له قاطع من كتاب الله وسنة نبيه (ص) ، وعرض ذلك على العلماء والعرفاء والصلحاء الماهرين •

الباب التاسع
فى التكبر

وهو الاسترواح والركون الى رؤية النفس فوق المتكبر عليه ، وهو من نتائج العجب وبذلك يفترق عنه ، فان العجب لا يستدعي معجباً عليه والتكبر يستدعي متكبراً عليه ، والكلام فيه في فصول :

(الأول)
فيما ورد فى ذمه

قال الله تعالى : « سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق » وقال تعالى : « كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار » وقال تعالى : « واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد » وقال تعالى : « ان الله لا يحب المتكبرين » •

وقال رسول الله (ص) : لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ، ولا يدخل النار رجل فى قلبه مثقال حبة من ايمان •

وقال (ص) يقول الله تعالى : الكبرياء ردائي والعظمة أزاري فمن نازعني واحداً منهما القيته في جهنم •

وفي الكافي عن الباقر عليه السلام قال : الكبر رداء الله ، والمتكبر ينازع الله رداءه •

وعنه عليه السلام : العز رداء الله ، والكبر رداءه فمن تناول شيئاً منهما أكبه الله في جهنم •

وعنه عن الصادق عليه السلام قال : لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر .

وعن محمد بن مسلم عن أحدهما قال : لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من الكبر . قال : فاسترجعت . فقال : مالك تسترجع ؟ قلت : لما سمعت منك . فقال : ليس حيث تذهب ، انما أعني الجحود ، انما هو الجحود .

وعن الصادق (ع) قال : الكبر ان تغمص الناس وتسفه الحق .

وعنه (ع) قال : قال رسول الله (ص) : ان أعظم الكبر غمص الخلق (١) وسفه الحق . قال : قلت ما غمص الخلق وسفه الحق ؟ قال : يجهل الحق ويطعن على أهله ، فمن فعل ذلك فقد نازع الله رداءه .

وعنه (ع) قال : ان في جهنم لوادياً للمتكبرين يقال له (سقر) شكى الى الله شدة حره وسأله أن يأذن له ان يتنفس ، فتنفس فأحرق جهنم .

وعنه (ع) قال : ان المتكبرين يجعلون في صور الذر يتواطئهم الناس حتى يفرغ الله من الحساب .

وعن عمر بن يزيد قال : قلت لأبي عبدالله (ع) انني آكل الطعام الطيب وأشم الرائحة الطيبة وأركب الدابة الفارهة ويتبعني الغلام ، فترى في هذا شيئاً من التجبر فلا أفعله ؟ فأطرق أبو عبدالله (ع) ثم قال : انما الجبار الملعون من غمص الناس وجهل الحق . قال : فقلت له : أما الحق فلا أجهله والغمص لا أدري ما هو . قال : من حقر الناس وتجبر عليهم فذلك الجبار .

وعنه (ع) قال : ما من أحد يتيه الا من ذلة يجدها في نفسه . وفي رواية اخرى : ما من أحد تكبر أو تجبر الا لذلة وجدها في نفسه .

وقال النبي (ص) : لا ينظر الله الى رجل يجر أزاره بطراً .

---

(١) غمص الناس : استحقرهم .

وقال (ص) : ما زاد الله عبداً يعفو الا عزاً ، وما تواضع أحد لله الا رفعه الله •

وعنه (ص) انه ليعجبني ان يحمل الرجل الشيء في يده فيكون مهنة لأهله يدفع به الكبر عن نفسه •

وعنه (ص) انه قال لأصحابه : مالي لا أرى عليكم حلاوة العبادة • قالوا : وما حلاوة العبادة ؟ قال : التواضع •

وعنه (ص) قال : اذا رأيتم المتواضعين من امتي فتواضعوا لهم ، واذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم ، فإن ذلك لهم مذلة وصغار •

وعن الكاظم (ع) قال : التواضع ان تعطي الناس ما تحب ان تعطاه •

(الفصل الثاني)

في أقسام التكبر

للتكبر أقسام تنطبق عليه الأخبار السابقة ، لأنه تارة يكون على الحق ، كما كان لنمرود ، فإنه كان يحدث نفسه بأن يقاتل رب السماء ، وكما كان لمن يدعي الربوبية مثل فرعون حيث قال : « أنا ربكم الأعلى » ، اذ تكبر عن العبودية لله ، قال تعالى : « ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين » • ومن هذا القسم التكبر عن الدعاء والتضرع الى الله تعالى •

وقد يكون على الخلق : إما على الأنبياء والرسل والأئمة من حيث تعزز النفس وترفعها عن الانقياد لبشر مثل سائر الناس ، كما حكى الله عن قوم قالوا : « أنؤمن لبشرين مثلنا » ، « وإن أنتم الا بشر مثلنا » ، « ولئن أطعتم بشراً مثلكم انكم اذاً لخاسرون » ، وكما تكبر ائمة الجور عن الانقياد والاطاعة لأئمة الحق •

وإما ان يكون على سائر الناس ، بأن يستعظم نفسه ويستحقر غيره ،

فاذا سمع الحق من عبد من عباد الله استنكف عن قبوله واشمأز وجحده .
ومن استعظم نفسه فقد اعتقد لها صفة من صفات الكمال ، وذلك يرجع الى كمال ديني أو دنيوي ، والديني هو العلم والعمل ، والدنيوي هو النسب والجمال والقوة والمال وكثرة الأنصار .

فإن كان تكبره بالعلم فعلاجه التفكر في أنَّ العلم قد دله على أن الكبر لا يليق الا بالله تعالى ، وانه اذا تكبر صار ممقوتاً عند الله تعالى ، وقد أحب الله منه ان يتواضع ، فلابد ان يكلف نفسه ما يحبه مولاه ، وليعلم ان حجة الله على أهل العلم اوكد . قال الصادق عليه السلام : يغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل ان يغفر للعالم ذنب واحد . فان رأى اعلم منه فلا معنى للتكبر عليه ، وان رأى مساويه فكذلك ، وان رأى ادون منه فليعلم ان الحجة عليه أتم ، وان المدار على الخاتمة .

وكذلك الكلام في العمل ، فاذا رأى انه اصلح وأورع واتقى من غيره تيقن ان المدار ليس على الأعمال بل على الخاتمة ، فيقول : لعل هذا ينجو واهلك انا ، ولعل لهذا خلق كريم فيما بينه وبين الله استحق به النجاة وانا بالعكس . ومن جوز أن يكون عند الله شقياً فهو في شغل شاغل عن التكبر .

ومن لم ينظر بعين الرضا الى أعماله ويعتقد ان الله لو عامله بالعدل لاستحق العقاب على حسناته بزعمه فضلاً عن سيئاته ، فما له سبيل الى التكبر ، كما قال سيد العابدين : الهي من كانت محاسنه مساوىء كيف لا تكون مساوئه مساوىء .

وقال تعالى : « والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة » أي يؤتون الطاعات وهم على وجل عظيم من قبولها .

وان كان تكبره بالنسب فهو تكبر بكمال غيره ، ولو كان المنتسب اليه حياً لكان له أن يقول : الفضل لي وانما أنت دودة خلقت من فضل فضلتي .

وليعلم نسبه الحقيقي ، فإن أباه القريب نطفة قذرة ، وجده البعيد تراب ذليل . وجعل : بدء خلق الانسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين .

وان كان كبره بالجمال فعلاجه النظر الى باطنه بعقله وفكره ليرى من الفضائح ما يكدر عليه التعزز بجماله ، فإن الاقذار في جميع أجزائه والرجيع في أمعائه والبول في مثانته والمخاط في أنفه والبصاق في فيه والوسخ في اذنه والدم في عروقه والصديد تحت بشرته والصنان تحت ابطه يغسل الغائط كل يوم دفعة أو دفعتين بيده ويتردد الى الخلاء كل يوم مرة أو مرتين ليخرج من باطنه ما لو رآه بعينه لاستقذره فضلاً أن يمسه أو يشمه .

وفي أول امره خلق من الأقذار الشنيعة وتصور من النطفة وتغذى من دم الحيض وخرج من مجرى البول الى الرحم مفيض دم الحيض ثم مجرى القذر ، ولو ترك نفسه في حياته يوماً لم يتعهده بالتنظيف والغسل لثارت منه . الانتان والأقذار ، وسيموت فيصير جيفة أقذر من سائر الأقذار .

وإن كان تكبره بالقوة فعلاجه التفكر فيما سلط عليه من العلل والأمراض وانه لو توجع عرق واحد من بدنه لصار أعجز من كل عاجز وأذل من كل ذليل ، وانه لو سلبه الذباب شيئاً لم يستنقذه منه ، ولو دخلت بقة في أنفه أو نملة في اذنه لقتلته ، ولو دخلت شوكة في رجله لأعجزته ، وان حمى يوم تحلل من قوته ما لا ينجبر في مدة . ثم ان اشتدت قوته فلا تزيد على قوة الحمار والفيل والجمل والبقر ، وأي افتخار في صفة تشركه البهائم فيها .

واما التكبر بالغنى وكثرة المال والاتباع فذلك تكبر بمعنى خارج من ذات الانسان لا كالجمال والقوة والعمل ، وهذا أقبح أنواع التكبر ، فأف لشرف تسبقه اليهود والنصارى وسائر الكفار ، وتف لشرف يأخذه السارق

والسلطان ·

هذا كله مضافاً الى ما سلط عليه من الأمراض العظيمة والاسقام الجسيمة والآفات المختلفة والطبائع المتضادة من المرة والبلغم والريح والدم ، ليهدم البعض من أجزائه البعض، شاء أم أبى، رضى أم سخط ، فيجوع كرهاً ويعطش كرهاً ويمرض كرهاً ويموت كرهاً ، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراء ولا خيراً ولا شراً ، يريد أن يعلم الشيء فيجهله ويريد أن يذكر الشيء فينساه ويريد أن ينسى الشيء ويغفل عنه فلا ينساه ، ويريد أن ينصرف قلبه الى ما يهمه فيجول في غيره فلا يملك قلبه ولا نفسه نفسه ، يشتهي الشيء وربما يكون هلاكه فيه ويكره الشيء ويكون حياته فيه ، يستلذ الأطعمة فتهلكه وترديه ، ويستبشع الأدوية وهي تنفعه وتحييه ، لا يأمن في لحظة من ليله أو نهاره ان يسلب سمعه وبصره وعلمه وقدرته ، وتفلج أعضاؤه ويختلس عقله وتختطف روحه ويسلب جميع ما يهواه في دنياه ، وهو مضطر ذليل ، ان ترك لم يبق وان اختطف يفنى ، عبد مملوك لا يقدر على شيء ·

فأين هو من التكبر والتجبر وهذا حاله بالفعل ، وقد كان نطفة قذرة وسيكون جيفة منتنة يستقذره كل انسان ويعود الى ما كان ، وليته ترك تراباً ، بل يحيى ويعاد ليقاسي الشدائد والآلام ، ويحاسب ويعاقب على ما سلف من الأيام ، ويخرج من قبره بعد جمع أجزائه المتفرقة ، ويخرج الى أهوال القيامة فينظر الى قيامة قائمة وسماء ممزقة مشققة وأرض مبدلة وجبال مسيرة ونجوم منكدرة وشمس منكسفة وأحوال مظلمة وملائكة غلاظ شداد وجحيم تزفر وجنة ينظر اليها المجرم فيتحسر ، ويرى صحائف منشورة كتب فيها ما نطق به وعمل من قليل وكثير ونقير وقطمير ، وقد أشار الله تعالى الى مبدأ أمر الانسان ومنتهاه وأواسط أحواله بقوله : « قتل الانسان ما أكفره · من أي شيء خلقه · من نطفة خلقه فقدره · ثم السبيل يسره · ثم أماته

فأقبره » .

هذا كله العلاج العلمي وأما العملي فهو التواضع بالفعل لله تعالى ولسائر الخلق بالمواظبة على أفعال المتواضعين وأخلاقهم ، فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله انه كان يأكل على الأرض ويقول : انما أنا عبد آكل كما يأكل العبد .

وقيل لسلمان : لِمَ لا تلبس ثوباً جديداً ؟ فقال : انما أنا عبد فاذا اعتقت يوماً لبست . أشار به الى العتق في الآخرة .

ولا يتم التواضع ــ بعد المعرفة ــ الا بالعمل ، ولذلك أمر العرب الذين تكبروا على الله ورسوله بالايمان والصلاة معاً . وفي الصلاة أسرار لأجلها كانت عمود الدين ، ومن جملة أسرارها المثول قائماً وراكعاً وساجداً ، وقد كانت العرب قديماً يأنفون من الانحناء ، فكان ربما يسقط من يد أحد سوطه فلا ينحني لأخذه ، وينقطع شراك نعله فلا ينكس رأسه لاصلاحه ، فلذلك أمروا بالركوع والسجود .

(الفصل الثالث)

في الميزان والمعيار الذي يعرف به الانسان نفسه هل هو متواضع أو متكبر

وإلا فقد يزعم الانسان انه متواضع وليس فيه كبر مع انه متكبر عند الله وقد ضل سعيه ، والامتحانات لذلك في الموازين ، وهي خمسة :

(الأول) ان يناظر في مسألة مع واحد من أقرانه ، فإن ظهر شيء من الحق على لسان صاحبه فثقل عليه قبوله والانقياد له والاعتراف به والشكر له على تنبيهه فذلك يدل على ان فيه كبراً وترفعاً ، فليتق الله وليشتغل بعلاجه بالعلم بخبث نفسه وخطر عاقبته ، والعمل بأن يكلف نفسه ما يثقل عليه من

الاعتراف بالحق واطلاق اللسان بالحمد والثناء ، ويقر على نفسه بالعجز ويشكره على الاستفادة •

(الثاني) أن يجتمع مع الأقران والأمثال في المحافل ويقدمهم على نفسه ويجلس فى الصدور تحتهم ، فإن ثقل ذلك عليه فهو متكبر ، فليواظب عليه تكلفاً حتى يسقط عنه ثقله ، وههنا للشيطان مكيدة ، وهي ان يجلس في صف النعال أو يجعل بينه وبين الأقران بعض الأرذال ، فيظن ان ذلك تواضع وهو عين الكبر ، فإن ذلك يخف على نفوس المتكبرين ، اذ يوهمون انهم انما تركوا مكانهم بالاستحقار والتفضيل ، فيكون قد تكبر وتكبر باظهار التواضع أيضاً •

(الثالث) ان يجيب دعوة الفقير ويمر الى السوق في حاجة الرفقاء والأقارب ، فإن ثقل ذلك عليه فهو كبر •

(الرابع) أن يحمل حاجة نفسه وحاجة أهله ورفقائه من السوق الى البيت ، فإن أبت نفسه ذلك فهو كبر ورياء •

(الخامس) ان لا يبالي بلبس الثياب البذلة ، فان نفور النفس من ذلك في الملأ رياء وفي الخلوة كبر • وفي هذه الثلاثة يشترط الاعتياد في الأزمنة والأمكنة والأشخاص •

واعلم ان المحمود من التواضع ان يتواضع في غير مذلة ومن غير تخاسس فإن كلا الطرفين مذموم وخير الأمور أوسطها ، فمن تقدم على أمثاله فهو متكبر ومن تأخر عنهم فهو متواضع، وأما اذا تواضع العالم للاسكاف وأجلسه مكانه وسوى نعله فهو ملق وتذلل وتخاسس •

الباب العاشر
في الدنيا والآخرة

وفيه فصول :

(الفصل الأول)

في معرفة الدنيا والآخرة

اعلم ان معرفة الدنيا والآخرة صعب شديد قد تحيّر فيه الفحول وتاه فيه اولو العقول : زعم قوم ان الدنيا عبارة عن المال ، والحال انه قد ورد مدحه في الكتاب والسنة كثيراً ، وقال (ص) : نعم العون على طاعة الله المال .

وزعم قوم ان الدنيا هي الحياة الدنيا ، مع انه بها يتوصل الى السعادات الأبدية ويتخلص من الشقاوة السرمدية ، وقد قال (ص) : نعم العون على الآخرة الدنيا .

وزعم آخرون ان الدنيا المذمومة عبارة عن المآكل اللذيذة والمطاعم الجيدة والثياب الفاخرة والديار العامرة والخدم والحشم والأصحاب والأعوان مع ان بعض الأنبياء والأولياء كانوا كذلك — كيوسف وسليمان — .

والتحقيق ان من كان مشغولاً بالعلم والعبادة والحج والجهاد والصدقات وأداء الزكوات وقضاء الحوائج وزيارة الاخوان وعيادة المرضى وتشييع الجنائز وحضور الجمعة والجماعة والمواظبة على النوافل وسائر الطاعات قد يكون في بحبحة الدنيا ، ويصدق عليه انه طالب الدنيا وانه ملعون وأعماله ملعونة مردودة غير مقبولة ، حيث لم يقصد بها وجه الله تعالى ، ورب رجل كثير المال والخدم والحشم حسن المطعم والمشرب جيد الزي والملبس ذي ديار

وسيعة وعمارات عالية ونساء جميلة ومراكب حسنة وسرر مرفوعة وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة ، وهو من أهل الآخرة وأعماله مقبولة وسعيه مشكور ، حيث قصد بجميع ذلك التوصل الى رضاء الله تعالى.

فحينئذ الدنيا عبارة عن كل شيء يوجب البعد عن الله وان كان صلاة وصوماً وحجاً وجهاداً وانفاقاً وزهداً وقناعة ، والآخرة كل شيء يوجب القرب من الله تعالى وان كان مالاً ونساءاً وخدماً وحشماً .

نعم في أغلب الأوقات وأكثر الاشخاص لا يتمكن الانسان من التقرب الى الله تعالى والاخلاص الا بترك المباحات فضلاً عن الشبهات والمحرمات ، ولذلك حثت الأنبياء الناس على ترك ما يوجب الميل الى الدنيا وان كان يمكن أن يتوصل به الى الآخرة ، لأن النفوس ضعيفة والشيطان قوي .

وبتقرير آخر نقول : الدنيا والآخرة عبارتان عن حالتين من أحوال قلبك، والقريب الداني منهما يسمى دنياً لدنوه ، وهو كل ما قبل الموت ، والمتراخي المتأخر يسمى آخرة ، وهو ما بعد الموت ، فكل مالك فيه حظ وغرض ونصيب وشهوة ولذة في عاجل الحال قبل الوفاة فهي الدنيا في حقك ، الا أن جميع مالك اليه ميل وفيه نصيب وحظ فليس بمذموم ، بل هو على ثلاثة أقسام :

(الأول) ما يصحبك في الدنيا ويبقى معك ثمرته بعد الموت ، وهو العلم بالله وصفاته وأفعاله ، وملائكته وكتبه ورسله وشرائعه وأحكامه والعمل الخالص لوجه الله ، وقد يلتذ الانسان في الدنيا بالعلم والعبادة ويكونان عنده ألذ الأشياء ، ولذلك قال (ص) : حبب الي من دنياكم ثلاث : الطيب ، والنساء وقرة عيني في الصلاة . فجعل الصلاة من جملة الدنيا لدخولها في عالم الحس والشهادة مع انها من أفضل القربات ، وهذا ونحوه وان اطلق عليه لفظ الدنيا لدنوه ولكنه من الدنيا الممدوحة التي هي العون على الآخرة لا المذمومة .

(الثاني) نقيض الأول ، وهو كل ما فيه حظ عاجل وليس له ثمرة في الآخرة ، كالتلذذ بالمعاصي بل المباحات الزائدة على قدر الضرورة والتنعم بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة ، وهذه هي الدنيا المذمومة .

(الثالث) وهو متوسط بين الطرفين ، وهو كل حظ عاجل معين على أعمال الآخرة ، وهو مالابد منه للانسان بحسب زيه وزمانه ومكانه من المأكول والملبوس والمشروب ، فاذا تناوله الانسان بقصد الاستعانة على العلم والعمل والطاعات والعبادات وحفظ الحياة وصيانة العرض ونحو ذلك مما أمر الشارع به في الشريعة المقدسة ، فليس من الدنيا المذمومة في شيء وان قصد به الترفه والتلذذ والتنعم ، أو استعان به على المعاصي فهو من الدنيا ، ولهذا ورد الحث على طلب الحلال وتحصيل المال للكفاف ، فقال النبي (ص) : العبادة سبعون جزءاً أفضلها طلب الحلال .

وقال (ص) : ملعون من ألقى كله على الناس .

وقال السجاد (ع) : الدنيا دنياءان : دنيا بلاغ ، ودنيا ملعونة .

وقال الباقر (ع) : من طلب الرزق فى الدنيا استعفافاً عن الناس وسعياً على أهله وتعطفاً على جاره لقى الله عز وجل ووجهه مثل القمر ليلة البدر .

وقال الصادق (ع) : الكاد على عياله كالمجاهد في سبيل الله .

وقال عليه السلام في رجل قال : لأقعدن في بيتي ولأصلين ولأصومن ولأعبدن ربي فأما رزقي فيسأتي قال : هذا أحد الثلاثة الذين لا يستجاب لهم .

وقال (ع) : ان الله ليحب الاغتراب في طلب الرزق .

وقال له رجل : والله انا لنطلب الدنيا ونحب ان نؤتاها . فقال : تحب أن تصنع بها ماذا ؟ قال : أعود بها على نفسي وعيالي وأصل بها وأتصدق بها وأحج واعتمر . فقال (ع) : ليس هذا طلب الدنيا هذا طلب الآخرة .

وقال (ع) : ليس منا من ترك دنياه لآخرته •

(الفصل الثاني)

فيما ورد في ذم الدنيا

قال رسول الله (ص) : الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر •

وقال (ص) : لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء •

وقال (ص) : الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها الا ما كان لله منها •

وقال (ص) : من أحب دنياه أضر بآخرته ، ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى •

وقال (ص) : حب الدنيا رأس كل خطيئة •

وقال (ص) : يا عجباً كل العجب للمصدق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور •

وقال (ص) : من أصبح والدنيا أكبر همه فليس من الله في شيء ، والزم الله قلبه أربع خصال : هماً لا ينقطع عنه أبداً ، وشغلاً لا يتفرغ منه أبداً ، وفقراً لا ينال غناه أبداً ، وأملاً لا يبلغ منتهاه أبداً •

وروي ان عيسى عليه السلام اشتد به المطر والرعد والبرق يوماً ، فجعل يطلب بيتاً يلجأ اليه ، فرفعت اليه خيمة من بعيد فأتاها فاذا فيها امرأة فحاد عنها ، فاذا هو بكهف في جبل فأتاه فاذا فيه أسد فوضع يده على رأسه وقال : إلهي جعلت لكل شيء مأوى ولم تجعل لي مأوى • فأوحى الله اليه : مأواك في مستقر من رحمتي لأزوجنك يوم القيامة ألف حوراء خلقتها بيدي ، ولأطعمن في عرسك أربعة آلاف عام يوم منها كعمر الدنيا ، ولآمرن منادياً ينادي : أين الزهاد في الدنيا زوروا عرس الزاهد عيسى بن مريم •

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : الدنيا دار من لا دار له ، ولها يجمع من لا عقل له .

وقال (ص) : مالي والدنيا ، انما مثلي ومثلها كمثل راكب رفعت له شجرة في يوم صائف فقال تحتها ثم راح وتركها .

وقيل لأمير المؤمنين (ع) : صف لنا الدنيا . فقال : وما أصف لك من دار من صح فيها ما امن ، ومن سقم فيها ندم ، ومن افتقر فيها حزن ، ومن استغنى فيها فتن ، في حلالها الحساب وفي حرامها العقاب .

وقال (ع) : انما هي ستة أشياء مطعوم ومشروب وملبوس ومركوب ومنكوح ومشموم : فأشرف المطعومات العسل وهو مذقة ذباب ، وأشرف المشروبات الماء يستوي فيه البر والفاجر ، وأشرف الملبوسات الحرير وهو نسج دودة ، وأشرف المركوبات الفرس وعليه يقتل الرجال ، وأشرف المنكوحات المرأة وهي مبال في مبال ، والله ان المرأة لتزين أحسن شيء منها ويراد أقبح شيء منها ، وأشرف المشمومات المسك وهو دم حيوان .

وقال الصادق (ع) : ما أعجب رسول الله لشيء من الدنيا الا ان يكون فيها جائعاً خائفاً .

وقال لقمان لابنه : يا بني بع دنياك بآخرتك تربحها جميعاً ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً .

(الفصل الثالث)

فيما ورد عن الأنبياء والاوصياء والحكماء في أمثلة الدنيا

كان الحسن بن علي عليه السلام يقول :

يا أهل لذات دنيا لا بقاء لها   ان اغترارا بظل زائل حمق

مثلها بالظل من حيث انه متحرك في الحقيقة ساكن في الظاهر ، ولا تدرك حركته بالبصر الظاهر بل بالبصيرة الباطنة ، وكذلك الدنيا .

ومثلها النبي (ص) من حيث الاغترار بخيالاتها والافلاس منها بقوله صلى الله عليه وآله : « الدنيا حلم وأهلها عليها مجازون معاقبون » ومن حيث تلطفها لأهلها أولاً واهلاكهم آخراً .

روي ان عيسى عليه السلام كوشف بالدنيا فرآها في صورة عجوز هتماء [1] عليها من كل زينة ، فقال لها : كم تزوجت ؟ قالت : لا احصيهم . قال : فكلهم مات عنك أو كلهم طلقك ؟ قالت : بل كلهم قتلت . فقال (ع) : بؤساً لأزواجك الباقين كيف لا يعتبرون بالماضين ، كيف تهلكينهم واحداً بعد واحد ولا يكونوا منك على حذر .

ومن حيث انها خلقت للاعتبار لا للعمار ورد فيها « انها جسر فاعبروها ولا تعمروها » .

وقال عيسى (ع) الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها . وذلك لأن الميل الأول الذي هو على رأس القنطرة المهد ، والميل الثاني اللحد ، وبينهما مسافة محدودة ، منهم من قطع ثلثها ونصفها وثلثيها ، ومنهم من لم يبق له الا خطوة واحدة ، وهذا محتمل لكل أحد .

ومن زينها بأنواع الزينة واتخذها موطناً وهو عابر عليها بسرعة فهو في غاية من الحمق والجهل .

ومن حيث حسن منظرها وقبح مخبرها قال فيها أمير المؤمنين (ع) فيما كتب الى سلمان : مثل الدنيا مثل الحية لين مسها ويقتل سمها ، فاعرض عما يعجبك منها لقلة ما يصحبك منها ، وضع عنك همومها لما ايقنت من فراقها ، وكن أسر ما تكون منها احذر ما تكون منها ، فان صاحبها كلما اطمأن بها الى سرور أشخصته عنه مكرهاً ـ والسلام .

ومن حيث تعذر الخلاص عن تبعاتها بعد الخوض فيها قال فيها النبي

(١) هي التي تكسرت ثناياها من أصلها واقلعت .

صلى الله عليه وآله : انما مثل صاحب الدنيا كمثل الماشي في الماء ، هل يستطيع الذي يمشي في الماء أن لا تبتل قدماه .

ومن حيث قلة الباقي منها بالاضافة الى الماضي قال (ص) : مثل هذه الدنيا مثل ثوب شق من أوله الى آخره فبقي متعلقاً بخيط فى آخره ، فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع .

ومن حيث أدائها الى اهلاك طالبها قال فيها عيسى (ع) : مثل طالب الدنيا مثل شارب البحر كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتى تقتله .

ومن حيث نسبتها الى الآخرة قال فيها النبي (ص) : ما الدنيا في الآخرة الا كمثل ما يجعل أحدكم اصبعه في اليم فلينظر بم يرجع اليه من الأصل .

وقال الكاظم (ع) ان لقمان قال لابنه : يا بني ان الدنيا بحر عميق قد غرق فيه عالم كثير ، فلتكن سفينتك فيها تقوى الله وحشوها الايمان وشراعها التوكل وقيمتها العقل ودليلها العلم وسكانها الصبر .

وقال الباقر (ع) : مثل الحريص على الدنيا كمثل دودة القز كلما ازدادت على نفسها لفاً كان أبعد لها من الخروج حتى تموت غماً .

ومن أحسن ما يمثل به حال الانسان في الدنيا بحال رجل يمشي في صحراء وسيعة ، فاذا بأسد عظيم ذي خلق جسيم مقبل عليه ليفترسه ، فبقى هذا الضعيف المهان متحيراً مدهوشاً لا يدري ما الحيلة وليس له سلاح يدفعه به ولا ملجأ يتحصن به ، فنظر الى بئر هناك فولج فيها خائفاً يترقب ، فمنذ وصل الى وسطها رأى حشيشاً نابتاً في وسطها على الحائط ، فتشبث به وهو يعلم انه لا يفيده ولكن الغريق يتشبث بالحشيش ، فنظر الى فوقه فرأى الأسد منتظراً لخروجه حتى يفترسه ، فنظر الى قعر البئر فرأى أفاعي أربعة فاتحة فاها لالتقامه بعد السقوط ، فبينما هو في هذه الأهوال الجسيمة والأحوال العظيمة لا يمكنه الصعود من الأسد والهبوط من الأفاعي والحشيش

لا يحتمله اذ قد خرج من الحائط جردان اسود وأبيض وشرعا يقترضان ذلك الحشيش آناً فآناً ، فبينما هو في هـذه الأحوال اذ رأى قليلاً من العسل ممزوجاً ببعض التراب القذر قد اجتمع عليه الزنابير والذباب ، فشرع في مخاصمتهم والأكل معهم وقد صرف جميع باله وخاطره الى ذلك العسل ونسي ما هو فيه من البلاء ، فهذا مثل الانسان في انهماكه بلذات الدنيا •

فالأسد هو الموت الذي لا محيص منه ولا مفر عنه « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة » ، والأفاعي الأربعة هي الأخلاط الأربع أيها غلب قتل الانسان ، والبئر هو الدنيا ، والحبل هو العمر ، والجرذان الليل والنهار يقرضان العمر ، والعسل المخلوط بقذر التراب لذات الدنيا الممزوجة بالكدورات ، والزنابير والذباب هم أبناء الدنيا المتزاحمون عليها •

الباب الحادي عشر

في المـال

اعلم انه قد ورد من الشرع مدح المال وذمه ، وقد تقدم من الأخبار ما يدل على مدحه ، وجميع ما دل على الحث على الحج والزكاة والخمس والتصدق والهبة والعطية والاحسان والانعام والاطعام مما لا يتم الا بالمال فهو مدح له ، وقد سماه الله تعالى خيراً في مواضع ، فقال تعالى : « ان ترك خيراً الوصية للوالدين » • وقال (ص) : نعم المال الصالح للرجل الصالح •

وورد ذمه أيضاً فقال تعالى : « انما أموالكم وأولادكم فتنة » وقال تعالى : « لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون » • وقال (ص) : حب المال والشرف ينبتان النفاق كما ينبت الماء البقل • ونحوه كثير •

والسر في ذلك ان المال ذو وجهتين : نافعة ، ومضرة • ومثاله مثال الحية

فيها سم وترياق ، ففوائدها ترياقها وغوائلها سمومها . والمال ان صرف في طاعة الله ومرضاته كان من الآخرة ، والا كان من الدنيا .

والمال فيه فوائد وغوائل ، من عرفها وأخذ الفوائد واجتنب عن الغوائل نجى .

وفوائد المال الدنيوية معلومة ولهذا تهالك أهل الدنيا عليها ، واما الدينية فهي ثلاثة أنواع :

(الأول) ما ينفقه على نفسه في عبادة أو الاستعانة عليها .

(والثاني) ما يصرفه الى الناس ، وهي أربعة أقسام : الصدقة ، والمروة ، ووقاية العرض ، واجرة الاستخدام :

اما الصدقة فقد حث الشارع عليها ورغب فيها بالثواب وقال انها تطفيء غضب الرب .

واما المروة وهي صرف المال الى الأغنياء والأشراف في ضيافة وهدية واعانة واطعام الطعام ، وهذا أيضاً مما رغب الشارع فيه ووعد عليه الثواب .

واما وقاية العرض وهو بذل المال لدفع هجو الشعراء وثلب السفهاء ودفع شر الأشرار ، فمع تنجز فائدته في الدنيا حث الشارع عليه أيضاً ، قال النبي (ص) : ما وقى المرء به عرضه فهو له صدقة .

واما الاستخدام في الأعمال التي اضطر اليها الانسان من المأكول والمشروب والملبس ونحوها فهو ضروري لولاه لتعذر عليه سبيل الآخرة ، ولو تولاها بنفسه لضاعت أوقاته وتعذر عليه الفكر والذكر .

(النوع الثالث) ما لا يصرفه الانسان الى انسان معين ولكن يحصل به خير عام ، كبناء المساجد والقناطر والرباطات ودار المرضى ونصب الحباب في الطرق وغير ذلك . هذا كله مضافاً الى ما يتعلق بالحظوظ العاجلة من الخلاص من ذل السؤال وحقارة الفقر ، ولكثرة الاخوان والأعوان والاصدقاء .

وأما الآفات فدينية ودنيوية ، أما الدينية فثلاثة أنواع :

(الأول) انه يجر الى المعاصي ، فان الشهوات متقاضية والعجز يحول بين المرء والمعصية ، ومن العصمة ان لا تقدر •

(الثاني) ان يجر الى التنعم في المباحات ، وربما لا يقدر على التوصل اليه بالكسب الحلال فيقتحم الشبهات ويخوض فى المراء والمداهنة والكذب والنفاق وسائر الأخلاق المردية لتحصيل مطلوبه ليتيسر له التنعم •

(الثالث) وهو الذي لا ينفك عنه أحد ، وهو انه يلهيه اصلاح ماله عن ذكر الله تعالى ، وكل ما يشغل العبد عن الله فهو خسران ، ولذلك قال عيسى عليه السلام : في المال ثلاث آفات ان يأخذه من غير حله • فقيل : ان أخذه من حله ؟ قال : يضعه في غير حقه • فقيل له : ان وضعه في حقه ؟ فقال : يشغله اصلاحه عن الله •

ومن أراد أن ينجو من غائلة المال فعليه بأمور :

(الأول) ان يعرف المقصود من المال ، وانه لماذا خلق ، وانه لِمَ يحتاج اليه حتى لا يكتسب ولا يحفظ الا قدر حاجته •

(الثاني) ان يراعي جهة دخل المال ، فيجتنب الحرام المحض وما الغالب عليه الحرام ، ويجتنب الجهات المكروهة القادحة في المروة •

(الثالث) ان يراعي جهة الخرج ويقتصد في الانفاق غير مبذر ولا مقتر ، قال تعالى : «والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً» •

(الرابع) ان يضع ما اكتسبه من حله في حقه ولا يضعه في غير حقه ، فان الاثم في الأخذ من غير حقه والوضع في غير حقه سواء •

(والخامس) ان يصلح نيته فى الأخذ والترك والانفاق والامساك ، فيأخذ ما يأخذ ليستعين به على العبادات والطاعات ، ويترك ما يترك زهداً فيه واستحقاراً له ، واذا فعل ذلك لم يضره وجود المال •

وقال أمير المؤمنين (ع) : لو أن رجلاً أخذ جميع ما في الأرض وأراد به وجه الله فهو زاهد ، ولو انه ترك الجميع ولم يرد وجه الله فليس بزاهد •

وقال (ع) : الزهد كله بين كلمتين من القرآن : «لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » ومن لم يأس على الماضي ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه •

الباب الثاني عشر
في الفقر

وقد ورد مدحه وذمه أيضاً ، وخلاصة الكلام فيه ان الفقر إما ان يكون الى الله فقط لا الى سواه ــ بأن يكون متعففاً عن الناس غنى النفس ــ هذا في أعلا مراتب الكمال ، وهو الذي قال فيه النبي (ص) : الفقر فخري • ومدح الله أهله بقوله : « يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف » •

وإما ان يكون الى الناس ، بأن يكون دائماً مظهراً للشكوى والحاجة متحملاً لذل السؤال والطمع بما في أيدي الناس فهو في أدنى مراتب النقص ، وهو الذي قال فيه (ص) : الفقر سواد الوجه في الدارين • لأن صاحبه يكون ممقوتاً عند الله وعند الناس ، وصاحبه يخسر الدنيا والآخرة •

وإما ان يكون الى الله مرة والى الناس أخرى ، وهو الذي قال فيه صلى الله عليه وآله : كاد الفقر أن يكون كفراً • لأنه شبيه بالشرك •

وينبغي للفقير أن يكون قانعاً منقطع الطمع عن الخلق غير ملتفت الى ما في أيديهم ، ولا حريصاً على اكتساب المال كيف كان ، ولا يمكنه ذلك الا بأن يقنع بقدر الكفاف ويقصر الأمل ، اذ لو كان حريصاً طماعاً لجره الحرص والطمع الى مساوىء الأخلاق وارتكاب المنكرات • قال (ص) : ما من أحد غني ولا فقير الا ودَّ يوم القيامة انه كان أوتي قوتاً في الدنيا •

وقال (ص) : يا معاشر الفقراء اعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم والا فلا .

وقال أمير المؤمنين (ع) : ابن آدم ان كنت تريد من الدنيا ما يكفيك فإن ايسر ما فيها يكفيك ، وان كنت تريد ما لا يكفيك فإن كل ما فيها لا يكفيك .

وقال الباقر (ع) : إياك ان تطمع بصرك الى من هو فوقك ، وكفى بما قال الله لنبيه (ص) : « ولا تعجبك أموالهم ولا أولادهم » . وقال : « ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا » فان دخلك من ذلك شيء فاذكر عيش رسول الله (ص) فانما كان قوته الشعير وحلواه التمر ووقوده السعف اذا وجد .

الباب الثالث عشر
فى الجـاه

وهو انتشار الصيت والاشتهار ، وحبه مذموم في القرآن والأخبار ، وهو آفة عظيمة في الدين ، والمحمود هو حب الخمول الا من شهره الله من غير تكلف طلب للشهرة .

قال الله تعالى : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين » .

وقال النبي (ص) : حب الجاه والمال ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل .

وقال (ص) : ما ذئبان ضاريان ارسلا في زريبة غنم بأكثر فساداً من حب الجاه والمال .

وقال (ع) انما هلك الناس باتباع الهوى وحب الثناء .

وقال أمير المؤمنين (ع) : تبذل لا تشهر ولا ترفع شخصك لتذكر بعلم ، واكتم واصمت تسلم تسر الأبرار وتغيظ الفجار .

وقال الصادق (ع) : اياكم وهؤلاء الرؤساء الذين يترأسون ، فوالله ما خفقت النعال خلف رجل الا هلك وأهلك .

وقال (ع) : ملعون من ترأس ، ملعون من همّ بها ، ملعون من حدث بها نفسه .

وقال (ع) : رب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره .

وتحقيق الكلام في الجاه في فصول :

(الفصل الأول)

في سبب حب الجاه

اعلم ان المال ملك الأعيان المنتفع بها ، ومعنى الجاه ملك القلوب المطلوبة تعظيمها وطاعتها ، والسبب في حب المال هو السبب في حب الجاه وزيادة ، لأن ملك القلوب يتبعه ملك الأعيان ، ويرجح الجاه على المال من وجوه ثلاثة :

(الأول) ان التوصل بالجاه الى المال أيسر من التوصل بالمال الى الجاه ، اذ العالم والعابد الذي يريد حصول الجاه في القلوب لو قصد اكتساب المال تيسر له ، فإن أموال أرباب القلوب مسخرة للقلوب ومبذولة لمن اعتقد فيه الكمال ، وأما الرجل الخسيس الذي لا يتصف بصفة كمال اذا وجد كنزاً ولم يكن له جاه يحفظ ماله وأراد أن يتوصل بالمال الى الجاه لم يتيسر له .

(الثاني) ان المال معرض للتلف بالغصب والسرقة والقلوب سالمة من ذلك ، وانما تغصب القلوب بقبح الحال وتغير الاعتقاد ، وذلك مما يهون دفعه .

(الثالث) ان ملك القلوب ينمو ويسري ويتزايد من غير حاجة الى تعب لأن القلوب اذا أذعنت لشخص واعتقدت كماله نطقت وانطلقت الألسنة لا محالة

بما فيها ، وانتشر ذلك في الأقطار والأمصار ، ولا يزال في زيادة اقتناص القلوب والنمو ، والمال لا يمكن استنماؤه الا بتعب شديد .

ولكن الجاه ليس بمذموم مطلقاً ، بل هو كالمال ممدوح من جهة ومذموم من اخرى ، وكما انه لابد للانسان من أدنى مال لضرورة المطعم والملبس فلابد له من أدنى جاه لضرورة المعيشة مع الخلق وكما يحتاج الانسان الى طعام يتناوله ويجوز أن يحب الطعام والمال الذي يباع به الطعام ، وكذلك لا يخلو عن الحاجة الى خادم يخدمه ورفيق يعينه وسلطان يحرسه ويدفع عنه ظلم الأشرار ، فحبه لأن يكون له في قلب خادمه من المحل ما يدعوه الى الخدمة ليس بمذموم ، وكذا حبه لأن يكون له في قلب رفيقه من المحل ما يحسن به مرافقته ومعاونته ، وكذا حبه لأن يكون له في قلب استاده من المحل ما يحسن به ارشاده وتعليمه والعناية به ، وان يكون له من المحل في قلب السلطان ما يحثه على دفع الشر عنه ، فإن الجاه وسيلة الى الأغراض كالمال .

(الفصل الثاني)

فى علاج حب الجاه

اعلم ان من غلب على قلبه حب الجاه صار مقصور الهم على مراعاة الخلق مشغوفاً بالتودد اليهم ، وابتلى بالرياء والسمعة والنفاق والمداهنة والتساهل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونحو ذلك ، وعلاجه العلم والعمل :

(اما العلم) ان يعلم ان السبب الذي لأجله أحب الجاه — وهو كمال القدرة على أشخاص الناس وعلى قلوبهم — ان صفا وسلم فأخره الموت ولا ينفعه في الآخرة لو لم يضره ، ولو سجد له كل من على وجه الأرض فعن قريب لا يبقى الساجد ولا المسجود له ، ويكون حاله كحال من مات قبله من ذوي الجاه مع المتواضعين له ، ولمثل هذا لا ينبغي أن يترك الدين الذي هو

الحياة الأبدية التي لا انقطاع لها .

والكمال الحقيقي الذي يقرب صاحبه من الله ويبقى كمالاً للنفس بعد الموت ليس الا العلم بالله وبصفاته وأفعاله ، ثم الحرية وهي الخلاص من اسر الشهوات . هذا هو الكمال الباقي بعد الموت والباقيات الصالحات التي تبقى كمالاً للنفس .

والمال والجاه هو الذي ينقضي سريعاً ، وهو كما مثله الله تعالى : « انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض » ، وكلما تذروه الرياح بالموت فهو زهرة الحياة الدنيا وكلما لا يقطعه الموت فهو من الباقيات الصالحات .

فمن عرف الكمال الحقيقي صغر الجاه في عينه ، الا أن ذلك انما يصغر في عين من ينظر الى الآخرة كأنه يشاهدها ، ويستحقر العاجلة ويكون الموت كالحاصل عنده .

وابصار أكثر الخلق ضعيفة تؤثر الدنيا على الآخرة ، كما قال تعالى : « بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى » وقال تعالى « بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة » .

ومن كان كذلك فينبغي له العلاج بالعلم بالآفات العاجلة لصاحب الجاه ، فإن صاحب الجاه مخاطر على نفسه وماله ، ومحسود مقصود بالايذاء ، مبتلى بالناس خص بالبلاء ، من عرفته الناس يقاسي الشدائد العظيمة ، ولأجلها يتمنى الخمول .

ولا يزال ذو الجاه خائفاً على جاهه ومحترزاً من زوال منزلته عن القلوب والقلوب أشد تغيراً من القدر في غليانه ، وهي مرددة بين الاقبال والاعراض، وما يبنى على قلوب الخلق يضاهي ما يبنى على أمواج البحر ، فإنه لا ثبات له .

والاشتغال بمراعاة القلوب وحفظ الجاه ودفع كيد الحساد ومنع أذى

الأعداء اشتغال عن الله وتعرض لمقته في العاجل والآجل • وجميع ذلك غموم عاجلة مكدرة للذة الجاه الموهومة فضلاً عما يفوت في الآخرة • هذا هو العلاج العلمي •

(وأما العملي) فاسقاط الجاه عن قلوب الخلق بالأنس بالخمول والقناعة بالقبول من الخالق والاعتزال عن الناس والهجرة الى مواضع الخمول ، فإن المعتزل في بيته في البلدة التي هو بها مشهور لا يخلو عن حب المنزلة التي ترسخ له في القلوب بسبب عزلته ، ومن قنع استغنى عن الناس واقطع طمعه عنهم ، واذا استغنى عنهم لم يكن لقيام منزلته في قلوبهم عنده وزن ، ويستعين على ذلك بالأخبار الواردة في ذم الجاه ومدح الخمول •

(الفصل الثالث)

فى حب المدح والثناء

وسببه شعور النفس بالكمال والدلالة على ان الممدوح قد ملك قلب المادح وسخره ، وملك القلوب أحب من ملك الأموال — كما تقدم •

ولهذين السببين يكره الذم ويتألم به القلب ، والسبب الثالث ان ثناء المثني ومدح المادح سبب لاصطياد قلب كل من يسمعه ، لا سيما اذا كان ذلك ممن يلتفت الى قوله ويعتد بشأنه ، وهذا يختص بثناء يقع على الملأ •

والرابع من المدح يدل على حشمة الممدوح واضطرار المادح الى اطلاق اللسان بالثناء عليه إما طوعاً أو قهراً ، والحشمة أيضاً لذيذة لما فيها من القهر والقدرة ، وقد تجتمع هذه الأسباب فيعظم الالتذاذ ويندفع استشعار الكمال بأن يعلم الممدوح انه غير صادق في مدحه ، فإن كان يعلم ان المادح ليس يعتقد ما يقوله بطلت اللذة الثابتة — وهو استيلاؤه على قلبه — وبقيت لذة الاستيلاء بالحشمة •

وحب المدح والثناء كحب الجاه حرمة واباحة ونفعاً وضراً ، وعلاجه علاجه ، وعلمه بأن الصفة الممدوح بها انفقدت فاستهزاء وان وجدت فالدنيوية كمال وهي والدينية موقوفة على الخاتمة •

وعلاج كراهة الذم العلم بأن الصفة المذموم بها ان وجدت فتبصير للعيوب ، وفيه الفرح والشغل بالازالة ، وان فقدت فكفارة للذنوب وفيه الشكر لله والترحم للذام حيث اهلك نفسه ، كما قال النبي (ص) لما كسروا رباعيته : اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون •

والانسان يفرح ممن يذم عدوه وهو عدو نفسه ، فينبغي ان يفرح اذا سمع ذمها ويشكر الذام عليها ويعتقد ذكاءه وفطنته لما وقف على عيوبها ، فيكون ذلك كالتشفي له من نفسه ويكون غنيمة عنده اذ صار بالمذمة أوضع في أعين الناس حتى لا يبتلى بفتنة الجاه ، واذا سبقت اليه حسنات لم يتعب فيها فعساه يكون جبراً لعيوبه التي هو عاجز عن إماطتها •

ولو جاهد نفسه طول عمره في هذه الخصلة الواحدة — وهي ان يستوي عنده ذامه ومادحه — لكان له شغل شاغل فيه لا يتفرغ معه لغيره •

وبينه وبين السعادة عقبات كثيرة هذه احدى تلك العقبات ، ولا يقطع شيء منها الا بالمجاهدة الشديدة في العمر الطويل •

الباب الرابع عشر

فى الغرور

وفيه فصول :

(الفصل الأول)

فى حقيقته وذمه

اعلم ان مفتاح السعادة التيقظ والفطنة ، ومنبع الشقاوة الغرور والغفلة، والغرور هو سكون النفس الى ما يوافق الهوى ويميل اليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان ، فمن اعتقد انه على خير إما في العاجل أو في الآجل عن شبهة فاسدة فهو مغرور ، قال الله تعالى : « لا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور » : وقال تعالى : « ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور » .

وقال النبي (ص) : حبذا نوم الأكياس وفطرهم كيف يغبنون سهر الحمقى واجتهادهم ، ولمثقال ذرة من صاحب التقوى ويقين أفضل من ملأ الأرض من المغترين .

وكلما ورد في فضل العلم وذم الجهل فهو دليل ذم الغرور ، لأن الغرور نوع من الجهل ، والذين غرتهم الحياة الدنيا بعض الكفار والعصاة الذين آثروا الحياة الدنيا على الآخرة قائلين : ان الدنيا نقد والآخرة نسيئة والنقد خير من النسيئة ، ولذات الدنيا يقين والآخرة شك واليقين خير من الشك .

وهذا عين الجهل ، لأن الدنيا لو كان ذهباً فانياً والآخرة خزفاً باقياً لكان الخزف الباقي خيراً من الذهب الفاني ، فكيف والدنيا خزف فانٍ والآخرة ذهب باقٍ ، كما قال تعالى : « ما عندكم ينفد وما عند الله باقٍ » وقال تعالى : « وللآخرة خير وأبقى » وقال تعالى : « وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور » .

وكون النقد خيراً من النسيئة مطلقاً ممنوع ، فان النسيئة العظيمة الكثيرة خير من النقد القليل الحقير ، وفعل هذا المغرور حجة عليه ، فإنه يعطى خمسة دراهم نقداً ليأخذ عشرة نسيئة ، ويترك لذائذ الأطعمة بتحذير الطبيب نقداً خوفاً من ألم المرض النسيئة ، ويتحمل المشاق والأسفار وقطع البحار نقداً لتوهم النفع نسيئة ، وكذا التاجر في سعيه وتصديعه على يقين وفي ربحه على شك ، وكذا المتفقه في اجتهاده شك وفي تعبه يقين ، والمريض من مرارة الدواء على يقين ومن الشفاء على شك ، فكون اليقين خيراً من الشك مطلقاً ممنوع ، بل اذا كان مثله فالذي له شك في الآخرة يجب عليه بحكم الحزم أن يقول : الصبر أياماً قلائل في هذا العمر القصير قليل بالاضافة الى ما يقال من أمر الآخرة ، فإن كان ما يقال في الآخرة كذباً فما فاتني الا نعم حقيرة فانية ، وان كان صدقاً خلدت في النار أبد الآبدين ، وهذا لا يطاق .

هذا كله مع قطع النظر عن كون الآخرة يقين يحكم بها العقل السليم والفهم المستقيم ، واخبر بها الأنبياء والمرسلون والأولياء والصالحون .

وأما الغرور بالله فمثل قول بعضهم : فان كان لله معاد فنحن أحق به من غيرنا واوفر حظاً وأسعد حالاً ، كما أخبر الله تعالى من قول الرجلين المتحاورين . اذ قال : « وما اظن الساعة قائمة ولئن رددت الى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً » .

وذلك لأنهم تارة ينظرون الى نعم الله عليهم في الدنيا فيقيسون عليها

نعم الآخرة ، وينظرون الى تأخير الله العذاب عنهم ، فيقيسون عليه عذاب الآخرة ، كما قال تعالى : « ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول » •

وينظرون تارة الى المؤمنين وهم فقراء شعث غبر ، فيقولون : « أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا » ويقولون : « لو كان خيراً ما سبقونا اليـه » ، ويقولون : قد أحسن الله الينا بنعيم الدنيا ، وكل محسن محب ، والمحب يحسن في المستقبل أيضاً ، ولم يعلموا أن نعيم الدنيا ولذاتها والاستدراج فيها يدل على الهوان ، وان هذه اللذات سموم قاتلات ، وان الله يحمي المؤمن من الدنيا كما يحمي الطبيب المريض عن الطعام •

ولو كانت الدنيا لها قدر عند الله لما سقى الكافر منها شربة ماء ، وقال تعالى : « أيحسبون انما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون » وقال تعالى : « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون » وقال تعالى : « فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون » •

ومنشأ هذا الغرور الجهل بالله وصفاته ، فإن من عرفه لا يأمن مكره ولا يغتر به بأمثال هذه الخيالات ، وينظر الى فرعون وقارون والى ملوك الأرض كيف أحسن الله اليهم ثم دمرهم تدميراً « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » ، « ولا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون » •

(الفصل الثاني)

فى بيان فرق المغترين وجهات غرورهم

وهم كثيرون وجهات غرورهم مختلفة :

(فمنهم) عصاة المؤمنين ، يقولون ان الله كريم رحيم ونرجو رحمته وكرمه ، وان رحمتي وسعت كل شيء ، وأين معاصي العباد من رحمته ، والرجاء مقام

محمود • ووجه غرورهم ما يأتي انشاء الله تعالى في الرجاء من ان هذا تمنى على الله وغرّة به ، فان من رجى شيئاً طلبه ومن خاف شيئاً هرب منه ، وكما ان الذي يرجو ولداً ولم يتزوج أو تزوج ولم يجامع أو جامع ولم ينزل فهو أحمق ، فكذا من رجى رحمة ربه ولم يعمل الصالحات ولم يترك السيئات ، وقد قال تعالى : « ان رحمة الله قريب من المحسنين » وقال تعالى : « ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله اولئك يرجون رحمة الله » يعني ان الرجاء انما يليق بمثلهم •

(ومنهم) العلوية والهاشمية ، حيث اغتروا بالنسب وصلاح الآباء وعلو رتبتهم ، وغفلوا عن كونهم مخالفين سيرة آبائهم في التقوى والورع ، وأنهم ليسوا باكرم على الله من آبائهم ، وآباؤهم مع غاية التقوى والورع كانوا خائفين باكين ، وهم مع غاية المعاصي والمساوي قد أصبحوا راجين آمنين • وربما سول الشيطان لهم ان انساناً اذا أحب احداً أحب أولاده تبعاً ، وان الله يحب آباءكم فهو يحبكم تبعاً ، فلا يحتاج في بذل الجهد في الطاعات وترك المعاصي • وغفلوا عن انه ليس بين الله وبين أحد قرابة ، وان الله انما يحب المطيع ويبغض العاصي ، وقد قال نوح : رب ن ابني من اهلي فقال تعالى : « انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح » وان ابراهيم استغفر لأبيه فلم ينفعه ذلك •

ومن ظن انه ينجو بتقوى أبيه فهو كمن ظن انه يشبع بأكل أبيه ويروى بشرب أبيه ويصير عالماً بعلم أبيه ، ويصل الى الكعبة ويراها بمسعى أبيه •

(فصـــل)

في غرور أهل العلم

وهم فرق : فمنهم من أحكم العلوم العقلية والشرعية وتعمق فيها وغفل عن تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصي وإلزامها الطاعات ، وغفل عن ان العلم اذا لم يعمل به كان وزراً ووبالاً ولم يزدد من الله الا بعداً ، وان العلم بهتف بالعمل فإن أجابه والا ارتحل ، وان أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه •

(ومنهم) من أحكم العلم والعمل وواظب على الطاعات وترك المعاصي الظاهرة من الجوارح واهمل تفقد الرئيس ليمحوا عنه المعاصي المهلكة والسموم القاتلة التي تفوت حياة الأبد ، كالحسد والرياء والحقد والكبر والعجب وحب الجاه ونحوها ، وربما لم يعرف حقائق هذه الأمور وأقسامها فضلاً عن علاجها ومعالجتها ، وقد أكب على الفضول وترك الفرض ، وهو لم يتصف بحقيقة الانسانية ، ويظن انه قد بلغ من العلم مبلغاً لا يعذب الله مثله ، بل يقبل في الخلق شفاعته وانه لا يطالبه بذنوبه لكرامته عند الله •

(ومنهم) من علموا هذه الأخلاق الباطنة وعلموا آفاتها وكيفياتها الا انهم للعجب بأنفسهم يظنون انهم منفكون عن الأخلاق المذمومة ، وانهم ارفع عند الله من أن يبتليهم بها وانما يبتلى بها العوام ، ثم اذا ظهر على أحدهم مخايل الكبر والرئاسة وطلب العلو والشرف قال : ما هذا كبر وانما هذا طلب عز الدين واظهار شرف العلم ونصرة دين الله وارغام أنف المخالفين • ومهما انطلق اللسان بالحسد في أقرانه وفي من رد عليه شيئاً من كلامه لم يظن بنفسه ان ذلك حسد ، ولكن قال : انما هـذا غضب للحق ورد على المبطل في عداوته وظلمه •

ثم لو طعن عليه غيره من أهل العلم لم يكن غضبه مثل غضبه الآن بل ربما يفرح به ، واذا خطر له خاطر الرياء قال : هيهات انما غرضي من اظهار العلم والعمل اقتداء الخلق بي ليهتدوا الى دين الله ويتخلصوا من عقاب الله .

ولا يتأمل المغرور انه ليس يفرح باقتداء الناس بغيره كما يفرح باقتدائهم به ، فلو كان غرضه صلاح الخلق لفرح بصلاحهم على يد من كان .

وربما يتذكر هذا المعنى فلا يخليه الشيطان أيضاً ، بل يقول : انما ذاك لأنهم اذا اهتدوا بي كان الأجر والثواب لي ، وانما فرحي بثواب الله لا بقول الخلق .

هذا ما يظنه بنفسه والله مطلع على سريرته ، وقد زين له سوء عمله فرآه حسناً وضل سعيه في الحياة الدنيا وهو يحسب انه يحسن صنعاً .

(ومنهم) قوم اقتصروا على علم الفتاوى والحكومات والخصومات وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لمصالح المعائش ، وصرفوا أعمارهم في معرفة دقائق السلم والاجارة والظهار واللعان والجراحات والدعاوي والبينات والحيض والاستحاضة ، وضيعوا الأعمال الظاهرة والباطنة ، ولم يتفقدوا الجوارح ولم يحرصوا اللسان عن الغيبة ولا البطن عن الحرام ولا الرجل عن المشي الى السلاطين ، ولم يعالجوا أمراض قلوبهم بالكبر والرياء والحقد والعجب والحسد وسائر المهلكات مما هو من الواجبات العينية ، واشتغل بفرض الكفاية والاشتغال بالكفائي قبل الفراغ من العيني معصية .

ومثالهم مثال من به علة البواسير والبرسام ، وهو مشرف على الهلاك محتاج الى تعلم الدواء واستعماله ، فاشتغل بتعليم دواء الاستحاضة وبتكرار ذلك ليلاً ونهاراً مع علمه بأنه رجل لا يحيض ولا يستحيض ، ولكن يقول : ربما وقعت الاستحاضة أو الحيض لامرأة تسألني . وذلك غاية الغرور . وكذلك المتفقه المسكين الذي تسلط عليه حب الدنيا واتباع الشهوات والحسد

والكبر والرياء وسائر المهلكات الباطنة ، وربما يختطفه الموت قبل التوبة والتلافي فيلقى الله وهو عليه غضبان •

(ومنهم) من اشتغل بعلم الكلام والمجادلة في الأهواء والرد على المخالفين وتتبع مناقضاتهم ، واعتقدوا أنه لا يكون للعبد عمل الا بالايمان ولا يصلح الايمان الا بأن يتعلم جدلهم وما يسمونه أدلة عقائدهم ، وظنوا أنه لا أحد أعرف بالله وصفاته منهم ، وانه لا ايمان لمن لا يعتقد مذهبهم ولم يتعلم علمهم ، ودعى كل فرقة منهم الى نفسه ، وهم فرق كثيرة يكفر بعضهم بعضاً ويلعن بعضهم بعضاً ، فيهم الأشاعرة والمعتزلة والخوارج والنواصب ، وهؤلاء مغرورون •

أما الفرقة الضالة منهم فلغفلتها عن ضلالها وظنها بنفسها النجاة ، وأما الفرقة المحقة فانما اغترارها من حيث انها ظنت ان الجدل أهم الأمور وأفضل القربات ، وقد ورد في الحديث النبوي : ما ضل قوم قط بعد هدى الا أوتوا الجدال وحرموا العمل •

(ومنهم) من اشتغل بالوعظ ، وأعلاهم رتبة من يتكلم في أخلاق النفس وصفات القلب من الخوف والرجاء والصبر والشكر والتوكل والزهد واليقين والاخلاص والصدق ونظائرها ، ويظن بنفسه انه اذا تكلم بهذه الصفات ودعى الخلق اليها صار موصوفاً بها ، وهو منفك عنها عند الله الا عن قدر يسير لا ينفك عنه عوام المسلمين ، والاكياس يمتحنون أنفسهم في هذه الصفات ويطالبونها بالحقيقة ، ولا يقنعون منها بالتزويق •

(ومنهم) من قنع بحفظ كلام الزهاد وأحاديثهم ، فهو حافظ للكلمات جاهل بالمعاني غير متصف بما يقول •

(ومنهم) من استغرق أوقاته في علم الحديث وسماعه وطلب الأسانيد الغريبة العالية ، وغفل عن التدبر في دقائق معانيه •

(ومنهم) لم يغفل عن ذلك الا انه غفل عما هو أهم منه كما تقدم .

(ومنهم) من اشتغل بعلم النحو واللغة والشعر وغريب اللغة ، زاعماً انه من علماء الأمة المغفور لهم ، اذ قوام الدين بالكتاب والسنة وقوام الكتاب والسنة بعلم اللغة والنحو ، فأفنى هؤلاء أعمارهم في دقائق العربية وغريب اللغة ، ومثالهم كمن يفنى عمره في تعلم الخط وتصحيح الحروف وتحسينها ويزعم ان العلوم لا يمكن حفظها الا بالكتابة فلابد من تعلمها ، ولو عقل لعلم انه يكفيه أصل الخط بحيث يمكن ان يقرأ كيفما كان والباقي زائد على الكفاية . بل مثالهم مثال من ضيع العمر في تصحيح مخارج الحروف في القرآن واقتصر عليه ، وهو غرور اذ المقصود من الحروف المعاني .

(فصـــل)

في غرور أرباب العبادة والعمل

(فمنهم) فرقة اهملوا الفرائض واشتغلوا بالفضائل والنوافل ، وربما تعمقوا بالفضائل حتى خرجوا الى العدوان والسرف ، كالذي يغلب عليه الوسوسة في الوضوء فيبالغ فيه ولا يرتضي الماء المحكوم بطهارته في فتوى الشرع ، ويقدر الاحتمالات البعيدة في النجاسة قريبة ، واذا آل الأمر الى أكل الحلال قدر الاحتمالات القريبة بعيدة ، وقد يطول الأمر في وسواسه في الوضوء والتطهير حتى تضيع الصلاة ويخرجها عن وقتها .

(ومنهم) من غلب عليه الوسوسة في نية الصلاة ، فتفوته الجماعة ويخرج الوقت ، وان كبر ففي قلبه تردد في صحة نيته ، ويفوته الحضور والخضوع والخشوع .

(ومنهم) من يغلب عليه الوسوسة في اخراج الحروف فلا يزال يعالجها حتى يذهل عن معاني القرآن .

(ومنهم) من اغتر بقراءة القرآن فيهذه هذاً ، وربما يختم في اليوم والليلة مرة ولسانه يجري به وقلبه يتردد في أودية الأماني ، والله تعالى يقول : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله » وقلبه لا يخشى ، ولو قرأ قليلاً مع تدبر وتفكر وآداب لكان خيراً من الكثير بدونه.

(ومنهم) من اغتر بالمواظبة على الصوم ، وعنى نفسه بالجوع والعطش ولم يحفظ لسانه من الغيبة وقلبه من الصفات الخبيثة ، فقد اهمل الفرض وطلب النفل .

(ومنهم) من اغتر بالحج وزيارات المشاهد ، فيخرج الى الحج والزيارة من غير خروج عن المظالم وقضاء الديون وطلب الزاد الحلال ، ويضيع في الطريق الصلاة ، ويعجز عن طهارة الثوب والبدن .

(ومنهم) من يتقلد امامة مسجد أو أذانه ويظن انه على خير ، ولو أمّ غيره أو أذّن في وقت غيبته قامت عليه القيامة ولو كان أورع منه وأعلم .

(ومنهم) من يأمر الناس بالمعروف وينهى عن المنكر وينسى نفسه ، واذا أمر عنف وطلب الرئاسة والعز ، واذا رُدَّ عليه اذا باشر منكراً غضب وقال : انا المحتسب فكيف ينكر علي ، وانما غرضه الرئاسة .

(ومنهم) من جاور في الحرمين أو المشاهد واغتر بذلك ولم يطهر ظاهره وباطنه من الآثام والخبائث ، ولم يزل قلبه وعيناه ممتدة الى أوساخ أموال الناس ، وغفل عن ان مجاورته لحب الحمد ، ولولم يعلم أحد بمجاورته لما هانت عليه المجاورة .

(ومنهم) من تزهد في المأكل والملبس والمسكن وظن انه من الزاهدين في الدنيا ، والله يعلم منه الرغبة في الرئاسة والجاه والمنزلة في قلوب الناس الذي هو أعظم لذات الدنيا .

(ومنهم) من يحرص على التغافل لصلاة الليل وسائر الرواتب ولا يجد

للفريضة لذة ولا يشتد حرصه على المبادرة اليها في أول الوقت .

(ومنهم) من أشار اليهم بعض العارفين : قوم تسموا بأهل الذكر والتصوف والمسمون يدعون البراءة من التصنع والتكلف ، يلبسون خرقاً ويجلسون حلقاً ، يخترعون الأذكار ويتغنون بالأشعار ويعلنون بالتهليل وليس لهم الى العلم والمعرفة سبيل ، ابتدعوا شهيقاً ونهيقاً واخترعوا رقصاً وتصفيقاً، قد خاضوا الفتن وأخذوا بالبدع دون السنن ، رفعوا أصواتهم بالنداء وصاحوا الصيحة الشنعاء .

(ومنهم) من يدعي علم المعرفة ومشاهدة المعبود ومجاورة المقام المحمود والملازمة في عين الشهود ، ولا يعرف من هذه الأمور الا الأسماء ، ولكنه تلقف من الطامات كلمات يرددها لدى الأغبياء كأنه يتكلم عن الوحي أو يخبر عن السماء ، ينظر الى أصناف العباد والعلماء بعين الازدراء يقول في العباد انهم اجراء متعبون وفي العلماء انهم بالحديث عن الله لمحجوبون ، ويدعي لنفسه من الكرامات ما لا يدعيه ملك مقرب ، لا علماً أحكم ولا عملاً هذّب ، يأتي اليه الرعاع الهمج من كل فج أكثر من اتيانهم مكة للحج ، يزدحم اليه الجمع ويلقون اليه السمع ، وربما يخرون له سجوداً كأنهم اتخذوا معبوداً ، يقبلون يديه ويتهافتون على قدميه ، يأذن لهم في الشهوات ويرخص لهم في الشبهات ، يأكل ويأكلون كما تأكل الانعام ولا يبالون من حلال أصابوا أم من حرام ، وهو لحلوائهم هاضم ولدينه وأديانهم حاطم ، ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم الا ساء ما يزرون .

(فصـــل)

فى غرور أرباب الأموال

(فمنهم) من يحرص على بناء المساجد والمدارس والرباطات والقناطر وما يظهر للناس كافة ويكتبون أسماءهم بالآجر عليها ليتخلد ذكرهم ويبقى بعد الموت أثرهم ، ويظنون انهم قد استحقوا المغفرة وهم مغرورون لوجهين :

(أحدهما) انهم اكتسبوها من الشبهات ان خلصوا من الحرام .

(والثاني) ان الرياء قد غلب عليهم ، اذ لو كلف أحدهم ان ينفق ديناراً ولا يكتب اسمه على الموضع أو لا يعرف لم تسمح نفسه بذلك والله مطلع عليه كتب اسمه أو لم يكتب ، فلولا انه يريد وجه الناس لا وجه الله لما افتقر الى ذلك ، وربما يكون في جوار أحدهم أو في بلده فقير وصرف المال اليه أهم من الصرف الى المساجد وزينتها .

(ومنهم) من ينفق الأموال في الصدقات وعلى الفقراء والمساكين ولكن يطلب به المحافل الجامعة ومن الفقراء من عادته الشكر والافشاء للمعروف ، ويكرهون التصدق في السر أو صرفه الى غير أولئك او الى غير أصدقائهم والمترددين اليهم مع كونهم أهم . وبعضهم يرى اخفاء الفقير لما أخذ منه جناية عظيمة وكفراناً .

(ومنهم) من يحرص على انفاق ماله في الحج والزيارات ، وربما يتركون أرحامهم وجيرانهم جائعين .

(ومنهم) من يحفظ ماله ويمسكه بحكم البخل ثم يشتغل بالعبادات البدنية التي لا يحتاج فيها الى نفقة كصيام النهار وقيام الليل وختم القرآن وهو يظن انه على خير لأن البخل المهلك قد استولى على باطنه ، وهم أحوج الى قمعه باخراج المال من طلب الفضائل . ومثالهم مثال من دخل في ثوبه

حية وقد أشرف على الهلاك وهو مشغول بصنع المبردات ليسكن به الصفراء .

(ومنهم) من غلب عليه البخل ، فلا تسمح نفسه الا بأداء الزكاة فقط ثم يخرجها من المال الخبيث الرديء الذي يرغب عنه ، ويخص بها من الفقراء من يخدمه ويتردد في حوائجه ويظن انه أداها لله .

وأصناف الغرور لا تحصى فليتحذر منها . وفي مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام : المغرور في الدنيا مسكين وفي الآخرة مغبون ، لأنه باع الأفضل بالأدنى .

ولا تعجب من نفسك حيث ربما اغتررت بمالك وصحة جسمك لعلك تبقى وربما اغتررت بطول عمرك وأولادك وأصحابك لعلك تنجو بهم ، وربما اغتررت بحالك ومنيتك واصابتك مأمولك وهواك وظننت انك صادق ومصيب ، وربما اغتررت بما ترى الخلق من الندم على تقصيرك في العبادة ولعل الله يعلم من قلبك بخلاف ذلك ، وربما أقمت نفسك على العبادة متكلفاً والله يريد الاخلاص ، وربما افتخرت بعلمك ونسبك وأنت غافل عن مضمرات ما في علم الله ، وربما توهمت انك تدعو الله وأنت تدعو سواه ، وربما حسبت انك ناصح للخلق وأنت تريدهم لنفسك ان يميلوا اليك ، وربما ذممت نفسك وأنت تمدحها في الحقيقة .

واعلم انك لن تخرج من ظلمات الغرور والتمني الا بصدق الانابة الى الله والاخبات له ومعرفة عيوب أحوالك من حيث لا يوافق العقل والعلم ولا يحتمله الدين والشريعة وسنن القدوة وأئمة الهدى ، وان كنت راضياً بما أنت فيه فما أحد اشقى بعلمك منك واضيع عمراً ، فأورثت حسرة يوم القيامة .

الركن الرابع
فى المنجيـات

وفيه أبواب :

الباب الأول
فى التوبة

وفيه فصول :

(الفصل الأول)

فى حقيقة التوبة

وهي عبارة عن معنى ينتظم من ثلاثة امور مترتبة : أولها العلم ، وثانيها الحال ، وثالثها الفعل . والأول موجب للثاني ، والثاني موجب للثالث . والمراد بالعلم معرفة ضرر الذنوب وانها السموم المهلكة للدين المفوتة لحياة الأبد ، الحاجبة للعبد عن محبوبه من السعادة الأبدية .

ثم يحصل من هذا العلم حال ، وهو ان يثور من هذه المعرفة تألم القلب بسبب فوات المحبوب ، فان القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم ، وينبعث من هذا الألم في القلب حالة اخرى تسمى ارادة وقصداً الى فعل له تعلق بالحال بترك الذنب الذي كان له ملابساً ، وبالاستقبال بالعزم على ترك الذنب المفوت للمحبوب الى آخر العمر ، وبالماضي بتلافي ما فات بالجبر والقضاء ان كان قابلاً للجبر .

والعلم الأول هو مطلع هذه الخيرات ، وهو عبارة عن الايمان والتصديق بأن الذنوب سموم مهلكة ، واذا أشرق على القلب ثار الندم للباعث على ما تقدم . وكثيراً ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ويجعل العلم

كالسابق والمقدمة والترك كالثمرة والتابع ، وبهذا الاعتبار قال (ص) : الندم توبة . اذ لا يخلو الندم عن علم أوجبه وأثمره وعن عزم يتبعه ويتلوه .

(الفصل الثاني)
في وجوبها وفضلها

لا ريب في وجوب الاحتراز عن الأمراض والمهالك المفوتة لحياة الجسد عقلاً وشرعاً ، فوجوب الاحتراز عن أمراض الذنوب ومهلكات الخطايا المفوتة لحياة الأبد بطريق أولى ، وقال تعالى : « توبوا الى الله جميعاً ايها المؤمنون لعلكم تفلحون » وقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحاً عسى ربكم ان يكفّر عنكم سيئاتكم » والنصوح الخالص لله الخالي عن الشوائب . وقال تعالى : « ان الله يحب التوابين ويحب المطهرين » .

وقال رسول الله (ص) : التائب حبيب الله ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له .

وقال الباقر (ع) : الله أشد فرحاً بتوبة عبده من رجل أضل راحلته وزاده في ليلة ظلماء فوجدها ، فالله تعالى أشد فرحاً لتوبة عبده من ذلك الرجل براحلته حين وجدها .

وقال الصادق (ع) : ان الله يفرح بتوبة عبده المؤمن اذا تاب كما يفرح أحدكم بضالته اذا وجدها .

وعنه (ع) في قوله تعالى : « توبوا الى الله توبة نصوحاً » قال : هو الذنب الذي لا يعود فيه أبداً . قيل : وأينا لم يعد ؟ قال : يا فلان ان الله يحب من عباده المفتن التواب — يعني كثير الذنب كثير التوبة .

وعنه (ص) قال : اذا تاب العبد توبة نصوحاً أحبه الله وستر عليه . قيل : وكيف يستر عليه ؟ قال : ينسي ملكيه ما كانا يكتبان عليه ، ويوحي الله الى

جوارحه والى بقاع الأرض ان اكتمى عليه ذنوبه ، فيلقى الله تعالى حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب •

وقال الباقر (ع) : التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، والمقيم على الذنب وهو يستغفر منه كالمستهزىء •

(الفصل الثالث)

فى فوريتهـا

أما فوريتها فلا ريب فيه ، لأن دفع ضرر الذنوب فوري وجوبه ، على أن أصل التوبة هو معرفة كون المعاصي مهلكات ، وهذا العلم من نفس الايمان، وهو واجب فوري •

والعلم بضرر الذنوب انما اريد ليكون باعثاً على تركها ، فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الايمان ، وهو المراد بقوله (ص) : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » • اذ ليس المراد نفي الايمان بالله وصفاته وكتبه ورسله وملائكته ، بل نفي الايمان بكون الزنا مبعداً عن الله وموجباً للمقت ، كما اذا قال الطبيب هذا سم فلا تتناوله ، فاذا تناوله يقال تناول وهو غير مؤمن ، أي بقوله انه سم مهلك ، لا انه غير مؤمن بوجود الطبيب ، لأن العالم بالسم لا يتناوله أصلاً ، فالعاصي بالضرورة ناقص الايمان •

وليس الايمان باباً واحداً ، بل هو نيف وسبعون باباً أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها اماطة الأذى عن الطريق • ومثله قول القائل : ليس الانسان موجوداً واحد بل هو نيف وسبعون موجوداً أعلاها القلب والروح وأدناها اماطة الأذى عن البشرة ، بأن يكون مقصوص الشارب مقلم الأظفار نقي البشرة عن الخبث ، حتى يتميز عن البهائم المتلوثة بأرواثها المستكرهة الصور بطول مخالبها وأظلافها •

فالايمان كالانسان ، وفقد شهادة التوحيد يوجب البطلان بالكلية كفقد الروح والذي ليس له الا شهادة التوحيد والرسالة كالانسان مقطوع الأطراف مفقود العينين فاقد لجميع أجزائه الظاهرة والباطنة الا أصل الروح .

وكما ان من هذا حاله قريب من أن يموت فتزايله الروح الضعيفة المنفردة التي تخلف عنها الأعضاء التي تمدها وتقويها ، فكذلك من ليس له الا أصل الايمان ، وهو مقصر في الأعمال قريب من أن تنقلع شجرة ايمانه اذا صدر منها الرياح العاصفة المحركة للايمان في مقدمه قدوم ملك الموت ووروده ، فكل ايمان لم يثبت في النفس اصله ولم تنتشر في الأعمال فروعه لم يثبت على عواصف الأهوال عند ظهور ناصية ملك الموت ، وخيف عليه سوء الخاتمة الا ما سقي بماء الطاعات على توالي الأيام والساعات حتى رسخ وثبت .

وانما انقطعت نياط العارفين خوفاً من دواهي الموت ومقدماته الهائلة التي لا يثبت عليها الا الأقلون ، فالبدار البدار الى التوبة قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح الايمان عملاً يجاوز الأمر فيه اختيار الأطباء ولا ينفع بعده الاحتماء ، فلا ينفع بعد ذلك نصح الناصحين ووعظ الواعظين ، ويحق الكلمة عليه بأنه من الهالكين .

(الفصل الرابع)

فى عمومها

اعلم ان وجوب التوبة عام في الأشخاص والأحوال ، فلا ينفك أحد عنه البتة ، قال تعالى : « وتوبوا الى الله جميعاً » فعمم الخطاب ، وكل انسان لا يخلو عن معصية بجوارحه ، فان خلا في بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن الهم بالذنوب بالقلب ، فان خلا عن الهم فلا يخلو عن وسواس الشيطان بايراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله ، فان خلا عنه فلا يخلو

عن الغفلة والقصور في العلم بالله وصفاته وآثاره بحسب طاقته ، وكل ذلك نقص وله أسباب وترك أسبابه بتشاغل أضدادها رجوع عن طريق الى ضده •

والمراد بالتوبة الرجوع ، ولا يتصور الخلو في حق الآدمي عن هذا النقص ، وانما يتفاوتون في المقادير ، وأما الأصل فلابد منه •

الا ان الأنبياء والأوصياء ذنوبهم ليست كذنوبنا ، فانما هي ترك دوام الذكر والاشتغال بالمباحات وحرمانهم زيادة الأجر بسبب ذلك ، ولهذا ورد : « ان حسنات الأبرار سيئات المقربين » وقال الصادق (ع) : ان رسول الله صلى الله عليه وآله كان يتوب الى الله ويستغفره في كل يوم وليلة مائة مرة من غير ذنب ، ان الله يخص أولياءه بالمصائب ليأجرهم عليها من غير ذنب — أي كذنوبنا ، فان ذنب كل أحد انما هو بحسب قدره ومنزلته عند الله •

وهذا باب شريف ينفتح منه معاني اعتراف الأنبياء والأئمة عليهم السلام بذنوبهم وبكائهم وتضرعهم •

ثم اعلم انه لا يكفي في تدارك الشهوات تركها في المستقبل ، بل لابد من محو آثارها التي انطبعت في القلب بنور الطاعات ، قال (ص) : اتبع السيئة بالحسنة تمحها •

وينبغي أن تكون الحسنة الماحية للسيئة مناسبة لتلك السيئة ، فيكفر سماع الملاهي بسماع القرآن وحضور المجالس التي يذكر الله فيها وأنبياءه وخلفاءه ، ويكفر القعود بالمسجد جنباً بالعبادة فيه ونحو ذلك ، وليس ذلك شرطاً •

روي ان رجلاً قال لرسول الله (ص) : اني عالجت امرأة فأصبت منها كل شيء الا المسيس فاقض علي بحكم الله • فقال : أما صليت معنا ؟ فقال : بلى • فقال : ان الحسنات يذهبن السيئات •

وينبغي أن يكون عن قرب عهد بالخطيئة ، بأن يتندم عليها ويمحو أثرها

قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو ، قال الله تعالى : « انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ، وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت قال اني تبت الآن » . قال الصادق عليه السلام : ذلك اذا عاين أمر الآخرة ، وذلك ان التوبة مقبولة قبل ان يعاين .

وعن النبي (ص) قال : من ترك المبادرة الى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين : أحدهما ان يتراكم الظلمة عن قلبه من المعاصي حتى يصير رينا وطبعا فلا يقبل المحو . والثاني ان يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو . ولذلك ورد في الخبر : ان أكثر صياح أهل النار التسويف .

(الفصل الخامس)

فى قبول التوبة

قال في الاحياء : اعلم انك اذا فهمت معنى القبول لم تشك في ان كل توبة صحيحة فهي مقبولة ، فالناظرون بنور البصائر المستمدون من أنوار القرآن علموا أن كل قلب سليم مقبول عند الله ومتنعم في الآخرة في جوار الله ، ومستعد لأن ينظر بعينه الباقية الى وجه الله ، وعلموا أن القلب خلق سليما في الأصل ، فكل مولود يولد على الفطرة وانما تفوته السلامة بكدورة ترهق وجهه من غبرة الذنوب وظلمتها .

وعلموا أن نار الندم تحرق تلك الغبرة ، وان نور الحسنة تمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة ، وانه لا طاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات كما لا طاقة لظلام الليالي مع نور النهار ، بل كما لا طاقة لكدورة الوسخ مع بياض الصابون ، فكما ان الثوب الوسخ لا يقبله الملك لأن يكون لبسه ، فالقلب المظلم لا يقبله الله تعالى لأن يكون في جواره ، وكما ان استعمال الثوب في

الأعمال الخبيثة يوسخ الثوب وغسله بالصابون والماء الحار ينظفه لا محالة فاستعمال القلب في الشهوات يوسخ القلب وغسله بماء الدموع وحرقة الندم تنظفه وتطهره وتزكيه .

وكل قلب زكي طاهر فهو مقبول ، فعلى الانسان التزكية والتطهير وعلى الله القبول ، الا ان يغوص الوسخ لطول تراكمه في تجاويف الثوب وخلله ، فلا يقوى الصابون على قلعه . ومثال ذلك ان تراكم الذنوب حتى يصير طبعاً وريناً على القلب ، فمثل هذا القلب لا يرجع ولا يتوب .

نعم قد يقول باللسان تبت ، فيكون ذلك كقول القصار بلسانه قد غسلت الثوب ، وذلك لا ينظف الثوب أصلاً ما لم يغير صفة الثوب باستعمال ما يضاد الوصف المتمكن منه ، قال الله تعالى : « وهو الذي يقبل التوبة عن عباده » وقال : « غافر الذنب وقابل التوب » .

أقول : من طريق الخاصة في الكافي عن الصادق أو الباقر (ع) : ان الله عز وجل قال لآدم عليه السلام : جعلت لك ان من عمل من ذريتك سيئة ثم استغفر غفرت له . قال : يا رب زدني . قال : جعلت لهم التوبة حتى تبلغ النفس هذه . قال : يا رب حسبي .

وعن الباقر (ع) قال : اذا بلغت النفس هذه — وأومأ بيده الى حلقه — لم يكن للعالم توبة وكان للجاهل توبة .

وعن الصادق (ع) قال : قال رسول الله (ص) : من تاب قبل موته بسنة قبل الله توبته ، ثم قال : ان السنة لكثير من تاب قبل موته بشهر قبل الله توبته ثم قال : ان الشهر لكثير ، ثم قال : من تاب قبل موته بجمعة قبل الله توبته ، ثم قال : وان الجمعة لكثير من تاب قبل موته بيوم قبل الله توبته ، ثم قال : ان يوماً لكثير من تاب قبل أن يعاين قبل الله توبته .

وزاد في رواية الصدوق : من تاب قبل موته بساعة تاب الله عليه ، ثم

قال : وان الساعة لكثير من تاب وقد بلغت نفسه هنا — وأشار بيده الى حلقه — تاب الله عليه .

وقال النبي (ص) : لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم .

وقال الباقر عليه السلام لمحمد بن مسلم : ذنوب المؤمن اذا تاب منها مغفورة له ، فليعمل المؤمن لما يستأنف بعد التوبة والمغفرة ، أما والله انها ليست الا لأهل الايمان . قلت : فان عاد بعد التوبة والاستغفار في الذنوب وعاد في التوبة ؟ فقال عليه السلام : أترى العبد المؤمن يندم على ذنبه ويستغفر الله منه ويتوب ثم لا يقبل الله توبته . قلت : فانه فعل ذلك مراراً يذنب ثم يتوب ويستغفر ؟ فقال : كلما عاد المؤمن بالاستغفار والتوبة عاد الله عليه بالمغفرة ، وان الله غفور رحيم يقبل التوبة ويعفو عن السيئات .

وقال الصادق (ع) : ان الرجل ليذنب الذنب فيدخله الله به الجنة . قيل : يدخله الله بالذنب الجنة ؟ قال : نعم ، انه ليذنب فلا يزال منه خائفاً ماقتاً لنفسه فيرحمه الله فيدخله الجنة .

(الفصل السادس)

فى تقسيم الذنوب التي يتاب منها

وتنحصر جميع الذنوب في أربع صفات : صفات ربوبية ، وشيطانية ، وبهيمية ، وسبعية .. لكون طينة الانسان معجونة من اخلاط مختلفة يقتضي كل منها أثراً :

فالربوبية كالكبر والفخر والتجبر وحب المدح والثناء والعز ودوام البقاء البقاء وطلب الاستعلاء ونحوها ، وهذه ام المهلكات .

والشيطانية كالحسد والبغي والحيلة والخداع والأمر بالفساد والمنكر والغش والشقاق والدعوة الى البدع والضلالة .

والبهيمية كالشره والتكالب والحرص والزنا واللواط والسرقة وأكل مال الأيتام ونحوها .

والسبعية يتشعب منها الغضب والحقد والتهجم على الناس بالضرب والشتم والقتل واستهلاك الأموال ونحوها .

ثم هذه امهات الذنوب ومنابعها ، وتنفجر الذنوب من هذه المنابع على الجوارح ، فبعضها في القلب خاصة كالكفر والبدعة والنفاق واضمار السوء للناس ، وبعضها على العين والسمع ، وبعضها على اللسان ، وبعضها على البطن والفرج ، وبعضها على اليدين والرجلين ، وبعضها على جميع البدن .

وتنقسم قسمة ثانية الى مابين العبد وبين الله والى ما يتعلق بحقوق العباد : فما يتعلق بالعبد خاصة كتركه الصلاة والصوم ونحوهما ، وما يتعلق بحقوق العباد كتركه الزكاة وقتل النفس وغصب الأموال وشتم العرض .

وتنقسم قسمة ثالثة الى كبائر وصغائر ، قال الله تعالى : « ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم » وقال تعالى : « والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم » .

وقد اختلفت الأقوال والأخبار في تعيين الكبائر ، والأشهر انها ما توعد الله عليه النار . فعن الصادق عليه السلام في قوله تعالى : « ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه » قال : الكبائر التي أوجب الله عليها النار .

وفي الصحيح عن أبي جعفر الثاني قال : سمعت أبي يقول : سمعت أبي موسى بن جعفر يقول : دخل عمرو بن عبيد على أبي عبدالله عليه السلام ، فلما سلم وجلس تلا هذه الآية « الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش » ثم أمسك ، فقال له (ع) ما أسكتك ؟ قال : أحب أن أعرف الكبائر من كتاب الله فقال : نعم يا عمرو ، أكبر الكبائر الاشراك بالله يقول الله « من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة » ، وبعده اليأس من روح الله لأن الله يقول : « انه

لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون » ، ثم الأمن من مكر الله لأن الله تعالى يقول : « فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون » ، ومنها عقوق الوالدين لأن الله جعل العاق جباراً شقياً وقتل النفس التي حرم الله الا بالحق لأن الله تعالى يقول : « فجزاؤه جهنم خالداً فيها » الآية ، وقذف المحصنة لأن الله تعالى يقول : « لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم » ، وأكل مال اليتيم لأن الله يقول : « انما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً » ، والفرار من الزحف لأن الله يقول : « ومن يولّهم يومئذ دبره الا متحرفاً لقتال أو متحيزاً الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » ، وأكل الربا لأن الله يقول : « الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس » ، والسحر لأن الله يقول : « ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق » ، والزنا لأن الله يقول : « ومن يفعل ذلك يلق آثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً » ، واليمين الغموس الفاجرة لأن الله يقول : « الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً اولئك لا خلاق لهم في الآخرة » ، والغلول لأن الله يقول : « ومن يغلل يأتي بما غلّ به يوم القيامة » ، ومنع الزكاة المفروضة لأن الله يقول : « فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم » ، وشهادة الزور ، وكتمان الشهادة لأن الله يقول : « ومن يكتمها فانه آثم قلبه » ، وشرب الخمر لأن الله تعالى نهى عنها كما نهى عن عبادة الأوثان ، وترك الصلاة متعمداً أو شيئاً مما فرض الله لأن رسول الله (ص) قال : « مَن ترك الصلاة متعمداً فقد بريء من ذمة الله وذمة رسوله » ، ونقض العهد وقطيعة الرحم لأن الله يقول : « لهم اللعنة ولهم سوء الدار » . قال : فخرج عمرو وله صراخ من بكائه ، وهو يقول : هلك من قال برأيه ونازعكم في الفضل والعلم .

فإن قيل : كيف ورد الشرع بما لم يبين حده ، والكبائر مبهمة قد

اختلفت في الأخبار ؟

فالجواب : ان كلما لا يتعلق به حكم في الدنيا جاز أن يتطرق اليه الابهام ، والكبيرة على الخصوص لا حكم لها في الدنيا من حيث انها كبيرة ، فان موجبات الحدود معلومة بأساميها ، وانما حكم الكبيرة ان اجتنابها يكفر الصغائر وان الصلوات الخمس لا تكفرها ، كما في الحديث النبوي : الصلوات الخمس والجمعة الى الجمعة تكفر ما بينهن ان اجتنب الكبائر .

وهذا أمر يتعلق بالآخرة والابهام به أليق حتى يكون الناس على حذر ووجل ، فلا يتجرأون على الصغائر اعتماداً على الصلوات الخمس واجتناب الكبائر ، ثم اجتناب الكبيرة انما يكفر الصغيرة .

(الفصل السابع)
فى بيان ما تعظم به الصغائر

اعلم ان الصغيرة تكبر بأسباب :

(الأول) الاصرار والمواظبة ، ففي الكافي عن الصادق عليه السلام قال : لا صغيرة مع الاصرار ولا كبيرة مع الاستغفار .

وعنه عليه السلام قال : لا والله لا يقبل شيئاً من طاعته على الاصرار على شيء من معاصيه .

وقال الباقر (ع) في قوله تعالى : « ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون» قال : الاصرار ان يذنب الذنب فلا يستغفر ولا يحدث نفسه بتوبة فذلك الاصرار .

وقد مثلوا ذلك بقطرات من الماء تقع على الحجر على توالي فتؤثر فيه ، وذلك القدر من الماء لو صب عليها دفعة لم يؤثر ، ولذلك قال رسول الله (ص): خير الأعمال أدومها وان قلّ .

والاشياء تستبان بأضدادها ، فاذا كان النافع من العمل هو الدائم وان

قلَّ فكذلك القليل من السيئات اذا دام عظم تأثيره في ظلام القلب .

(ومنها) ان يستصغر الذنب ، فان العبد كلما استعظمه من نفسه صغر عند الله وكلما استصغره كبر عند الله لأن استعظامه يصدر نفور القلب عنه وكراهته له ، وذلك النفور يمنع من شدة تأثره به واستصغاره يصدر عن الألف به ، وذلك يوجب شدة الأثر في القلب ، والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات والمحذور تسويده بالسيئات ، ولذلك لا يؤاخذ بما يجري عليه في الغفلة .

وقد جاء في الحديث : ان المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف ان يقع عليه ، والمنافق يرى ذنبه كذباب مرَّ على أنفه فأطاره .

وعن الصادق (ع) قال : قال رسول الله (ص) : اتقوا المحقرات من الذنوب فانها لا تغفر . قيل : وما المحقرات ؟ قال : الرجل يذنب الذنب فيقول: طوبى لي لو لم يكن غير ذلك .

وعن الكاظم (ع) قال : لا تستكثروا كثير الخير ولا تستقلوا قليل الذنوب، فان قليل الذنوب يجتمع حتى يكون كثيراً ، وخافوا الله في السر حتى تعطوا من أنفسكم النصف .

(ومنها) السرور بالصغيرة والفرح والتبجح بها ، واعتداد التمكن من ذلك نعمة والغفلة عن كونه سبب الشقاوة ، وكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند الكبر كبرت الصغيرة وعظم أثرها في تسويد قلبه ، حتى ان من المذنبين من يتمدح بذنبه ويتبجح ، ويقول المناظر في مناظرته اما رأيتني كيف فضحته .

والذنوب مهلكات ، وينبغي أن يكون مرتكبها في حزن وتأسف بسبب غلبة عدوه الشيطان عليه ، والمريض الذي يفرح بأن ينكسر اناؤه الذي فيه دواؤه حتى يتخلص من ألم شربه لا يرجى شفاؤه .

(ومنها) أن يتهاون بستر الله عليه وحلمه عنه وامهاله إياه ، ولا يدري

انه إنما يمهل مقتاً ليزداد بالامهال اثماً ، فيظن ان تمكنه من المعاصي عناية من الله تعالى به ، فيكون ذلك لأمنه من مكر الله وجهله بمكامن الغرور ، كما قال تعالى : « ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها وبئس المصير » .

(ومنها) أن يأتي بالذنب ويظهره بأن يذكره بعد اتيانه أو يأتي به في مشهد غيره ، فان ذلك جناية منه على ستر الله الذي أسدله عليه ، وتحريك لرغبة الشر فيمن اسمعه ذنبه أو أشهده فعله ، فهما جنايتان انضمتا الى جنايته فتغلظت به ، فان انضاف الى ذلك الترغيب للغير فيه والحمل عليه وتهيئة الأسباب له صارت جناية رابعة وتفاحش الأمر . وهذا لأن من صفات الله ونعمه انه يظهر الجميل ويستر القبيح ولا يهتك الستر ، فالاظهار كفران لهذه النعمة .

وفي الكافي عن الرضا (ع) قال : قال رسول الله (ص) : المستتر بالحسنة تعدل سبعين حسنة ، والمذيع بالسيئة مخذول ، والمستتر بها مغفور له .

وقال الصادق (ع) : من جاءنا يلتمس الفقه والقرآن وتفسيره فدعوه ، ومن جاءنا يبدي عورة قد سترها الله عليه فنحوه .

(ومنها) أن يكون المذنب عالماً يقتدى به فاذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه ، كلبس العالم الابريسم والذهب ، وأخذه مال الشبهة من أموال السلاطين ، ودخوله على السلاطين وتودده اليهم ، ومساعدته اياهم بترك الانكار عليهم ، واطلاقه اللسان في الغيبة والاعراض وتعديه باللسان في المناظرة وقصده الاستخفاف ونحو ذلك ، فهذه الذنوب يتبع العالم عليها فيموت ويبقى شره مستطيراً في العالم مدداً متطاولة . فطوبى لمن اذا مات ماتت معه ذنوبه .

وفي الخبر : من سنّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص

من أوزارهم شيء ، قال تعالى : « ونكتب ما قدموا وآثارهم » والآثار ما يلحق الأعمال بعد انقضاء العمل والعامل ، ولهذا قيل : « مثل زلة العالم مثل انكسار السفينة تغرق ويغرق أهلها » •

(الفصل الثامن)

في تجزئة التوبة

وملخص الكلام فيها ان التوبة عن بعض الذنوب إما أن يكون عن الكبائر دون الصغائر أو عن الصغائر دون الكبائر أو عن كبيرة دون كبيرة :

(اما الأول) فهو ممكن للعلم بأن الكبائر أعظم عند الله وأجلب لسخطه ومقته ، والصغائر أقرب الى تطرق العفو اليه ، وقد كثر التائبون ولم يكن أحد منهم معصوماً ، فلا تستدعي التوبة العصمة • والطبيب قد يحذر المريض العسل تحذيراً شديداً ويحذره السكر تحذيراً أخف منه على وجه يظهر منه عدم ظهور أثره •

(وأما القسم الثاني) فهو ممكن أيضاً لاعتقاده ان بعض الكبائر أشد وأغلظ عند الله ، كالذي يتوب عن القتل والنهب والظلم ومظالم العباد لعلمه بأن ديوان العباد لا يترك ، وما بينه وبين الله يسرع العفو اليه •

(الثالث) ان يتوب عن صغيرة وهو مصر على كبيرة يعلم انها كبيرة ، كالذي يتوب عن الغيبة أو عن النظر الى غير المحرم أوما يجري مجراه وهو مصر على شرب الخمر ، وهو ممكن اذ ما من مؤمن الا وهو خائف على معاصيه ونادم على فعله ندماً اما ضعيفاً واما قوياً ، ولكن تكون لذة نفسه في تلك المعصية أقوى من ألم قلبه في الخوف منها ، لأسباب توجب ضعف الخوف من الجهل والغفلة والسباب توجب قوة الشهوة ، فيكون الندم موجوداً ولكن لا يكون العزم قوياً عليه •

ويقول : لله علي أمران ولي على المخالفة فيــه عقوبتان ، واناملي في أحدهما بقهر الشيطان عاجز عنه في الآخر فأقهره فيما اقدر عليه ، وارجوه بمجاهدتي فيه أن يكفر عني ما عجزت عنه بفرط شهوتي •

وهذا حال كل مسلم ، وقد قال (ص) : « الندم توبة » ولم يشترط الندم عن كل ذنب ، وقال (ع) : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » ولم يقل التائب من الذنوب كلها •

(الفصل التاسع)

فى أقسام العباد فى التوبة

وهم طبقات :

(الطبقة الأولى) أن يتوب العاصي ويستقيم الى آخر عمره ، فيتدارك ما فرط من أمره ولا يحدث نفسه بالعود الى ذنوبه ، الا الزلات التي لا ينفك البشر عنها في العادة ، وهي التوبة النصوح •

(الطبقة الثانية) تائب سلك طريق الاستقامة في امهات الطاعات وكبائر الفواحش كلها ، الا انه ليس ينفك عن ذنوب تعتريه لا عن عمد وتجريد قصد ولكن يبتلى بها في مجاري أحواله ، من غير ان يقدم عزماً على الاقدام عليها ولكنه اذا أقدم لأم نفسه وندم وجدد عزمه على عدم العود • وهذه رتبة عالية وان كانت نازلة عن الأولى ، وهي أغلب أحوال التائبين ، لأن الشر معجون بطينة الآدمي قلما ينفك عنه ، قال تعالى : « الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم » وقال تعالى : « والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله » • وفي الحديث • خياركم كل مفتن تواب • وفي الرواية : المؤمن كالسنبلة تفيء أحياناً وتميل أحياناً •

(الطبقة الثالثة) ان يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ثم تغلبه شهوته في بعض الذنوب فيقدم عليها عن قصد وصدق شهوة بعجزه عن قهر الشهوة ، الا انه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك جملة من السيئات مع القدرة والشهوة ، وانما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان ، وهو يودّ قمعها ويقول : ليتني لم أفعل وسأتوب ، ولكنه يسوّف نفسه في التوبة يوماً بعد يوم ، قال تعالى : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً » فهو مرجو عسى الله أن يتوب عليه اذا تاب .

(الطبعة الرابعة) أن يتوب ويستقيم مدة ثم يعود الى مقارفة الذنب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ومن غير أن يتأسف على فعله ، بل ينهمك انهماك الغافل في اتباع الشهوات ، فهذا أقبح حال التائبين وأمر في مشيئة الله .

(الفصل العاشر)

فى العلاج للاقبال على التوبة

وهي أربعة امور :

(الأول) أن ينظر الى الآيات والأخبار المخوفة للمذنبين والعاصين وما فيهما من التهديد والوعيد على العقاب الشديد والعذاب الأكيد ، ففي بعض الأخبار من طرق الجمهور عنه (ص) قال : ما من يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها الا وملكان يتجاوبان بأربعة أصوات : يقول أحدهما يا ليت هذا الخلق لم يخلقوا ، ويقول الآخر يا ليتهم اذ خلقوا علموا لماذا خلقوا ، فيقول الآخر ويا ليتهم اذ لم يعلموا لماذا خلقوا عملوا بما علموا فيقول الآخر ويا ليتهم اذ لم يعملوا بما علموا تركوا الخوض فيما لم يعلموا .

وفي رواية : تجالسوا فتذاكروا ما علموا ، فيقول الآخر ويا ليتهم اذ لم يعملوا بما علموا تابوا عما عملوا .

وقال بعض العارفين : ما من عبد يعصي الا استأذن مكانه من الأرض ان يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء ان يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله للأرض وللسماء ، كفا عن عبدي وامهلاه ، فانكما لم تخلقاه ولو خلقتماه لرحمتماه ، لعله يتوب الي فأغفر له ، لعله يستبدل صالحاً فأبدله له حسنات ، فذلك معنى قوله تعالى : « ان الله يمسك السماوات والأرض ان تزولا ولئن زالتا ان امسكهما من أحد من بعده » •

(الثاني) حكايات المذنبين التائبين ومـا جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم •

(الثالث) أن يتصور المذنب ان تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع على الذنب ، وان كل ما يصيب العبد من المصائب بسبب جناية صدرت منه ، قال تعالى : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » •

وقال الصادق عليه السلام في هذه الآية : ليس من التواء عرق ولا نكبة حجر ولا عثرة قدم ولا خدشة عود الا بذنب •

وفي رواية اخرى : اما انه ليس من عرق يضرب ولا نكبة ولا صداع ولا مرض الا بذنب ، وذلك قول الله عز وجل في كتابه : « ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » قال : وما يعفو الله أكثر مما يؤاخذ به •

وقال (ع) : ان الرجل يذنب الذنب فيحرم صلاة الليل ، وان العمل السيىء أسرع في صاحبه من السكين في اللحم •

(الرابع) ذكر ما ورد من العقوبات على آحاد الذنوب كالخمر والزنا والسرقة والقتل والغيبة والكبر والحسد ، وهو مما لا يمكن حصره • وفي الحديث يقول الله تعالى : أدنى ما أصنع بالعبد اذا آثر شهوته على طاعتي ان احرمه لذيذ مناجاتي •

وقال (ع) : من همَّ بالسيئة فلا يعملها ، فانه ربما عمل العبد سيئة فيراه الرب تبارك وتعالى فيقول : وعزتي لا أغفر لك بعد ذلك أبداً .

وقال الكاظم عليه السلام : حق على الله أن لا يعصى في دار الا اضحاها للشمس حتى يطهرها .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : ان العبد ليحبس على ذنب من ذنوبه مائة عام وانه لينظر الى أزواجه في الجنة يتنعمن .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام لقائل بحضرته : استغفر الله : ثكلتك امك، أتدري ما الاستغفار ؟ ان الاستغفار درجة العليين ، وهو اسم واقع على ستة معاني : اولها الندم على ما مضى ، والثاني العزم على ترك العود اليه أبداً ، والثالث ان تؤدي الى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة ، والرابع ان تعمدَ الى كل فريضة عليك ضيعتها تؤدي حقها ، والخامس أن تعمد الى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتى يلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد ، والسادس أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية ، فعند ذلك تقول : استغفر الله .

وفي مصباح الشريعة : قال الصادق عليه السلام : التوبة حبل الله ومدد عنايته ، ولابد للعبد من مداومة التوبة على كل حال ، فتوبة الأنبياء من اضطراب السر ، وتوبة الأولياء من تلوين الخطرات ، وتوبة الأصفياء من التنفيس ، وتوبة الخلص من الاشتغال بغير الله ، وتوبة العالم من الذنوب .

ولكل واحد منهم معرفة وعلم في أصل توبتـه ومنتهى أمره ، وذلك يطول شرحه هنا .

فأما توبة العالم فأن يغسل باطنه من الذنوب بماء الحسرة والاعتراف بجنايته دائماً ، واعتقاد الندم على ما مضى والخوف على ما بقى من عمره ، ولا يستصغر ذنوبه فتحمله ذلك الى الكسل ، ويديم البكاء والأسف على

ما فاته من طاعة الله ، ويحبس نفسه عن الشهوات ، ويستغيث الى الله ليحفظه على وفاء توبته ، ويعصمه من العود الى ما سلف ، ويروض نفسه في ميدان الجهاد والعباد ، ويقضي الفوائت من الفرائض ، ويرد المظالم ، ويعتزل قرناء السوء ، ويسهر ليله ويظمأ نهاره ، ويتفكر دائماً في عاقبته ، ويستعين بالله سائلاً منه الاستقامة في سرائه وضرائه ، ويثبت عند المحن والبلاء كي لا يسقط عن درجة التوابين ، فان ذلك طهارة من ذنوبه وزيادة في عمله ورفعة في درجاته قال الله عز وجل : « وليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » .

الباب الثاني

فى الصبر

وفيه فصول :

(الفصل الأول)

فى فضله

قال الله تعالى : « انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » وقال تعالى : « اولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا » وقال تعالى : « ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » وقال تعالى : « وتمت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا » وقال تعالى : « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا » .

وما من طاعة الا وأجرها بحساب الا الصبر ، ولأجل كون الصوم من الصبر قال تعالى : « الصوم لي وأنا اجزي به » .

ووعد الصابرين بأنه معهم فقال : « واصبر ان الله مع الصابرين » .

وعلق النصرة على الصبر فقال : « بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين » .

وجمع للصابرين اموراً لم يجمعها لغيرهم فقال : « اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة واولئك هم المهتدون » .

وقال (ص) : الصبر نصف الايمان .

وقال (ص) : من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ، ومن اعطي حظه منهما لم يبال ما فاته من قيام الليل وصيام النهار .

وسئل (ص) عن الايمان ؟ فقال : الصبر والسماحة .

وقال (ص) : الصبر كنز من كنوز الجنة .

وقال (ص) : أفضل الأعمال ما اكرهت عليه النفوس .

وقيل : أوحى الله الى داود : تخلق بأخلاقي ، أنا الصبور .

وقال الصادق عليه السلام اذا دخل المؤمن قبره كانت الصلاة عن يمينه والزكاة عن يساره ، والبر مظل عليه ، ويتنحى الصبر ناحية ، فاذا دخل عليه الملكان اللذان يليان مساءلته قال الصبر : للصلاة والزكاة والبر دونكم صاحبكم فان عجزتم عنه فأنا دونه .

وعنه (ع) : من ابتلى من المؤمنين ببلاء فصبر عليه كان له مثل أجر ألف شهيد .

وعنه عليه السلام قال : ان الله تعالى أنعم على قوم فلم يشكروا فصارت عليهم وبالاً ، وابتلى قوماً بالمصائب فصبروا فصارت عليهم نعمة .

وعنه عن أبيه (ع) قال : من لا يعد الصبر لنوائب الدهر يعجز .

وعن الباقر عليه السلام قال : الجنة محفوفة بالمكاره والصبر ، فمن صبر على المكاره في الدنيا دخل الجنة ، وجهنم محفوفة باللذات والشهوات ، فمن اعطى نفسه لذتها وشهوتها دخل النار .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام : بني الايمان على أربع دعائم : اليقين ، والصبر ، والجهاد ، والعدل .

(الفصل الثاني)

فى حقيقته وإساميه وأقسامه

اعلم ان القتال قائم بين باعث الدين وباعث الهوى ، والحرب بينهم على ساق ، ومحل المعركة قلب المؤمن ، ومدد باعث الدين من الملائكة الناصرين لحزب الله ، ومدد باعث الشهوة والهوى من الشياطين الناصرين لأعداء الله فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة .

ثم انه ضربان : بدني كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليه ، وهو اما بالفعل كتعاطي الأعمال الشاقة من العبادات ، واما بالاحتمال كالصبر على الضرب الشديد والمرض العظيم والجراحات الهائلة ، ونفسي وهو الصبر عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى ، وهو إن كان عن شهوة البطن والفرج سمي عفة ، وان كان على احتمال مكروه فان كان في مصيبة اقتصر على اسم الصبر .

وضده حال يسمى الجزع والهلع ، وهو اطلاق داعي الهوى ليسترسل في رفع الصوت وضرب الخدود وشق الجيوب وغيرها .

وان كان في احتمال الغنى سمي ضبط النفس، ويضاده حالة تسمى البطر .

وان كان في الحرب سمي شجاعة ، ويضاده الجبن .

وان كان في كظم الغيظ والغضب سمي حلماً ، ويضاده التذمر والغضب .

وان كان في نائبة من نوائب الزمان مضجرة سمي سعة الصدر ، ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر .

وان كان في اخفاء كلام سمي كتماناً وصاحبه كتوماً ، وضده الاذاعة .

وان كان في فضول العيش سمي زهداً ، ويضاده الحرص .

وان كان صبراً على قدر يسير من الحظوظ سمي قناعة ، ويضاده الشره.

فالصبر جامع لأكثر اخلاق الايمان ، وهو الرئيس الأعظم والامام الأقوم فلذلك لما سئل (ص) عن الايمان قال : الصبر .

ثم ان العبد لا يستغني عن الصبر في جميع الأحوال ، لأن ما يلقاه العبد في الدنيا إما يوافق هواه واما يكرهه ، وحاله غير خارج عن هذين القسمين ، وهو محتاج الى الصبر في كل منهما :

(اما النوع الأول) كالصحة والسلامة والمال والجاه وكثرة العشيرة واتساع الأسباب وكثرة الاتباع والأنصار وجميع ملاذ الدنيا ، فما أحوج العبد الى الصبر في هذه الأمور ، لأنه ان لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون اليها والانهماك في ملاذها المباحة أخرجه ذلك الى البطر والطغيان ، فان الانسان ليطغى ان رآه استغنى ، ولذا قال بعض العارفين : البلاء يصبر عليه المؤمن ، والعوافي لا يصبر عليها الا صديق لأنه مقرون بالقدرة ، ومن العصمة أن لا تقدر .

ولذا حذر الله تعالى عباده عن فتنة المال والزوج والولد ، فقال : « يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله » وقال : « ان من أزواجكم وأولادكم عدو لكم » وقال : « انما أموالكم وأولادكم فتنة » .

(وأما النوع الثاني) — وهو ما لا يوافق الهوى — فهو إما الذي يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصي أو لا يرتبط باختياره كالمصائب والنوائب ، أو لا يرتبط أوله باختياره ولكن له اختيار في ازالته كالتشفي من المؤذي والانتقام منه .

والقسم الأول هو سائر أفعاله التي توصف كونها طاعة أو معصية ، أما الطاعة فالعبد يحتاج الى الصبر عليها ، لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية وتشتهي الربوبية .

ثم من الطاعات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة ، ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة ، ومنها ما يكره بسببهما معاً كالحج والجهاد ، فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد ، ويحتاج فيه الى ثلاثة أحوال :

(الأولى) قبل الطاعة ، وذلك في تصحيح النية والاخلاص ، والصبر عن شوائب الرياء ومكائد النفس ، وهو شديد ولذا قال (ص) : انما الاعمال بالنيات . وقال تعالى : « وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين » وقال تعالى : « الا الذين صبروا وعملوا الصالحات » .

(الثانية) الصبر حالة العمل كي لا يغفل عن الله في أثناء عمله ، ويلازم الصبر عن دواعي الفتور الى الفراغ ، وهو أيضاً شديد .

(الثالثة) الصبر بعد الفراغ من العمل عن افشائه للسمعة والرياء ، والصبر عن النظر اليه بعين العجب وعن جميع المبطلات ، قال تعالى : « ولا تبطلوا أعمالكم » وقال : « ولا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى » .

والضرب الثاني المعاصي ، وما أحوج العبد الى الصبر عنها ; واشدها المعاصي المألوفة بالعادة ، سيما اذا سهل فعله كالغيبة والكذب والرياء والثناء لأن العادة طبيعة ثابتة فاذا انضافت الى الشهوة تظاهر جندان من جنود الشيطان على جند الله .

(والقسم الثاني) ما لا يرتبط هجومه باختياره وله اختيار في دفعه ، كما لو أوذي بقول أو فعل أو جني عليه في نفسه أو ماله فالصبر على ذلك بترك المكافأة، ولذا قال تعالى ولتصبرن على ما آذيتمونا » وقال تعالى : « ودع اذاهم وتوكل على الله» وقال تعالى : «فاصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلا » وقال تعالى : «ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين اشركوا اذىً كثيراً وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور » . وقال النبي (ص): صل من قطعك واعط من حرمك واعف عمن ظلمك .

(القسم الثالث) ما لا يدخل تحت الاختيار أوله وآخره ، كالمصائب

مثل موت الأعزة وهلاك الأموال وزوال الصحة بالمرض وسائر أنواع البلاء ، وهذا صبر مستنده اليقين ، قال (ص) : أسألك من اليقين ما يهون به علي مصائب الدنيا . وقال (ص) : قال الله تعالى : اذا وجهت على عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزاناً أو انشر له ديواناً .

وقال (ص) : انتظار الفرج بالصبر عبادة .

وقال (ع) : ما من عبد مؤمن اصيب بمصيبة فقال كما أمره الله تعالى « انا لله وانا اليه راجعون اللهم اجرني في مصيبتي واعقبني خيراً منها » الا فعل الله ذلك .

وفي الكافي عن علي عليه السلام قال : قال رسول الله (ص) : الصبر ثلاثة : صبر عند المصيبة ، وصبر على الطاعة ، وصبر عن المعصية . فمن صبر على المصيبة حتى يردها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمائة درجة ما بين الدرجة الى الدرجة كما بين السماء والأرض ، ومن صبر على الطاعة كتب الله لـه ستمائة درجة ما بين الدرجة الى الدرجة كما بين تخوم الأرض الى العرش ، ومن صبر على المعصية كتب الله له تسعمائة درجة ما بين الدرجة الى الدرجة كما بين تخوم الأرض الى منتهى العرش .

وقال الباقر (ع) : الصبر صبران : صبر على البلاء حسن جميل ، وأفضل الصبرين الورع عن محارم الله .

واعلم ان الانسان انما يخرج من مقام الصابرين بالجزع وشق الجيوب وضرب الخدود والمبالغة في الشكوى ، وهذه الأمور داخلة تحت الاختيار ، فينبغي أن يجتنب جميعها ويظهر الرضا بالقضاء ، لا انه لا يكره المصيبة في نفسه لأن ذلك غير مختار فلا يخرجه ذلك عن حد الصابرين ولا توجع القلب وفيضان العين ، ولذلك لما مات ابراهيم ولد النبي (ص) فاضت عيناه ، فقيل

له : أما نهيتنا عن هذا ؟ قال : ان هذا رحمة وانما يرحم الله من عباده الرحماء وقال (ص) : تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب •

بل ذلك أيضاً لا يخرج عن مقام الرضا ، فان المقدم على الفصد والحجامة راض به وهو متألم بسببه لا محالة • نعم من كمال الصبر كتمان المرض والفقر وسائر المصائب ، فعن الباقر عليه السلام قال : قال رسول الله (ص) : قال الله تعالى : من مرض فلم يشك الى عواد أبدلته لحماً خيراً من لحمه ودماً خيراً من دمه ، فان عافيته عافيته ولا ذنب له ، وان قبضته قبضته الى رحمتي • وفسر التبديل بأن يبدله لحماً ودماً وبشرة لم يذنب فيها ، وفسرت الشكاية بأن يقول : ابتليت بما لم يبتل به أحد وأصابني ما لم يصب أحداً وقال (ع) : وليس الشكوى ان يقول : سهرت البارحة وحممت اليوم ونحو هذا •

وسئل الباقر عليه السلام عن الصبر الجميل ؟ فقال : ذاك صبر ليس فيه شكوى ، وأما الشكاية الى الله تعالى فلا بأس بها كما قال يعقوب : « انما اشكو بثي وحزني الى الله » •

(الفصل الثالث)

في دواء الصبر وعلاجه

اعلم ان الذي انزل الداء أنزل الدواء ووعد الشفاء ، فالصبر وان كان شاقاً ولكن يمكن تحصيله بمعجون العلم والعمل ، بتقوية باعث الدين : وتضعيف باعث الهوى بالمجاهدة والرياضة وذكر قلة قدر الشدة ودقتها ، واضرار الجزع وقبحه ، وأن يكثر فكره فيما ورد في فضل الصبر وحسن عواقبه في الدنيا والآخرة ، وان يعلم ان ثواب الصبر على المصيبة أكثر مما فات ، وانه بسبب ذلك مغبوط بالمصيبة ، اذ فاته ما لا يبقى معه الا مدة الحياة

الدنيا وحصل له ما يبقى بعد موته أبد الدهر .

ومن أسلم خسيساً في نفيس فلا ينبغي ان يحزن لفوات الخيس في الحال ، وان يعوّد هذا الباعث مصارعة باعث الهوى تدريجاً حتى يدرك لذة الظفر بها فيستجرى عليها ويقوي منته في مصارعتها ، فان الاعتياد والممارسة للاعمال الشاقة تؤكد القوى التي تصدر منها تلك الأعمال ، ومن عود نفسه مخالفة الهوى غلبها مهما أراد .

ثم ان كان ذلك بتعب قوى فتصبّر وان كان بيسير فصبر ، وان كان بجهد ففرض وان كان بتلذذ فشكر ، وهو بالغيبة عن حظوظ النفس والشهود مع الله تعالى وعدم التميز بين الألم واللذة .

الباب الثالث

في الرضا بالقضاء

وهو ترك الاعتراض والسخط ، قال الله تعالى : « رضى الله عنهم ورضوا عنه » .

وقال الصادق عليه السلام : رأس طاعة الله الصبر ، والرضا فيما أحب العبد أوكره ، ولا يرضى عبد عن الله فيما أحب أو كره الا كان خيراً له فيما أحب أو كره .

وقال عليه السلام : ان أعلم الناس بالله أرضاهم بقضاء الله .

وقال الكاظم عليه السلام : ينبغي لمن عقل عن الله ان لا يستبطئه في رزقه ولا يتهمه في قضائه .

وقال الصادق عليه السلام : قال الله عز وجل : عبدي المؤمن لا اصرفه في شيء الا جعلت له خيراً ، فليرض بقضائي وليصبر على بلائي وليشكر

نعمائي اكتبه يا محمد من الصديقين عندي .

وقال عليه السلام : ان فيما أوحى الله عز وجل الى موسى بن عمران : ما خلقت خلقاً أحب الي من عبدي المؤمن ، واني انما ابتليه لما هو خير له ، وأزوى عنه لما هو خير له ، واعافيه لما هو خير له ، وأنا أعلم بما يصلح عليه عبدي فليصبر على بلاي وليشكر نعماي وليرض بقضاي اكتبه في الصديقين عندي اذا عمل برضاي وأطاع أمري .

وقال عليه السلام : عجبت للمرء المسلم لا يقضي الله عز وجل له قضاء إلا كان خيراً له ، وان قرض بالمقاريض كان خيراً له ، وان ملك مشارق الأرض ومغاربها كان خيراً له .

وقال الباقر عليه السلام : أحق خلق الله أن يسلم لما قضى الله عز وجل ، من عرف الله عز وجل ومن رضى بالقضاء أتى عليه القضاء وعظم الله أجره ، ومن سخط القضاء مضى عليه القضاء فأحبط الله أجره .

وقال السجاد عليه السلام : الزهد عشرة أجزاء ، أعلا درجة الزهد أدنى درجة الورع ، وأعلا درجة الورع أدنى درجة اليقين ، وأعلا درجة اليقين أدنى درجة الرضا .

وعن النبي (ص) انه سأل طائفة من أصحابه فقال : ما أنتم ؟ فقالوا : مؤمنون . فقال : ما علامة ايمانكم ؟ فقالوا : نصبر عند البلاء ونشكر عند الرخاء ونرضى بمواقع القضاء . فقال (ص) : مؤمنون ورب الكعبة . وفي رواية : حكماء علماء كادوا من فقههم ان يكونوا أنبياء .

وههنا كلام ، وهو انه كيف يتصور الرضا بأنواع البلاء والابتلاء وما يخالف الهوى والطبع ، وانما يتصور الصبر في هذه الأمور دون الرضا ؟

فاعلم ان الرضا فرع الحب ، فاذا حصلت المحبة حصل الرضا ، ولذلك مرتبتان عليا وسفلى :

(أما العليا) فهو ان يبطل الاحساس بالألم حتى يجري عليه المؤلم ولا يحس وتصيبه الجراحة ولا يدرك ألمها ، وشاهده في عالم الأجسام الرجل المحارب ، فانه في حال غضبه أو خوفه قد يصيبه جراحات عظيمة ولا يحس بها ولا بألمها ، فاذا رأى الدم استدل به على الجراحة ، وكذلك الذي يعدو في شغل أو حاجة قد تصيبه شوكة في قدمه ولا يحس بالألم لاشتغال قلبه ، واذا اشتغل القلب وصار مستغرقاً بأمر من الأمور لم يدرك ما عداه ، وكذا العاشق والمحب اذا أصابه ألم — سيما من المحبوب — لا يدركه لاستيلاء الحب عليه .

(واما المرتبة السفلى) فهو أن يحس به ويدرك ألمه ولكن يكون راضياً به بل راغباً فيه مريداً له بعقله وان كان كارهاً له بطبعه نظراً الى ثوابه الذي أعد له . ونظيره في عالم الأجسام الذي يلتمس من الفصاد الفصد ومن الحجام الحجامة ومن الطبيب الدواء المر ، فانه يدرك ألمه الا انه راض به راغب فيه متقلد فيه المنة لما يعلم من العاقبة .

وقد حكي ان امرأة عثرت فانقطع ظفرها وسال الدم فضحكت ، فقيل لها : أما تألمت ؟ فقالت : لذة الأجر انستني الألم .

ويروى ان أهل مصر كانوا اذا جاعوا نظروا الى وجه يوسف (ع) فيشغلهم جماله عن الاحساس بألم الجوع .

وفي القرآن ما هو أبلغ من ذلك ، وهو قطع النسوة ايديهن ولم يحسسن بذلك لما نظرن الى جماله عليه السلام .

واعلم ان الدعاء غير مناقض للرضا ، لأنه عبادة تعبدنا الله بها وجعل من لم يدعه مستكبراً عليه مستحقاً للعذاب ، فقال تعالى : « ادعوني استجب لكم ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين » .

وكذا تعبدنا الله بانكار المعاصي وكراهتها ، فروي ان من شهد منكراً ورضي به فكأنه قد فعله . وفي آخر : لو أن عبداً قتل بالمشرق ورضي بقتله آخر

بالمغرب كان شريكه في قتله .

واعلم ان فائدة الرضا في الحال فراغ القلب للعبادة والراحة من الهموم وفي المال رضوان الله والنجاة من غضبه ، فقد قال سبحانه : من لم يرض بقضائي ولم يصبر على بلائي فليطلب رباً سوائي .

والطريق الى تحصيله ان يعلم ان ما قضى الله سبحانه له فهو الأصلح بحاله وان لم يبلغ علمه بسره وحكمته ، ولا مدخل للهم فيه ولا يتبدل القضاء به ، فان ما قدر لا محالة يكون وما لم يقدر لا يكون ، وما أحسن ما قيل :

ما لا يكون فلا يكون بحيلة   أبداً وما هو كائن سيكون

وحسرة الماضي وتدبير الآتي يذهبان ببركة الوقت بلا فائدة وتبقى تبعة السخط عليه ، بل ينبغي أن يدهشه الحب عن الاحساس بالألم كالعاشق والحريص ، وان يهون عليه العلم بجزيل الثواب وعظيم الأجر كالمريض والتاجر المتحملين شدة الحجامة والسفر ، فيفوض أمره الى الله ان الله بصير بالعباد .

الباب الرابع
في الشكر

والكلام فيه في فصول :

(الفصل الأول)
في فضله

اعلم ان الله تعالى قرن الشكر بالذكر مع قوله : « ولذكر الله أكبر » فقال : « اذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون » وقال تعالى : « ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم » وقال تعالى : « وسنجزي الشاكرين » وقال تعالى : « لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابي لشديد » ، وقال تعالى :

« وقليل من عبادي الشكور » .

وفي الكافي عن الصادق (ع) قال : قال رسول الله (ص) : الطاعم الشاكر له من الأجر كأجر الصائم المحتسب والمعافى الشاكر لـه من الأجر كأجر المحروم القانع .

وعنه عليه السلام قال : قال رسول الله (ص) : ما فتح الله على عبد باب شكر فخزن عنه باب الزيادة .

وعنه عليه السلام قال : من اعطي الشكر اعطي الزيادة ، قال الله تعالى : « لئن شكرتم لأزيدنكم » .

وعنه عليه السلام قال : ما أنعم الله على عبد بنعمة فعرفها بقلبه وحمد الله ظاهراً بلسانه فتم كلامه حتى يؤمر له بالمزيد .

وعن الباقر عليه السلام قال : كان رسول الله (ص) عند عائشة ليلتها فقالت : يا رسول الله لم تتعب نفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : يا عائشة ألا أكون عبداً شكوراً .

قال : وكان رسول الله (ص) يقوم على أصابع رجليه ، فأنزل الله سبحانه : « طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » .

وعن الصادق (ع) قال مكتوب في التوراة : اشكر من أنعم عليك وانعم على من شكرك، فانه لا زوال للنعماء اذا شكرت ولا بقاء لها اذا كفرت ، الشكر زيادة في النعم وأمان من الغير .

وسئل (ع) عن قوله تعالى : « وأما بنعمة ربك فحدث » ؟ قال : الذي أنعم الله عليك بما فضلك وأعطاك وأحسن عليك . ثم قال : فحدث بدينه وما أعطاه الله وما أنعم به عليه .

وقال عليه السلام : ثلاث لا يضر معهن شيء : الدعاء عند الكرب ، والاستغفار عند الذنب ، والشكر عند النعمة .

وقال (ع) : شكر النعمة اجتناب المحارم ، وتمام الشكر قول الرجل « الحمد لله رب العالمين » •

وقال (ع) : شكر كل نعمة وان عظمت ان يحمد الله عز وجل •

وقال عليه السلام : ما أنعم الله على عبد بنعمة صغرت أو كبرت فقال : « الحمد لله » الا أدى شكرها •

وقال عليه السلام : ان الرجل منكم ليشرب الشربة من الماء فيوجب الله بها الجنة ، ثم قال (ع) : انه ليأخذ الاناء فيضعه على فيه فيسمي ، ثم يشرب فينحيه وهو يشتهيه فيحمد الله ، ثم يعود فيشرب ثم ينحيه فيحمد الله ، فيوجب الله عز وجل بها له الجنة •

وقال الكاظم عليه السلام : من حمد الله على نعمة فقد شكره ، وكان الحمد أفضل من تلك النعمة •

وعن عمر بن يزيد قال : قلت لأبي عبدالله عليه السلام : اني سألت الله عز وجل أن يرزقني مالاً فرزقني ، واني سألت الله أن يرزقني ولداً فرزقني ، وسألته أن يرزقني داراً فرزقني ، وقد خفت أن يكون ذلك استدراجاً • فقال : أما والله مع الحمد فلا •

وعنه عليه السلام انه خرج من المسجد وقد ضاعت دابته ، فقال : لئن ردها الله علي لاشكرن الله حق شكره ، فما لبث ان أوتي بها فقال : الحمد لله• فقيل له : جعلت فداك أليس قلت لاشكرن الله حق شكره ؟ فقال (ع) : ألم تسمعني قلت « الحمد لله » •

وعنه عليه السلام قال : كان رسول الله (ص) اذا ورد عليه أمر يسره قال : « الحمد لله على هذه النعمة » ، واذا ورد عليه أمر يغتم به قال : « الحمد لله على كل حال » •

وعنه عليه السلام قال : تقول ثلاث مرات اذا نظرت الى المبتلى من غير

أن تسمعه « الحمد لله الذي عافاني بما ابتلاك به ولو شاء لفعل » من قال ذلك لم يصبه ذلك البلاء أبداً .

(الفصل الثاني)

فى حده وحقيقته

اعلم ان الشكر من أفضل الأعمال ، وهو ينتظم من علم وحال وعمل : فالعلم هو الأصل فيورث الحال ، والحال يورث العمل ، والعلم هو معرفة النعمة من المنعم ، والحال هو الفرح الحاصل بانعامه ، والعمل هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه ، ويتعلق ذلك العمل بالقلب وبالجوارح وباللسان.

وينبغي لمن أراد شكر الله أن يعلم بأن النعم كلها من الله تعالى، والوسائط مسخرون سخرهم لك برحمته وألقى في قلوبهم من الاعتقاد والرأفة ما صاروا به مضطرين الى الايصال اليك ، وهذا هو الشكر بالقلب .

وأما الفرح بالنعم مع هيئة الخضوع والتواضع فهو أيضاً في نفسه شكر على حدة ، كما ان المعرفة شكر ، فان كان فرحك بالنعم خاصة لا بالنعمة ولا بالانعام بل من حيث انك تقدر النعمة على التوصل الى القرب من المنعم فهو المرتبة العليا من الشكر ، وأمارته ان لا تفرح بنعم الدنيا الا من حيث انها مزرعة الآخرة ومعينة عليها ، وتفرح بهذا المقدار وتحزن بكل نعمة تلهيك عن ذكر الله ، وهذا أيضاً شكر بالقلب .

وأما العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المنعم فهو يتعلق بالقلب واللسان والجوارح : أما بالقلب فقصد الخير واضماره لكافة الخلق ، واما باللسان فباظهار الشكر لله بالتحميدات الدالة عليه ، وأما بالجوارح فاستعمال نعم الله في طاعته والتوقي من الاستعانة بها على معصيته ، حتى ان شكر العينين ان يستر كل عيب يراه بمسلم ، وشكر الأذنين ان يستر كل عيب

يسمعه لمسلم ، فيدخل هذا وأمثاله في جملة شكر نعمة هذه الأعضاء .

بل قال أرباب المعرفة : ان من كفر نعمة العين فقد كفر نعمة الشمس أيضاً ، اذ الأبصار انما يتم بها ، وانما خلقتا ليبصر بهما ما ينفعه في دينه ودنياه ويتقي بهما ما يضره فيهما ، بل المراد من خلق الأرض والسماء وخلق الدنيا وأسبابها ان يستعين الخلق بها على الوصول الى الله ، ولا وصول اليه الا بمحبته والأنس به في الدنيا والتجافي عن غرورها ، ولا انس الا بدوام الذكر ، ولا محبة الا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر ، ولا يمكن الدوام على الذكر والفكر الا ببقاء البدن ، ولا يبقى البدن الا بالأرض والماء والهواء ، ولا يتم ذلك الا بخلق الأرض والسماء وخلق سائر الأعضاء ، وكل ذلك لأجل البدن ، والبدن مطية النفس ، والراجع الى الله هي المطمئنة بطول العبادة والمعرفة ، فكل من استعمل شيئاً في غير طاعة الله فقد كفر نعمة الله في جميع الأسباب التي لابد منها لاقدامه على تلك المعصية ، ولذا كان الشاكر الحقيقي قليلاً ، قال تعالى : « وقليل من عبادي الشكور » .

(الفصل الثالث)

فى بيان معنى الشكر فى حقه تعالى

لعلك تقول : ان الشكر انما يعقل في حق منعم هو صاحب حظ في الشكر ، فانا نشكر الملوك اما بالثناء ليزيد محلهم في القلوب ويظهر كرمهم عند الناس فيزيد صيتهم وجاههم ، أو بالخدمة التي هي اعانة لهم على بعض أغراضهم ، أو بالمثول بين أيديهم في صورة الخدم لتكثير سوادهم وزيادة جاههم ، وهذا كله محال في حقه تعالى لوجهين :

(أحدهما) انه تعالى منزه عن الحظوظ والأغراض والحاجة ونشر الجاه والحشمة وتكثير السواد ونحو ذلك .

(الثاني) ان جميع ما تتعاطاه باختيارنا فهو نعمة اخرى علينا من نعم الله ، اذ جوارحنا وقدرتنا وارادتنا وداعيتنا وسائر الأمور التي هي أسباب حركتنا ونفس حركتنا من خلق الله تعالى ونعمته ، فكيف نشكر نعمته بنعمته ؟

ولو اعطانا الملك مركوباً فأخذنا مركوباً آخر له وركبناه ، وأعطانا مركوباً آخر لم يكن الثاني شكراً للأول منا بل كان الثاني يحتاج الى شكر كما يحتاج الأول ، ثم لا يمكن شكر الشكر الا بنعمة اخرى فيؤدي ذلك الى أن يكون الشكر محالاً في حقه تعالى ، وقد ورد الشرع به فكيف طريق الجمع بينهما ؟

فاعلم ان هذا الخاطر قد خطر لداود أو لموسى على اختلاف الروايتين ففي الكافي عن الصادق عليه السلام قال : أوحى الله عز وجل الى موسى : يا موسى اشكرني حق شكري . فقال : يا رب وكيف اشكرك حق شكرك وليس من شكر أشكرك به الا وأنت انعمت به علي . قال : يا موسى الآن شكرتني حيث علمت ان ذلك مني .

وفي حديث آخر : وشكري لك نعمة اخرى منك توجب الشكر لك . فقال تعالى : اذا عرفت ان النعم مني رضيت منك بذلك شكراً .

وعن السجاد عليه السلام انه كان اذا قرأ هذه الآية « وان تعدو نعمة الله لا تحصوها » قال : سبحان من لم يجعل في أحد من معرفة نعمه الا المعرفة بالتقصير عن معرفتها كما لم يجعل في أحد من معرفة ادراكه أكثر من العلم بأنه لا يدركه .

والجواب عن الأول : ان طلب الله من عباده الشكر كسائر التكاليف يرجع نفعه اليهم لا اليه .

وان أردت ايضاح ذلك فاعلم ان ملكاً من الملوك لو أرسل الى عبد قد بعد عنه مركوباً وملبوساً ونقداً لأجل زاده في الطريق حتى يقطع به مسافة البعد ويقرب من حضرة الملك ، فذلك الملك يتصور له حالتان : الأولى ان

يكون قصده من احضار عبده القيام ببعض مهماته والحظ بخدمته ، والثانية ان لا يكون له حظ في حضوره أبداً ولا يزيد حضوره في ملكه مثقال ذرة ، ولكنه قصد بذلك ان يحظى العبد بالقرب منه وينال سعادة حضرته ليرجع النفع الى العبد نفسه لا الى الملك ، وارادة الله الشكر من عباده مثال الحالة الثانية •

(الفصل الرابع)

فى طريق تحصيل الشكر

وهو مركب من العلم والعمل ، بأن يعرف الله ويتفكر في مصنوعاته وينظر الى الأدنى في الدنيا فيشكر الله ، والى الأعلا في الدين فيجتهد في الوصول الى مرتبته ، ويشكر في المصائب على انه لم يصب بأكبر منها ، وانها لم تكن مصيبة دينية بل دنيوية ، وانه قد عجلت عقوبتها ولم تدخر للآخرة وان ثوابها خير له ، وانها تنقص من القلب حب الدنيا ، بل ربما بغضت الدنيا التي حبها رأس كل خطيئة اليه ، فهي في الحقيقة نعم يجب الشكر عليها ، اذ لا تخلو مصيبة عن تكفير خطيئة أو رياضة نفس أو رفع درجة •

وليسأل الله العافية فانها خير من البلاء ، فكان النبي والأئمة عليهم السلام يستعيذون بالله من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة ، وكانوا يقولون : « ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة » وكانوا يستعيذون من شماتة الأعداء ومن سوء القضاء ومن حلول البلاء ، وقال رسول الله (ص) : سلوا الله العافية ، فما اعطي عبد أفضل من العافية الا اليقين • وأشار باليقين الى عافية القلب من مرض الجهل •

الباب الخامس

فى الرجاء والخوف

وهما جناحان يطير بهما المقربون الى كل مقام محمود ، ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كؤود ، وتحقيقهما في فصول :

(الفصل الأول)

الرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده ، ولكن ذلك المحبوب متوقع لابد وان يكون له سبب ، فان كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه فاسم الرجاء عليه صادق ، وان كان ذلك انتظاراً مع انخرام أسبابه واضطرابها فاسم الغرور والحمق عليه أصدق من اسم الرجاء ، وان لم تكن الأسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتفاء فاسم التمني أصدق على انتظاره من اسم الرجاء .

وأيما كان فلا يطلق اسم الرجاء والخوف الا على ما يتردد فيه ، اما ما يقطع به فلا ، فلا يقال : أرجو طلوع الشمس وقت الطلوع وأخاف غروبها وقت الغروب ، ويقال : أرجو نزول المطر وأخاف انقطاعه .

وقد علم أرباب القلوب والعرفان بالبيان والوجدان والعيان ان الدنيا مزرعة الآخرة والقلب كالأرض والايمان كالبذر فيه والطاعات جارية مجرى تقليب الأرض وتطهيرها ومجرى حفر الأنهار وسياق الماء اليها ، والقلب المحب للدنيا كالأرض السبخة التي لا ينمو فيها البذر ، ويوم القيامة يوم الحصاد ، ولا يحصد أحد الا ما زرع ، ولا ينمى زرع الا من بذر الايمان ، وقلما ينفع الايمان مع خبث القلب بالأخلاق الرديئة ، كما لا ينمى زرع في أرض سبخة

فليقس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع •

فكل من طلب أرضاً طيبة وألقى فيها بذراً جيداً وأمده بما يحتاج اليه من سوق الماء في أوقاته ونقى الأرض عن الشوك والحشيش وسائر الموانع وجلس منتظراً من فضل الله دفع الصواعق المفسدة الى أن يتم الزرع ويبلغ غايته سمي انتظاره رجاءاً ، وان بث البذر في أرض صلبة سبخة مرتفعة لا ينصب اليها ماء ولم يشتغل بتعهد البذر أصلاً ثم انتظر الحصاد منه سمي انتظاره حمقاً وغروراً •

فينبغي للعبد أن يبث بذر الايمان في القلب ويسقيه بماء الطاعات ويطهر القلب عن شوك الأخلاق الرديئة وينتظر من فضل الله تثبيته على ذلك الى الموت وحسن الخاتمة المفضية الى المغفرة ، فاذا فعل ذلك كان انتظاره رجاءاً محموداً ، وان قطع عن بذر الايمان تعهده بماء الطاعات أو ترك القلب مشحوناً برذائل الأخلاق وانتظر المغفرة فانتظاره حمق وغرور لا رجاء ، ولهذا قال النبي (ص) : الدنيا مزرعة الآخرة • وقال (ص) : الأحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله تعالى • وقال تعالى : « ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله اولئك يرجون رحمة الله » أي اولئك ينبغي لهم أن يرجوا لا سواهم •

وقال تعالى : « فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا » •

وعن الصادق عليه السلام انه قيل لـه : ان قوماً من مواليك يلمون بالمعاصي ويقولون : نرجو • فقال : كذبوا ليسوا لنا بموال ، اولئك قوم ترجحت بهم الأماني ، من رجى شيئاً عمل له ، ومن خاف شيئاً هرب منه •

وقال عليه السلام : لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً ، ولا يكون خائفاً راجياً حتى يكون عاملاً لما يخاف ويرجو •

وقال حكيم : من خاف شيئاً هرب منه ، ومن خاف الله هرب اليه .

وقال آخر : من أعظم الاغترار التمادي في الذنوب على رجاء العفو من غير ندامة ، وتوقع القرب من الله عز وجل بغير طاعة ، وانتظار زرع الجنة ببذر النار ، وطلب دار المطيعين بالمعاصي ، وانتظار الجزاء بغير عمل .

واعلم ان الرجاء يورث طول المجاهدة بالأعمال والمواظبة على الطاعات في جميع الأحوال ، ومن آثاره التلذذ بدوام الاقبال على الله والتنعم بمناجاته والتلطف في التملق له ، فان هـذه الأحوال تظهر على من يرجو مثله من العبيد فكيف لا تظهر في حق الله . ومن ذلك يعلم ان جلّ رجاءنا بل كله حمق وغرور ، فالمستعان بالله ولا حول ولا قوة الا بالله .

(الفصل الثاني)

فى فضل الرجاء وترجيحه على الخوف

اعلم أن العمل على الرجاء اعلى منه على الخوف ، لأن أقرب العباد الى الله أحبهم اليه ، والحب يغلب بالرجاء . واعتبر ذلك بملكين يخدم أحدهما خوفاً من عقابه والآخر رجاءاً لثوابه ، ولذلك ورد في الرجاء وحسن الظن رغائب ، ولا سيما وقت الموت ، قال الله تعالى : « قل يا عبادي الذين اسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم » وقال تعالى : « ان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم » .

وعيَّر الله قوماً فقال : « وذالكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم وقال : « وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً » .

وفي أخبار يعقوب : ان الله تعالى أوحى اليه : أتدري لِمَ فرقت بينك وبين يوسف ؟ لقولك « اني أخاف ان يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون » لِمَ خفت الذئب ولم ترجني ؟ ولِمَ نظرت الى غفلة اخوته ولم تنظر الى حفظي له؟

وقال (ع) : لا يموتن أحدكم الا وهو يحسن الظن بالله .

وقال (ع) : يقول الله أنا عند ظن عبدي بي ، فليظن بي ما شاء .

ودخل (ع) على رجل وهو في النزع فقال : كيف تجدك ؟ قال : أجدني أخاف ذنوبي وأرجو رحمة ربي . فقال (ع) : ما اجتمعا في قلب عبد في هذا الموطن الا أعطاه الله ما رجى وآمنه مما يخاف .

وقال (ص) : ان الله يقول للعبد يوم القيامة : ما منعك اذ رأيت المنكر أن تنكر فان لقنه الله حجته ، قال : يا رب رجوتك وخفت الناس . قال : فيقول الله تعالى : قد غفرت لك .

وقال الباقر عليه السلام قال رسول الله (ص) : قال الله تعالى : لا يتكل العاملون على أعمالهم التي يعملونها لثوابي ، فانهم لو اجتهدوا وأتعبوا أنفسهم أعمارهم في عبادتي كانوا مقصرين غير بالغين في عبادتهم كنه عبادتي فيما يطلبون عندي من كرامتي والنعيم في جناتي ورفيع الدرجات العلى في جواري ، ولكن برحمتي فليثقوا وفضلي فليرجوا والى حسن الظن بي فليطمئنوا ، فان رحمتي عند ذلك تدركهم ، فاني أنا الله الرحمن الرحيم وبذلك تسميت .

وعنه (ع) قال : وجدنا في كتاب علي (ع) : ان رسول الله (ص) قال وهو على منبره : والذي لا إله إلا هو ما اعطي مؤمن خير الدنيا والآخرة الا بحسن ظنه بالله ورجائه له وحسن خلقه والكف عن اغتياب المؤمنين ، والذي لا إله إلا هو لا يعذب الله مؤمناً بعد التوبة والاستغفار الا بسوء ظنه بالله وتقصيره من رجائه وسوء خلقه واغتيابه للمؤمنين ، والذي لا إله إلا هو لا يحسن ظن مؤمن بالله الا كان الله عند ظن عبده المؤمن ، لأن الله كريم بيده الخيرات يستحي أن يكون عبده المؤمن قد أحسن به الظن ثم يخالف ظنه ورجاه ، فأحسنوا بالله الظن وارغبوا اليه .

وقال الصادق عليه السلام : حسن الظن بالله أن لا ترجو إلا الله ولا تخاف الا ذنبك .

(الفصل الثالث)

في دواء الرجاء وسبب حصوله

اعلم ان هذا الدواء يحتاج اليه أحد رجلين : إما رجل غلب عليه اليأس فيترك العبادة ، وإما رجل غلب عليه الخوف فأسرف في المواظبة على العبادة حتى أضر بنفسه وأهله ، وهما مائلان عن الاعتدال الى طرفي الافراط والتفريط فيحتاجان الى علاج ودواء يردهما الى الاعتدال .

واما العاصي المغرور المتمني على الله مع الاعراض عن العبادة واقتحام المعاصي فالرجاء في حقه سم قاتل ، بل دواؤه الخوف والأسباب المهيجة له ، ودواء الرجاء أمران : الاعتبار ، والآيات والأخبار :

(أما الاعتبار) فالتدبر في كثرة نعم الله على العبد في الدنيا . وسوابق فضل الله من دون شفيع ، وما وعد من جزيل ثوابه من دون استحقاق ، وما أنعم بما يسد في الدارين من دون سؤال وسعة الرحمة وسبقها الغضب ، وانه أرحم من الأم الشفيقة بأولادها الصغار ، ورحمته في الآخرة أوسع منها في الدنيا كما ورد ، فهو لا محالة يرحمهم في الآخرة كما رحمهم في الدنيا .

(والثاني) استقراء الآيات والأخبار الواردة في فضل الرجاء ، سيما فيما ورد في أدعية أئمة الهدى (ع) ، ففيما ورد عنهم عليهم السلام : إلهي أمرتنا أن نعفو عمن ظلمنا وقد ظلمنا أنفسنا فاعف عنا فانك أولى بذلك منا ، وأمرتنا ان لا نرد سائلاً عن أبوابنا وقد جئناك سؤالاً فلا تردنا ، وأمرتنا أن نعتق من مماليكنا من قد شاب في ملكنا وقد شبنا في ملكك فاعتق رقابنا من النار ، وأمرتنا بالاحسان الى ما ملكت ايماننا ونحن ارقاؤك فاعتقنا من النار ، وأمرتنا أن نتصدق على فقرائنا ونحن فقراؤك فتصدق علينا .

وفيها : اللهم انك قلت لنبيك صلى الله عليه وآله وسلم « ولسوف يعطيك ربك فترضى » اللهم ان نبيك لا يرضى بأن تعذب أحداً من امته في النار •

وهذا المضمون في كلماتهم عليهم السلام كثير •

(الفصل الرابع)

فى الخوف

الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال وهو أيضاً ينتظم من علم وحال وعمل :

(أما العلم) فهو العلم بالسبب المفضي الى المكروه ، كمن جنى على ملك ثم وقع في يده وهو يخاف القتل ويجوز العفو والافلات ، ولكن يكون تألم قلبه بالخوف بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية الى قتله ، وهو تفاحش جنايته وكون الملك في نفسه غضوباً منتقماً ، وكون هذا الجاني عاطلاً عن كل حسنة تمحو أثر جنايته عند الملك ، فالعلم بتظاهر هذه الأسباب سبب لقوة الخوف وشدة تألم القلب ، ولسبب ضعف هذه الأسباب يضعف الخوف •

فهذا العلم سبب لاحتراق القلب وتألمه وخوفه وهو الحال ، وهذا الحال يثمر فعلاً بالاستعداد والتهيؤ لما يصلح للعفو •

والخوف من الله تارة يكون بمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته ، وتارة يكون بكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصي ، وتارة يكون بهما جميعاً وبحسب معرفته بعيوب نفسه ومعرفته بجلال الله ، فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه ، ولذلك قال (ص) : أنا أخوفكم لله • ولذا قال تعالى : « انما يخشى الله من عباده العلماء » •

ثم اذا كملت تلك المعرفة وأورثت حال الخوف واحتراق القلب أفضى أثر الحرقة من القلب على القلب وعلى البدن وعلى الجوارح وعلى الصفات :

أما في البدن فبالنحول والصفار والبكاء ونحو ذلك .

وأما في الجوارح فبكفها عن المعاصي وتقييدها بالطاعات تلافياً لما فرط واستعداداً للمستقبل ، ولذلك قيل : ليس الخائف من يبكي ويمسح عينيه بل من يترك ما يخاف بأن يعاقب عليه .

وأما الصفات فهو أن يقمع الشهوات بالخوف ويؤدب الجوارح ويكدر اللذات ، فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة ، كما يصير العسل مكروهاً عند من يشتهيه اذا عرف ان فيه سماً ، فتحترق الشهوات بالخوف وتتأدب الجوارح ويحصل في القلب الذبول والخشوع والذلة والاستكانة ، ويفارقه الكبر والحقد والحسد ، بل يصير مستوعب الهمة بخوفه والنظر في خطر عاقبته فلا يتفرق لغيره ولا يكون له شغل الا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والضنة بالأنفاس واللحظات ومؤاخذة النفس في الخطرات والخطوات والكلمات ، فيكون ظاهره وباطنه مشغولاً بما هو خائف منه لا متسع فيه لغيره .

هذا حال من غلبه الخوف واستولى عليه ، وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره في الأعمال الامتناع من المحظورات ، ويسمى الكف الحاصل من المحظورات ورعاً ، فان زادت قوته وكف عما يتطرق اليه امكان التحريم فيسمى ذلك تقوى ، اذ التقوى ان يترك ما يريبه الى ما لا يريبه ، وقد يحمله على ان يترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس وهو الصدق في التقوى ، فاذا انظم اليه التجرد للخدمة فصار لا يبني ما لا يسكنه ولا يجمع ما لا يأكله ولا يلتفت الى دنيا يعلم انها تفارقه ولا يصرف الى غير الله تعالى نفساً من أنفاسه فهو الصدق وصاحبه جدير بأن يسمى صديقاً .

ويدخل في الصدق التقوى ، وفي التقوى الورع ، وفي الورع العفة ، فانها عبارة عن الامتناع عن مقتضى الشهوات خاصة ، فاذا الخوف يؤثر في الجوارح بالكف والاقدام .

(الفصل الخامس)

فى فضيلة الخوف وسببه والترغيب فيه

قال الله تعالى : « انما يخشى الله من عباده العلماء » وقال تعالى : « رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه » وقال تعالى : « وخافون ان كنتم مؤمنين » وقال تعالى : « سيذكر من يخشى » وقال تعالى : « فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً » .

وقال النبي (ص) : ما من مؤمن تخرج من عينيه دمعة وان كانت مثل رأس الذباب من خشية الله ثم تصيب شيئاً من حر وجهه الا حرمه الله على النار.

وقال (ص) : اذا اقشعر قلب المؤمن من خشية الله تحاتت عنه خطاياه كما يتحات من الشجر ورقها .

وقال (ص) : لا يلج النار أحد بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع .

وقال الصادق (ع) لاسحاق بن عمار : يا اسحاق خف الله كأنك تراه وان كنت لا تراه فانه يراك ، وان كنت ترى انه لا يراك فقد كفرت ، وان كنت تعلم انه يراك ثم برزت له بالمعصية فقد جعلته من أهون الناظرين اليك .

وعنه عليه السلام قال من خاف الله خاف منه كل شيء ، ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء .

وعنه عليه السلام : من عرف الله خاف الله ، ومن خاف الله سخت نفسه عن الدنيا .

وعنه (ع) : ان من العبادة شدة الخوف من الله ، يقول الله : « انما يخشى الله من عباده العلماء » ، وقال تعالى : « فلا تخشو الناس واخشونِ » وقال تعالى : « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً » .

وقال (ع) : ان حبّ الشرف والذكر لا يكونان في قلب الخائف الراهب .

وقال (ع) : المؤمن بين مخافتين : ذنب قد مضى لا يدري ما صنع الله فيه ، وعمر قد بقي لا يدري ما يكتسب فيه من المهالك ، فهو لا يصبح إلا خائفاً ولا يصلحه الا الخوف .

وعنه (ع) : لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً ، ولا يكون خائفاً راجياً حتى يكون عاملاً لما يخاف ويرجو .

والخوف يحصل من الايمان بالله وبرسوله ، وبما جاء به الرسول من الحساب والعذاب والعقاب، ولحصول الخوف طريقان أحدهما أعلا من الآخر.

ومثال ذلك ان الصبي اذا كان في بيت فدخل عليه سبع أوحية ربما كان لا يخاف ، بل ربما مد يده الى الحية ليأخذها ويلعب بها ولكن اذا كان معه أبوه ورآه الصبي قد ارتعدت فرائصه وهو يحتال في الهرب وقد غلب عليه الخوف ، حصل له الخوف من ذلك ، لعلمه بأنه لا يخاف الا من سبب مخوف في نفسه ، فخوف الأب عن بصيرة ومعرفة بصفة الحية وسمها وسطوة السبع وبطشه ، وخوف الولد انما كان بمجرد التقليد ، لأنه يحسن الظن بأبيه ويعلم انه لا يخاف الا من سبب مخوف ، فيعلم ان السبع والحية مخوفان ولا يعرف وجههما ، وخوف الأنبياء والأوصياء والعلماء من القسم الأول وخوف عموم الخلق من المؤمنين من القسم الثاني .

ويكفي في الخوف التفكير في الآيات القرآنية ، فان أكثرها تخويفات وتهديدات لمن تدبر ، ولولم يكن الا قوله تعالى : « سنفرغ لكم أيها الثقلان » وقوله تعالى : « واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى » حيث علق المغفرة على أربعة شروط يعجز العبد عن آحادها .

وقوله تعالى : « فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المفلحين » وقوله تعالى : ليسئل الصادقين عن صدقهم » وقوله تعالى : «أفأمنوا

مكر الله » وقوله تعالى : « وان منكم الا واردها » وقوله تعالى : « اعملوا ما شئتم » وقوله تعالى : « وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءاً منثوراً وقوله تعالى : « والعصر ان الانسان لفي خسر . الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » حيث شرط أربعة شروط للخلاص من الخسران لكان فيها الكفاية .

وروي ان النبي (ص) كان اذا هبت ريح عاصفة يتغير وجهه ويقوم ويتردد في الحجرة ويدخل ويخرج خوفاً من عذاب الله .

وقرأ (ص) آية في سورة الحاقة فصعق . وقال تعالى : « فخر موسى صعقاً » .

وكان (ص) اذا دخل في الصلاة يسمع لصدره ازيز كأزيز المرجل .

وروي ان داود (ع) كان يقول في مناجاته : إلهي اذا ذكرت خطيئتي ضاقت على الأرض برحبها ، واذا ذكرت رحمتك ارتدت الي روحي ، سبحانك إلهي أتيت أطباء عبادك ليداووا خطيئتي فكلهم عليك يدلني ، فبؤساً للقانطين من رحمتك .

وقيل انه (ع) ذكر ما صدر منه ذات يوم فوثب صارخاً واضعاً يده على رأسه حتى لحق بالجبال ، فاجتمعت اليه السباع فقال : ارجعوا لا أريدكم انما أريد كل بكاء على خطيئته ، فلا يستقبلني الا البكاء .

وكان يعاتب في كثرة البكاء فيقول : دعوني أبكي قبل خروج يوم البكاء قبل تحريق العظام واشتعال الحشا ، وقبل ان يؤمر بي ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

وحكي انه عليه السلام كان اذا أراد أن ينوح مكث قبل ذلك سبعاً لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يقرب النساء ، فاذا كان قبل ذلك بيوم أخرج له الى البرية منبراً ، فيأمر سليمان أن ينادي بصوت يستقرىء البلاد وما

حولها من الغياض والآكام والجبال والبراري والصوامع والبيع فينادي : ألا من أراد أن يسمع نوح داود على نفسه فليأت • قال : فتأتي الوحوش من البراري والآكام وتأتي السباع من الغياض وتأتي الهوام من الجبال وتاتي العذارى من خدورهن ويجتمع الناس لذلك اليوم ، ويأتي داود حتى يرقى على المنبر ويحيط به بنو اسرائيل وكل صنف على حدة يحيطون به وسليمان عليه السلام قائم على رأسه ، فيأخذ في الثناء على ربه ، فيضجون بالبكاء والصراخ ، ثم يأخذ في ذكر الجنة والنار فتموت الهوام وطائفة من الوحوش والناس والسباع ، ثم يأخذ في أهوال القيامة ، وفي النياحة على نفسه فيموت من كل نوع طائفة ، فاذا رأى سليمان كثرة الموتى قال : يا أبتاه قد مزقت المستمعين كل ممزق وماتت طوائف من بني اسرائيل ومن الوحوش والهوام فيأخذ في الدعاء ، فبينا هو كذلك اذ ناداه بعض عباد بني اسرائيل : يا داود اعجلت بطلب الجزاء على ربك ؟ فيخر مغشياً عليه ، فاذا نظر سليمان الى ما أصابه أتي بسرير فحمله عليه ثم أمر منادياً ينادي : ألا من كان له مع داود حميم أو قريب فليأت بسرير فليحمله ، فان الذين كانوا معه قد قتلهم ذكر الجنة والنار ، فكانت المرأة تأتي بالسرير وتحمل قريبها وتقول : يا من قتله ذكر النار يا من قتله خوف الله • ثم اذا أفاق داود قام ووضع يده على رأسه ودخل بيت عبادته وأغلق بابه ويقول : يا إله داود أغضبان أنت على داود • ولا يزال يناجي فيأتي سليمان (ع) فيقف على الباب ويستأذن ثم يدخل ومعه قرص من شعير ويقول : يا أبتاه تقوَّ بهذا على ما تريد ، فيأكل من ذلك القرص ما شاء الله ثم يخرج الى بني اسرائيل فيكون بينهم •

ويحكى ان ابراهيم (ع) كان اذا ذكر ما صدر منه يغشى عليه ويسمع اضطراب قلبه ميلاً في ميل ، فيأتيه جبرئيل فيقول له : الجبار يقرئك السلام ويقول : هل رأيت خليلاً يخاف خليله ؟ فيقول : يا جبرئيل اني اذا ذكرت

خطيئتي نسيت خلتي .

وكان يسمع أزيز قلبه عليه السلام اذا كان في الصلاة مسيرة ميل خوفاً من ربه .

ويكفيك في ذلك بكاء الأئمة الطاهرين عليهم السلام وخوفهم ومناجاتهم فما بالنا لا نخاف ألكثرة طاعاتنا أم لقلة معاصينا ام لغفلتنا وقسوتنا ؟! فلا قرب الرحيل ينبهنا ولا كثرة الذنوب تحركنا ولا مشاهدة أحوال الخائفين تخوفنا ولا خوف سوء الخاتمة يزعجنا .

(الفصل السادس)

قد تحصل من ملاحظة ما سبق ان الخوف من الله على مقامين :

(احدهما) الخوف من عذابه ، وهو خوف عموم الخلق المؤمنين بالجنة والنار ، واذا ضعف هذا الخوف فسببه ضعف الايمان والغفلة ، ويقوى بالتذكير والوعظ وملازمة الفكر في أهوال القيامة وأصناف العذاب والنظر في أحوال الخائفين .

(والثاني) — وهو الأعلى — أن يكون الله تعالى هو المخوف ، بأن يخاف البعد والحجاب عنه ، ويرجو القرب منه وهو خوف من عرفه من الأنبياء والأوصياء والعلماء ممن عرفوا من صفاته ما يقتضي الهيبة والخوف والحذر المطلعين على سر قوله تعالى : « ويحذركم الله نفسه » .

ثم ان الخوف لا يتحقق الا بانتظار مكروه : والمكروه إما أن يكون مكروهاً في ذاته كالنار ، وإما أن يكون مكروهاً لأنه يفضي الى المكروه ، كما تكره المعاصي لأدائها الى العذاب .

والخائفون من القسم الثاني منهم من يغلب عليه خوف الموت قبل التوبة ، أو خوف نقض التوبة ، أو خوف ضعف القوة عن الوفاء بتمام حقوق الله ،

أو خوف زوال رقة القلب وتبديلها بالقساوة ، أو خوف الميل عن الاستقامة ، أو خوف استيلاء العادة في اتباع الشهوات المألوفة ، أو خوف ان يكله الله الى حسناته التي اتكل عليها وتعزز بها في عباد الله ، أو خوف البطر بكثرة نعم الله عليه ، أو خوف الاشتغال عن الله بغير الله ، أو خوف الاستدراج بتواتر النعم ، أو خوف انكشاف غوائل طاعاته حتى يبدو له من الله ما لم يكن يحتسب ، أو خوف تبعات الناس عنده في الغيبة والخيانة والغش واضمار السوء ، أو خوف ما لا يدري ان يحدث في بقية عمره ، أو خوف تعجيل العقوبة في الدنيا والافتضاح قبل الموت ، أو خوف الاغترار بزخارف الدنيا ، أو خوف خاتمة السوء ، أو خوف اطلاع الله على سريرته في حال غفلته ، أو خوف السابقة التي سبقت له في الأزل •

وهذه كلها مخاوف العارفين ، ولكل منها خصوص فائدة ، وهو سلوك سبيل الحذر عما يفضي الى المخوف ، فمن يخاف استيلاء العادة عليه فليواضب على الفطام عن العادة ، والذي يخاف من اطلاع الله على سريرته يشتغل بتطهير قلبه ••• وهكذا •

وأما الخائفون من المكروه لذاته فمنهم من يغلب عليهم سكرات الموت وشدته أو سؤال منكر ونكير أو عذاب القبر أو هول المطلع أو هيبة الموقف بين يدي الله تعالى أو الحياء من كشف الستر أو السؤال عن النقير والقطمير أو الخوف من الصراط وحدته وكيفية العبور عليه أو الخوف من النار واغلالها وأهوالها أو الخوف من الحرمان عن الجنة أو النعيم في الملك المقيم أو من نقصان الدرجات أو الخوف من الحجاب عن الله ، وهو اعلاها رتبة ، وهو خوف العارفين من الأنبياء والعلماء والصالحين •

(الفصل السابع)

قد عرفت توارد الأخبار في فضيلة الخوف والرجاء ، وربما يعتري الناظر الشك في كون أيهما أفضل ؟

فاعلم ان ذلك يضاهي قول القائل : « الخبز أفضل أم الماء » .

وجوابه : ان الخبز أفضل للجائع والماء أفضل للعطشان ، وان اجتمعا نظر الى الأغلب : فان كان الجوع أغلب فالخبز أفضل ، وان كان العطش أغلب فالماء أفضل ، وان استويا فهما متساويان .

وكذا إن كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله والاغترار به فالخوف أفضل ، وان كان الأغلب هو اليأس والقنوط من رحمة الله فالرجاء أفضل .

وأما بالنسبة الى المؤمن المتقي الذي ترك ظاهر الاثم وباطنه وخفيه وجليه فالأصلح به أن يعتدل خوفه ورجاؤه ، كما ورد في الأخبار ، ففي الكافي عن الصادق عليه السلام وقد قيل له : ما كان في وصية لقمان ؟ فقال : كان فيها الأعاجيب وكان أعجب ما كان فيها ان قال لابنه : خف الله خيفة لو جئته ببر الثقلين لعذبك ، وارج الله رجاءاً لو جئته بذنوب الثقلين لرحمك . ثم قال (ع) : كان أبي يقول : انه ليس من عبد مؤمن الا وفي قلبه نوران نور خيفة ونور رجاء ، لو وزن هذا لم يزد على هذا ، ولو وزن هذا لم يزد على هذا .

ويرشد الى ذلك أيضاً قوله تعالى في وصف من أثنى عليهم : « ويدعوننا رهباً ورغباً » وقوله تعالى : « يدعون ربهم خوفاً وطمعاً » .

وغلبة الرجاء في غالب الناس مستندها الاغترار وقلة المعرفة ، والأصلح لهم قبل الاشراف على الموت غلبة الخوف ، وعند الموت غلبة الرجاء وحسن

الظن كما ورد في الأخبار ، والسر في ذلك ان الخوف جار مجرى السوط الباعث على العمل ، وقد انقضى وقت العمل ، وهو لا يطيق هناك أسباب الخوف لأنها تقطع نياط قلبه وتعين على تعجيل موته . وروح الرجاء يقوي قلبه ويحبب اليه ربه الذي اليه رجاؤه ، ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه .

واعلم ان الرجاء محمود الى حد ، فان تجاوز الى الأمن فهو خسران ، قال تعالى : « ولا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون » ، وكذا الخوف محمود الى حد فان جاوز الى القنوط فهو ضلال « ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون » ، أو الى اليأس فهو كفر « ولا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون » .

الباب السادس

في الزهد

والكلام فيه في فصول :

قال تعالى : « من كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب » وقال تعالى : « ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى » .

وفي الحديث : أوحى الله الى الدنيا أن اخدمي من خدمني ، ونغصي وكدري عيش من خدمك .

وقال النبي (ص) : من أصبح وهمه الدنيا شتت الله عليه أمره ، وفرق عليه ضيعته ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا الا ما كتب له ، ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله له همه ، وحفظ عليه ضيعته ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة .

وقال (ص) : اذا رأيتم العبد قد أعطي صمتاً وزهداً في الدنيا فاقربوا منه ، فانه يلقى الحكمة ، وقد قال الله تعالى : « ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً » .

وعنه عليه السلام : أزهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما أيدي الناس يحبك الناس .

وعنه صلى الله عليه وآله : من أراد أن يؤتيه الله علماً بغير تعلم وهدى بغير هداية فليزهد في الدنيا .

وقال (ص) : من زهد في الدنيا أحل الله الحكمة في قلبه فأنطق بها لسانه وعرفه داء الدنيا ودواءها واخرجه منها سالماً الى دار السلام .

وقال (ص) : من آثر الدنيا على الآخرة ابتلاه الله بثلاث : همٌ لا يفارق قلبه أبداً ، وفقر لا يستغنى معه أبداً ، وحرص لا يشبع معه أبداً .

وقال (ص) : لا يستكمل العبد الايمان حتى يكون أن لا يعرف أحب اليه من أن يعرف ، وحتى يكون قلة الشيء أحب اليه من كثرته .

(الفصل الثاني)

في حقيقته

الزهد هو صرف الرغبة عن الدنيا وعدم ارادتها بقلبه الا بقدر ضرورة بدنه ، وقد تقدم تحقيق معنى الدنيا ، ومنه يعلم ان الزهد في الدنيا لا ينافي كثرة المال والخدم ونحوهما الا اذا كان محباً لها بقلبه وراغباً فيها وتشغله عن ذكر الله .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام : الزهد كله بين كلمتين من القرآن ، قال سبحانه : « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » . ومن لم يأس على الماضي ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه .

وقال عليه السلام : الزهد في الدنيا قصر الأمل ، وشكر كل نعمة ، والورع عن كل ما حرم الله عز وجل .

وقال الصادق عليه السلام : ليس الزهد في الدنيا باضاعة المال ولا تحريم الحلال ، بل الزهد في الدنيا أن لا تكون بما في يدك أوثق منك بما عند الله .

نعم لما كان جمع المال ونحوه بالنسبة الى حال أكثر الناس لضعف نفوسهم يحرك الرغبة في الدنيا فزهدهم انما يكون في تركه ، كما ورد في خبر آخر عن الصادق عليه السلام حيث سئل عن الزهد فقال : الذي يترك حلالها مخافة حسابه ، ويترك حرامها مخافة عقابه .

وفي مصباح الشريعة : قال الصادق عليه السلام : الزهد مفتاح باب الآخرة والبراءة من النار ، وهو تركك كل شيء يشغلك عن الله من غير تأسف على فوتها ولا اعجاب في تركها ولا انتظار فرج منها وطلب محمدة عليها ولا عوض لها ، بل ترى فوتها راحة وكونها آفة ، وتكون أبداً هارباً من الآفة معتصماً بالراحة . والزاهد الذي يختار الآخرة على الدنيا والذل على العز والجهد على الراحة والجوع على الشبع وعافية الآجل على محبة العاجل والذكر على الغفلة ، وتكون نفسه في الدنيا وقلبه في الآخرة .

(الفصل الثالث)

في أقسام الزهد ومراتبه

اعلم ان الزهد في نفسه على ثلاث درجات :

(الأولى) وهي السفلى ان يزهد في الدنيا وهو لها مشتهي وقلبه اليها مائل ونفسه اليها ملتفتة ولكنه يجاهدها ويكفها ، وهي الدرجة الأولى من الزهد .

(الثانية) أن يترك الدنيا طوعاً لاستحقاره إياها بالاضافة الى الآخرة

المرغوب فيها ، كالذي يترك درهماً لأجل درهمين ، فانه لا يشق عليه ذلك ، وهو يظن بنفسه انه ترك شيئاً له قدر لما هو أعظم قدراً منه .

(الثالثة) وهي العليا ان يزهد طوعاً ويزهد في زهده فلا يرى زهده ، اذ لا يرى انه ترك شيئاً ، حيث عرف ان الدنيا لا شيء ، فيكون كمن ترك نواة وأخذ جوهرة ، فلا يرى ذلك معاوضة ، وهذا كمال الزهد .

ومثله مثل من منعه من باب الملك كلب على بابه ، فألقى اليه لقمة خبز فشغله بنفسه ودخل الباب ونال القرب عند الملك حتى نفذ أمره في جميع مملكته ، افترى انه يرى لنفسه يداً عند الملك بلقمة خبز ألقاها الى الكلب في مقابلة ما ناله ، فالشيطان كلب على باب الله يمنع الناس من الدخول والدنيا كلقمة خبز يأكلها ، فلذتها حال المضغ وتنقضي على القرب بالابتلاع ، ثم يبقى ثقله في المعدة ، ثم ينتهي الى النتن والقذر ويحتاج الى اخراج الثفل ، فمن يتركها لينال قرب الملك كيف يلتفت اليها ؟!

وينقسم الزهد قسمة اخرى بالاضافة الى المرغوب فيه الى ثلاث درجات:

(أسفلها) ان يكون المرغوب فيه النجاة من النار وسائر الآلام ، كعذاب القبر ومناقشة الحساب وخطر الصراط ، وهذا زهد الخائفين .

(وأوسطها) ان يزهد رغبة في ثواب الله ونعيمه واللذات الموعودة في جنته ، وهذا زهد الراجين .

(واعلاها) أن لا يكون له رغبة الا في الله ولقائه ، فلا يلتفت قلبه الى الآلام لقصد الخلاص منها ولا الى اللذات لقصد نيلها والظفر بها بل هو مستغرق الهم بالله ، وهو الذي أصبح وهمه هم واحد ، فهو لا يطلب غير الله لأن من طلب غير الله فقد عبده ، وكل مطلوب معبود وكل طالب عبد بالاضافة الى مطلوبه ، وهذا زهد المحبين والعارفين .

وينقسم أيضاً الى فرض ونفل وسلامة : فالفرض هو الزهد في الحرام ،

والنفل هو الزهد في الحلال ، والسلامة هو الزهد في الشبهات •

واعلم ان للزاهد الحقيقي ثلاث علامات :

(الأولى) ان لا يفرح بموجود ولا يحزن على مفقود ، كما أشار اليه أمير المؤمنين في الاستنباط من قوله تعالى : « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » وهذا علامة الزهد في المال •

(والثانية) ان يستوي عنده مادحه وذامه ، وهو علامة الزهد في الجاه•

(والثالثة) ان يكون انسه بالله تعالى والغالب على قلبه حلاوة الطاعة •

(الفصل الرابع)

ليعلم ان من ثمرة الزهد السخاء ومن ثمرة الرغبة في الدنيا البخل ، فالمال ان كان مفقوداً فالأليق بحال الانسان القناعة ، وان كان موجوداً فالأليق بحال صاحبه السخاء والبذل لأهله واصطناع المعروف •

والسخاء من أخلاق الأنبياء واصول النجاة ، والسخي حبيب الله •

وقال النبي (ص) : السخاء شجرة من شجر الجنة أغصانها متدلية على الأرض ، فمن أخذ منها غصناً قاده ذلك الغصن الى الجنة •

وقال النبي (ص) : قال جبرئيل : قال الله تعالى : ان هذا دين ارتضيته لنفسي ، ولن يصلحه الا السخاء وحسن الخلق ، فأكرموه بهما ما استطعتم •

وقال (ص) : ان من موجبات المغفرة بذل الطعام وافشاء السلام وحسن الكلام •

وقال (ص) : تجافوا عن ذنب السخي ، فان الله أخذ بيده كلما عثر أقاله •

وقال (ص) : طعام الجواد دواء ، وطعام البخيل داء •

وقال (ص) : ان السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة بعيد من النار ، وان البخيل بعيد من الله بعيد من الناس بعيد من الجنة قريب

من النار ، وجاهل سخي أحب الى الله من عابد بخيل ، وادوى الداء البخل •

واعلم ان أرفع درجات السخاء الايثار ، وهو أن يجود بالمال مع الحاجة اليه ، قال الله تعالى في معرض المدح : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » • وقال تعالى : « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً » •

وقال النبي (ص) : أيما امرىء اشتهى شهوة فردّ شهوته وآثر على نفسه غفر له •

وينبغي للفقير أن لا يمنع بذل قليل ما يفضل عنه ، فان ذلك جهد المقل ، وفضله أكثر من أموال كثيرة تبذل عن ظهر غني •

الباب السابع

فى محبة الله تعالى والأنس به

وفيه فصول :

(الفصل الأول)

فى حقيقتها

اعلم ان الحب للشيء عبارة عن الميل اليه والالتذاذ به ، وهو فرع معرفة ذلك الشيء ، ومعرفته قد تكون بالحواس وقد تكون بالقلب ، وكلما كانت المعرفة به أقوى واللذة أشد وأكثر كان الحب أقوى •

ولا ريب ان البصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر ، والقلب أشد ادراكاً من العين ، وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار ، فتكون لا محالة لذة القلوب بما تدركه من الأمور الشريفة الإلهية التي تجل عن أن تدركها الحواس أتم وأبلغ ، فيكون ميل الطبع السليم والعقل الصحيح اليه أقوى ، فلا ينكر اذاً حب الله تعالى الا من قعد به القصور في

درجة البهائم فلم يتجاوز ادراكه الحواس •

وكما ان الانسان يحب نفسه وكمال نفسه وبقاء نفسه كذلك قد يحب غيره لذاته لا لحظ يناله منه وراء ذاته ، بل تكون ذاته عين حظه ، وهذا هو الحب الحقيقي البالغ الذي يوثق به •

وان احتجت الى شاهد على ذلك في عالم الدنيا فانظر الى الطباع السليمة كيف تراها تستلذ بالنظر الى الأنوار والأزهار والأطيار الحسنة والألوان المليحة ، حتى ان الانسان لتنفرج عنه الغموم بالنظر اليها لا لطلب حظ وراء النظر •

وكان رسول الله (ص) يعجبه النظر الى الخضرة والماء الجاري ، فالخضرة والماء الجاري محبوبان لا لشرب الماء وأكل الخضرة •

ثم الحسن والجمال ليسا مقصورين على مدركات البصر ولا على تناسب الخلقة ، اذ يقال : هذا صوت حسن ، وهذا خلق حسن ، وهذا علم حسن ، وهذه سيرة حسنة ، وليس شيء من هذه الصفات يدرك بالبصر • بل ليس الحسن والجمال مقصوراً على مدركات الحواس ، اذ كثير منها يدرك بالبصيرة الباطنة ، ولذا ترى الطباع السليمة مجبولة على حب الأنبياء والأئمة عليهم السلام ، مع انهم لم يشاهدوهم •

ولما تواتر وصف أمير المؤمنين بالشجاعة وحاتماً بالسخاء أحبهما القلوب حباً ضرورياً بدون نظر الى صورة محسوسة ولا عن حظ يناله المحب منهما •

ومن كانت البصيرة الباطنة أغلب عليه من الحواس الظاهرة كان حبه للمعاني الباطنة أكثر من حبه للمعاني الظاهرة •

ثم كل محب إما أن يحب نفسه أو يحب غيره ، ومحبة الغير إما لحسنه وجماله أو لاحسانه وكماله أو لمجانسته بينه وبين المحب :

أما محبة النفس فهي أشد وأقوى ، لأن المحبة انما تكون بقدر الملائمة والمعرفة ، ولا شيء أشد ملائمة لأحد من نفسه ، ولا هو لشيء أقوى معرفة

منه بنفسه ، ولهذا جعل معرفة نفسه مفتاحاً لمعرفة ربه ، ووجود كل أحد فرع لوجود ربه ، فمحبة نفسه ترجع الى محبة ربه وان لم يشعر المحب به •

وأما محبة الغير لحسنه وجماله أو تقربه من الله وكماله فذلك لأن الجمال محبوب لذاته ، سواء كان ذلك الجمال ظاهرياً صورياً أو باطناً معنوياً ، وكذا الكمال ، والله تعالى هو الجميل لذاته والكامل بذاته ، وكل مليح حسنه من جماله ، وكل كامل فكماله فرع كماله ، فما أحب أحد غير خالقه ولكنه احتجب عنه تحت وجوه الاحباب واستار الأسباب •

وكذا الكلام في محبة الغير للاحسان ، فان الاحسان أيضاً محبوب لذاته ، سواء كان متعدياً الى المحب أم لا ، ولا احسان الا من الله ولا محسن سوى الله جل شأنه ، فانه خالق الاحسان وذويه وجاعل أسبابه ودواعيه ، وكل محسن فهو حسنة من حسنات قدرته وحسن فعاله ، وقطرة من بحار كماله وافضاله •

وأما محبة الغير المجانسة فذلك لأن الجنس يميل الى الجنس ، سواء كانت المجانسة لمعنى ظاهر كما ان الصبي يميل الى الصبي لصباه ، أو لمعنى خفي كما يتفق بين شخصين من غير ملاحظة جمال ولا طمع في جاه أو مال ، فان الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف ، وهذه المحبة فرع لمحبة النفس ، فترجع الى محبة الله كما عرفت •

فعلى كل وجه ما متعلق المحبة الا الله ، الا انه لا يعرف ذلك الا أولياؤه وأحباؤه ، كما أشار اليه سيد الشهداء عليه السلام في دعاء عرفة بقوله : وأنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبائك حتى لم يحبوا سواك ولم يلتجئوا الى غيرك ، فسبحان من احتجب عن أبصار العميان غيرة على جماله وجلاله ان يطلع عليه الا من سبقت له منه الحسنى الذين هم عن نور الحجاب مبعدون ، وترك الخاسرين في ظلمات العمى يتيهون ، وفي مسارح المحسوسات وشهوات البهائم

يترددون ، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة غافلون •

اذا عرفت هذا علمت فساد مقالة الزاعمين ان المحبة لا تكون الا مع الجنس والمثل ، ومحبة الله حقيقة ممتنعة •

(الفصل الثاني)

فى الشواهد على محبة الله تعالى وفضلها

قال الله تعالى في وصف أمير المؤمنين وأولاده الطاهرين : « سوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه » وقال تعالى : « والذين آمنوا أشد حباً لله » وقال تعالى : « قل ان كان آبائكم وأبنائكم واخوانكم » الى قوله تعالى : « احب اليكم من الله ورسوله » ـــ الآية •

وقال النبي صلى الله عليه وآله : لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما •

وقال (ص) في دعائه : اللهم ارزقني حبك وحب من يحبك وحب ما يقربني الى حبك ، واجعل حبك أحب الي من الماء البارد •

وفي الخبر المشهور ان ابراهيم (ع) قال لملك الموت اذ جاءه لقبض روحه : هل رأيت خليلاً يميت خليله ؟ فأوحى الله اليه : هل رأيت محباً يكره لقاء حبيبه ؟ فقال يا ملك الموت الآن فاقبض •

وفيما ناجى الله به موسى بن عمران : يابن عمران كذب من زعم انه يحبني ، فاذا جنه الليل نام عني ، أليس كل محب يحب خلوة حبيبه ؟ ها انذا يابن عمران مطلع على أحبائي ، اذا جنهم الليل حولت أبصارهم الي من قلوبهم، ومثلت عقوبتي بين أعينهم يخاطبوني عن المشاهدة ويكلموني عن الحضور • يابن عمران هب لي من قلبك الخشوع ومن بدنك الخضوع ومن عينيك الدموع في ظلم الليل فانك تجدني قريباً •

وروي ان عيسى عليه السلام مر بثلاثة نفر قد نحلت أبدانهم وتغيرت ألوانهم ، فقال لهم : ما الذي بلغ بكم ما أرى ؟ فقالوا : الخوف من النار . فقال : حق على الله أن يؤمن الخائف ، ثم جاوزهم الى ثلاثة اخرى فاذا هم أشد نحولاً وتغيراً فقال : ما الذي بلغ بكم ما أرى ؟ قالوا : الشوق الى الجنة . قال : حق على الله ان يعطيكم ما ترجون . ثم جاوزهم الى ثلاثة اخرى فاذا هم أشد نحولاً وتغيراً كأن على وجوههم المرايا من النور ، فقال : ما الذي بلغ بكم ما أرى ؟ قالوا : حب الله عز وجل : فقال ثلاثاً :أنتم المقربون أنتم المقربون .

وروى الصدوق في علل الشرائع عن نبينا (ص) ان شعيباً بكى من حب الله عز وجل حتى عمي فرد الله عليه بصره ، ثم بكى حتى عمي فرد الله عليه بصره ، ثم بكى حتى عمي فرد الله عليه بصره ، فلما كانت الرابعة أوحى الله اليه : يا شعيب الى متى يكون هذا أبداً منك ؟ ان يكن هذا خوفاً من النار فقد أجرتك وان يكن شوقاً الى الجنة فقد ابحتك . فقال : إلهي وسيدي أنت تعلم اني ما بكيت خوفاً من نارك ولا شوقاً الى جنتك ولكن عقد حبك على قلبي فلست أصبر وأراك . فأوحى الله جل جلاله : أما اذا كان هذا هكذا فمن أجل هذا سأخدمك كليمي موسى بن عمران .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في دعاء كميل : فهبني يا إلهي وسيدي ومولاي وربي صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك ..

وقال ابنه سيد الشهداء في دعاء عرفة : أنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبائك حتى لم يحبوا سواك ولم يلجأوا الى غيرك .

وقال عليه السلام : يا من أذاق أحباءه حلاوة المؤانسة فقاموا بين يديه متملقين .

وفي المناجاة الانجيلية المنسوبة الى السجاد عليه السلام : وعزتك لقد

أحببتك محبة استقرت في قلبي حلاوتها وأنست نفسي بمباشرتها ، ومحال في عدل اقضيتك أن تسد أسباب رحمتك عن معتقدي محبتك .

وفي مناجاته الأخرى : إلهي فاجعلنا من الذين ترسخت أشجار الشوق اليك في حدائق صدورهم ، وأخذت لوعة محبتك بمجامع قلوبهم .

وقال (ع) : وألحقنا بعبادك الذين هم بالبدار اليك يسارعون ، وبابك على الدوام يطرقون ، واياك في الليل والنهار يعبدون ، وهم من هيبتك مشفقون ، الذين صفيت لهم المشارب وبلغتهم الرغائب .

وقال عليه السلام : وملأت حفائرهم من حبك ، ورويتهم من صافي شراب ودك ، فبك الى لذيذ مناجاتك وصلوا ، ومنك على أقصى مقاصدهم حصلوا . ثم قال عليه السلام : فقد انقطعت اليك همتي وانصرفت نحوك رغبتي ، فأنت لا غيرك مرادي ولك لا سواك سهري وسهادي ، ولقائك قرة عيني ، ووصلك مني نفسي ، واليك شوقي ، وفي محبتك ولهي ، والى هواك صبابتي ، ورضاك بغيتي ، ورؤيتك حاجتي ، وجوارك طلبتي ، وقربك غاية مسألتي ، وفي مناجاتك روحي وراحتي ، وعندك دواء علتي وشفاء غلتي وبرد لوعتي وكشف كربتي . ثم قال : ولا تقطعني عنك يا نعيمي وجنتي ويا دنياي وآخرتي .

وقال عليه السلام أيضاً : إلهي من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلاً ، ومن ذا الذي آنس بقربك فابتغى عنك حولا . إلهي فاجعلني ممن اصطفيته لقربك وولايتك ، واخلصته لودك ومحبتك ، وشوقته الى لقائك ، وارضيته بقضائك ، ومنحته بالنظر الى وجهك ، وحبوته برضاك وأعذته من هجرك وقلاك . ثم قال عليه السلام : وهيمت قلبه لارادتك ، واجتبيته لمشاهدتك ، واخليت وجهه لك ، وفرغت فؤاده لحبك . ثم قال (ع) : اللهم اجعلنا ممن دأبهم الارتياح اليك والحنين ، وديدنهم الزفرة والأنين ،

وجباههم ساجدة لعظمتك ، ودموعهم سائلة من خشيتك ، وقلوبهم معلقة بمحبتك ، وأفئدتهم منخلعة من هيبتك . يا من أنوار قدسه لا تزال شارقة وسجات نور وجهه لقلوب عارفيه شائقة ، يا منتهى قلوب المشتاقين ، ويا غاية آمال المحبين ، أسألك حبك وحب من يحبك وحب كل عمل يوصل الى قربك وان تجعلك أحب الي ممن سواك .

وقال أيضاً : إلهي ما ألذ خواطر الالهام بذكرك على القلوب ، وما أحلى المسير اليك في مسالك الغيوب ، وما أطيب حبك ، وما أعذب شرب قربك .. الى أن قال : وغلتي لا يبردها الا وصلك ، ولوعتي لا يطفئها الا لقاؤك ، وشوقي اليك لا يبله الا النظر الى وجهك ، وقراري لا يقر دون دنوي منك ، ولهفتي لا يردها الا روحك ، وسقمي لا يشفيه الا طبك ، وغمي لا يزيله الا قربك ، وجرحي لا يبرئه الا صفحك ، وصدأ قلبي لا يجلوه الا عفوك ، ووسواس صدري لا يزيحه الا منك .

(الفصل الثالث)

في معنى محبة الله سبحانه لعبده

يرجع معناها الى كشف الحجاب عن قلبه حتى يراه بقلبه ، والى تمكينه إياه من القرب اليه ، والى ارادته ذلك به ، والى تطهير باطنه من حب غيره وتخليته عن عوائق تحول بينه وبين مولاه حتى لا يسمع الا بالحق ومن الحق ولا يبصره الا به ولا ينطق الا به ، كما ورد في الحديث القدسي : لا يزال العبد يتقرب الي بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به .

فيكون تقربه بالنوافل سبباً لصفاء باطنه وارتفاع الحجاب عن قلبه وحصوله في درجة القرب من ربه ، وكل ذلك من فضل الله ولطفه به ، قال

تعالى : « يحبهم ويحبونه » وقال : « ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً » وقال : « ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » .

وقال رسول الله (ص) : ان الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطي الايمان الا من يحب .

وقال (ص) : اذا أحب الله عبداً ابتلاه ، فان صبر اجتباه وان رضى اصطفاه .

وقال (ص) : اذا أحب الله عبداً جعل له واعظاً من نفسه وزاجراً من قلبه يأمره وينهاه .

واخص علاماته حبه لله ، فان ذلك يدل على حب الله عز وجل له .

وأما الفعل الدال على كونه محبوباً فهو أن يتول الله أمره ظاهره وباطنه سره وجهره ، فيكون هو المشير عليه والمدبر لأموره والمزين لأخلاقه والمستعمل لجوارحه والمسدد لظاهره وباطنه والجاعل لهمومه هماً واحداً ، والمبغض للدنيا في قلبه والموحش له من غيره والمؤنس له بلذة المناجاة في خلواته والكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته .

(الفصل الرابع)

اعلم ان الطريق الى تحصيل المحبة وتقويتها تطهير القلب عن شواغل الدنيا وعلائقها والتبتل الى الله بالذكر والفكر ، ثم اخراج حب غير الله منه ، فان القلب مثل الاناء الذي لا يسع للخل مثلاً ما لم يخرج منه الماء ، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه .

وكمال الحب في ان يحب الله بكل قلبه ، وما دام يلتفت الى غيره فزاوية من قلبه مشغولة لغيره ، فبقدر ما يشتغل بغير الله ينقص منه حب الله ، الا ان يكون التفاته الى الغير من حيث انه صنع الله وفعل الله ومظهر من مظاهر

أسماء الله .

وبالجملة ان يحبه لله وفي الله كحب الأنبياء المرسلين والأئمة الطاهرين والأولياء والصالحين .

اللهم ارزقنا حبك وحب من يحبك وحب ما يقرب الى حبك ، وهيىء لنا أسباب حبك حتى نحبك ونحب من يحبك بمحمد وآله .

الباب الثامن
فى اليقين

وفيه فصلان :

(الفصل الأول)
فى فضله

قال الله تعالى : « وبالآخرة هم يوقنون » .

وقال النبي (ص) : من أقل ما اوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ، ومن أوتي حظه منهما لم يبال ما فاته من صيام النهار وقيام الليل .

وقال (ص) لما قيل له : رجل حسن اليقين كثير الذنوب ، ورجل مجتهد في العبادة قليل اليقين ؟ فقال (ص) : ما آدمي الا وله ذنوب ، ولكن من كان غريزته العقل وسجيته اليقين لم تضره الذنوب ، لأنه كلما أذنب ذنباً تاب واستغفر وندم ، فيكفّر ذنوبه ويبقى له فضل يدخل به الجنة .

وقال (ص) : اليقين الايمان كله .

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام قال : ليس شيء الا وله حد . قيل له : جعلت فداك فما حد التوكل ؟ قال : اليقين . قيل : فما حد اليقين ؟ قال : ألا يخاف مع الله شيئاً .

وقال عليه السلام : من صحة يقين المسلم أن لا يرضى الناس بسخط الله

ولا يلومهم على ما لم يؤته الله ، فان الرزق حرص حريص ولا يرده كراهية كاره ، ولو أن أحدكم فرَّ من رزقه كما يفرُّ من الموت لأدركه رزقه كما يدركه الموت ، ثم قال عليه السلام : ان الله بعد له وقسطه جعل الروح والراحة في اليقين والرضا ، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط .

أراد (ع) بقوله : « ولا يلومهم على ما لم يؤته الله » ان لا يشكوهم على ترك صلتهم إياه بالمال ونحوه ، فان ذلك شيء لم يقدره الله لـه ولم يرزقه إياه ، ومن كان من أهل اليقين عرف ان ذلك كذلك فلا يلوم أحداً بذلك ، وعرف ان ذلك مما اقتضته ذاته بحسب استحقاقه وما أوجبته حكمة الله في أمره .

وقال عليه السلام : ان العمل الدائم القليل على اليقين أفضل عند الله من العمل الكثير على غير يقين .

وقال عليه السلام : قال أمير المؤمنين عليه السلام على المنبر : لا يجد أحدكم طعم الايمان حتى يعلم ان ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وان ما أخطأه لم يكن ليصيبه .

وقال (ع) : ان أمير المؤمنين جلس الى حائط مائل يقضي بين الناس ، فقال بعضهم : لا تقعد تحت هذا الحائط فانه معور ، فقال عليه السلام : حرس امرء أجله ، فلما قام عليه السلام سقط الحائط . قال : وكان عليه السلام مما يفعل هذا وأشباهه ، وهذا اليقين .

وعن صفوان الجمال قال : سألت الصادق عليه السلام عن قول الله عز وجل : « وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما » فقال : أما انه ما كان ذهباً ولا فضة ، وانما كان أربع كلمات : لا إله إلا أنا من أيقن بالموت لم يضحك سنه ، ومن أيقن بالحساب لم يفرح قلبه ، ومن أيقن بالقدر لم يخش الا الله .

هكذا رواه الكافي ، ولعله سقط من النساخ شيء ، وتأتي الكلمة الرابعة في رواية اخرى •

وعنه (ع) قال : كان أمير المؤمنين يقول : لا يجد عبد طعم الايمان حتى يعلم ان ما أصابه لم يكن ليخطئه وان ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وان الضار النافع هو الله عز وجل •

وعن سعيد بن قيس الهمداني قال : نظرت يوماً في الحرب الى رجل عليه ثوبان ، فحركت فرسي فاذا هو أمير المؤمنين (ع) فقلت : يا أمير المؤمنين في مثل هذا الموضع ؟ فقال : نعم يا سعيد انه ليس من عبد الا وله من الله عز وجل حافظة واقية معه ملكان يحفظانه من أن يسقط من رأس جبل أو يقع في بئر ، فاذا نزل القضاء خليا بينه وبين كل شيء •

وعن الرضا عليه السلام قال : كان في الكنز الذي قال الله عز وجل : « وكان تحته كنز لهما » فيه بسم الله الرحمن الرحيم : عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح ، وعبت لمن أيقن بالقدر كيف يحزن ، وعجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها كيف يركن اليها ، وينبغي لمن عقل عن الله أن لا يتهمه في قضائه ولا يستبطئه في رزقه •

وعن الصادق عليه السلام قال : كان قنبر غلام علي يحب علياً عليه السلام حباً شديداً ، فاذا خرج علي خرج على أثره بالسيف ، فرآه ذات ليلة فقال له : يا قنبر مالك ؟ فقال : جئت لأمشي خلفك يا أمير المؤمنين • فقال : ويحك أمن أهل السماء تحرسني أم من أهل الأرض ؟ فقال : لا بل من أهل الأرض • فقال : ان أهل الأرض لا يستطيعون لي شيئاً الا باذن الله فارجع ، فرجع •

وروي عنه قيل للرضا عليه السلام : انك تتكلم بهذا الكلام والسيف يقطر دماً ؟ فقال عليه السلام : ان لله وادياً من ذهب حماه بأضعف خلقه وهو النمل ، فلو رامه النجاشي لم يصل اليه •

(الفصل الثاني)

في حقيقة اليقين

اليقين ان يرى الأشياء كلها بقضها وقضيضها من مسبب الأسباب ومالك الرقاب ، ولا يلتفت الى الوسائط بل يرى الوسائط كلها مسخرة لأمر الله وحكمه ، واذا علم ذلك وتحقق ما هنالك حصل له الوثوق بضمان الله للرزق فيقطع طمع قلبه عما في أيدي الناس ، ويعلم ان ما قدر له سيساق اليه ، ثم ان يغلب على قلبه ان من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، ثم المعرفة بأن الله مطلع عليه في كل حال عالم بسرائره وخبير بضمائره ، ومشاهد لهواجس ضميره وخفايا خواطره ، فيكون متأدباً في جميع أحواله وأعماله مع الله تعالى ، ويعبد الله كأنه يراه ويعلم بأنه يراه ، ويكون مبالغته في عمارة باطنه وتطهيره وتزيينه لعين الله الكالئة أشد من مبالغته في تزيين ظاهره لسائر الناس .

وفي مصباح الشريعة : قال الصادق عليه السلام : اليقين يوصل العبد الى كل حال سنيّ ومقام عجيب ، كذلك أخبر رسول الله عن عظم شأن اليقين حين ذكر عنده ان عيسى بن مريم (ع) كان يمشي على الماء ، فقال : لو زاد يقينه لمشى في الهواء ، فدل بهذا على ان الأنبياء مع جلالة محلهم من الله كانت تتفاضل على حقيقة اليقين لا غير ، ولا نهاية لزيادة اليقين على الأبد .

والمؤمنون أيضاً متفاوتون في قوة اليقين وضعفه : فمن قوي منهم يقينه فعلامته التبري من الحول والقوة الا بالله ، والاستقامة على أمر الله ، وعبادته ظاهراً وباطناً ، قد استوت عنده حالتا العدم والوجود والزيادة والنقصان والمدح والذم والعز والذل ، لأنه يرى كلها من عين واحدة .

ومن ضعف يقينه تعلق بالأسباب ، ورخص لنفسه بذلك ، واتبع العادات

وأقاويل الناس لغير حقيقة ، والسعي في امور الدنيا وجمعها وامساكها مقراً باللسان انه لا مانع ولا معطي الا الله ، وان العبد لا يصيبه الا ما رزق وقسم له ، والجهد لا يزيد في الرزق وينكر ذلك بفعله وقلبه ، قال الله تعالى : « يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون » .

وانما عطف الله لعباده حيث اذن لهم في الكسب والحركات في باب العيش ما لم يتعدوا حدوده ولا يتركوا من فرائضه وسنن نبيه في جميع حركاتهم ولا يعدلوا عن محجة التوكل ولا يقفوا في ميدان الحرص ، وأما اذا أبوا ذلك فارتبطوا بخلاف ما حدّ لهم كانوا من الهالكين الذين ليس معهم في الحاصل الا الدعاوى الكاذبة .

وكل مكتسب لا يكون متوكلاً فلا يستجلب من كسبه الى نفسه الا حراماً وشبهة ، وعلامته ان يؤثر ما يحصل من كسبه ويجوع وينفق في سبيل الدين ولا يمسك ، والمأذون بالكسب من كان بنفسه مكتسباً وبقلبه متوكلاً ، وان كثر المال عنده قام فيه كالأمين عالماً بأن كون ذلك وفوته سواء ، وان أمسك أمسك لله وان أنفق أنفق فيما أمره الله عز وجل ، ويكون منعه وعطاؤه في الله .

الباب التاسع

فى التوكل

والكلام فيه في فصول :

(الفصل الأول)

فى فضله

قال الله تعالى : « وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين » وقال : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » وقال تعالى : « ان الله يحب المتوكلين » . فأعظم بمقام موسوم بمحبة الله صاحبه ومضمون بكفاية الله لا بسه ، فان المحبوب

لا يعذب ولا يبعد ولا يحجب .

وقال تعالى : « أليس الله بكاف عبده » فطالب الكفاية من غيره هو التارك للتوكل وهو المكذب بهذه الآية .

وقال تعالى : « ومن يتوكل على الله فان الله عزيز حكيم » أي عزيز لا يذل من استجار به ولا يضيع من لاذ به والتجأ الى حماه ، وحكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره .

وقال رسول الله (ص) : لو انكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً وتروح بطاناً .

وقال (ص) : من انقطع الى الله كفاه الله كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب ، ومن انقطع الى الدنيا وكله الله اليها .

وقال (ص) : من سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يده .

وعن الصادق عليه السلام : ان الغنى والعز يجولان ، فاذا ظفرا بموضع التوكل أوطنا .

وعن الكاظم عليه السلام في قوله تعالى : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » قال : للتوكل على الله درجات : منها ان تتوكل على الله في امورك كلها ، فما فعل بك كنت عنه راضياً ، تعلم انه لا يألوك الا خيراً وفضلاً ، وتعلم ان الحكم في ذلك له ، فتوكل على الله بتفويض ذلك اليه ، وثق به فيها وفي غيرها .

ولعل سائر درجات التوكل ان يتوكل على الله في بعض اموره دون بعض ، فتعددها بحسب كثرة الأمور المتوكل فيها وقلتها .

وعن الصادق عليه السلام : اوحى الله الى داود : ما اعتصم بي عبد من عبادي دون أحد من خلقي عرفت ذلك من نيته ، ثم تكيده السماوات والأرض

ومن فيهن الا جعلت له المخرج من بينهن ، وما اعتصم أحد من عبادي بأحد من خلقي عرفت ذلك من نيته الا قطعت أسباب السماوات من يديه واسخت الأرض من تحته ، ولم أبال بأي واد هلك .

وعنه عليه السلام : انه قرأ في بعض الكتب ان الله تعالى يقول : وعزتي وجلالي ومجدي وارتفاعي على عرشي لأقطعن أمل كل مؤمل غيري باليأس ، ولأكسونه ثوب المذلة عند الناس ، ولأنحينه من قربي ، ولأبعدنه من وصلي ، ايؤمل غيري في الشدائد ، والشدائد بيدي ، ويرجو غيري ، ويقرع بالفكر باب غيري وبيدي مفاتيح الأبواب وهي مغلقة وبابي مفتوح لمن دعاني ، فمن ذا الذي أملني لنوائبي فقطعته دونها ، ومن ذا الذي رجاني لعظيمة فقطعت رجاءه مني ، جعلت آمال عبادي عندي محفوظة فلم يرضوا بحفظي ، وملأت سماواتي ممن لا يمل تسبيحي ، وأمرتهم أن لا يغلقوا الأبواب بيني وبين عبادي فلم يثقوا بقولي ، ألم يعلم من طرقته نائبة من نوائبي انه لا يملك كشفها أحد غيري ، أفتراني أبدأ بالعطاء قبل المسألة ثم أسأل فلا اجيب سائلي ، أبخيل أنا فيبخلني عبدي ، أوليس الجود والكرم لي ، أوليس العفو والرحمة بيدي ، أوليس أنا محل الآمال فمن يقطعها دوني ، أفلا يخشى المؤملون ان يؤملوا غيري ، فلو أن أهل سماواتي وأهل أرضي أملوا جميعاً ثم اعطيت كل واحد منهم مثل ما أمل الجميع ما انتقص من ملكي مثل عضو ذرة ، وكيف ينقص ملك أنا قيمته ، فيا بؤساً للقانطين من رحمتي ، ويا بؤساً لمن عصاني ولم يراقبني .

(الفصل الثاني)

فى حقيقة التوكل

اعلم ان التوكل منزل من منازل الدين ومقام من مقامات الموقنين ، بل هو من معاني درجات المقربين ، وهو في نفسه غامض من حيث العلم وشاق

من حيث العمل .

ووجه غموضه من حيث العلم ان ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها شرك في التوحيد ، والتباعد عنها بالكلية طعن في السنّة وقدح في الشرع ، والاعتماد على الأسباب انغماس في غمرة الجهل .

والتحقيق فيه ان التوكل المأمور به في الشرع هو اعتماد القلب على الله في الأمور كلها وانقطاعه عما سواه ، ولا ينافيه تحصيل الأسباب اذا لم يكن يسكن اليها ، وكان سكونه الى الله تعالى دونها مجوزاً أن يؤتيه الله مطلوبه من حيث لا يحتسب دون هذه الأسباب التي حصلها ، وان يقطع الله هذه الأسباب عن مسبباتها ، سواء كانت لجلب نفع متوقع أو لدفع ضرر منتظر أو لازالة آفة واقعة ، وسواء كانت مقطوعاً بها ، كمد اليد الى الطعام ليصل الى فيه ، أو مظنونة كحمل الزاد للسفر وأخذ السلاح للعدو واتخاذ البضاعة للتجارة والادخار لتجدد الاضطرار والتداوي لازالة الضرر والتحرز عن النوم في مكمن السباع وممر السيل وتحت الحائط المائل وغلق الباب وعقل البعير ونحو ذلك .

اما الموهومة كالرقية والطيرة والاستقصاء في دقائق التدبير ، فيبطل بها التوكل ، لأن أمثال ذلك ليست بأسباب عند العقلاء الألباء ، وليست مما أمر الله بها ، بل ورد النهي عنها .

وليس معنى التوكل — كما يظنه الحمقاء — انه ترك الكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب ، والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة واللحم على الوضم ، فان ذلك جهل محض ، وهو حرام في الشرع ، فان الانسان مكلف بطلب الرزق بالأسباب التي هداه الله اليها من زراعة أو تجارة أو صناعة أو غير ذلك مما أحله الله .

وكما ان الصلاة والصيام والحج عبادات كلف الله بها عباده يتقربون بها

اليه كذلك طلب الرزق الحلال عبادة كلفهم الله به ليتقربوا به اليه ، بل هو أفضل العبادات ، كما ورد في الشرع • أن العبـادة سبعون جزءاً أفضلها طلب الحلال •

ولكنه سبحانه كلفهم أيضاً بأن لا يثقوا الا به جل وعز ولا يثقوا بالأسباب كما انه سبحانه كلفهم بأن لا يتكلوا على أعمالهم الحسنة بل بفضل الله تعالى ولهذا ورد في الشرع الأمر بالاجمال في الطلب لا الترك بالكلية ولا الاقبال عليه بالكلية •

وقال النبي (ص) : الا ان الروح الأمين نفث في روعي انه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله عز وجل واجملوا في الطلب •

وقال (ص) : ما أجمل في الطلب من ركب البحر •

وقال الصادق (ع) : ليكن طلبك المعيشة فوق كسب المضيع ودون طلب الحريص الراضي بدنياه المطمئن اليها ، ولكن انزل نفسك من ذلك بمنزلة المنصف المتعفف ترفع نفسك عن منزلة الواهن الضعيف ، وتكتسب ما لابد منه ، ان الذين اعطوا المال ثم لم يشكروا لا مال لهم •

وقال (ع) : اذا فتحت بابك وبسطت بساطك فقد قضيت ما عليك •

وانما لا يبطل التوكل بالأسباب المقطوعة والمظنونة مع ان الله تعالى قادر على اعطاء المطلوب بدون ذلك لأن الله سبحانه أبى أن يجري الأشياء إلا بالأسباب كما قال الصادق عليه السلام ، وأحب الله لعباده أن يطلبوا منه مقاصدهم بالأسباب التي سببها لذلك وأمرهم بذلك ، قال الله تعالى : « خذوا حذركم » وقال في كيفية صلاة الخوف : « وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم » وقال : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » وقال لموسى « فأسر بعبادي ليلاً » والتحصن بالليل اختفاء عن أعين الأعداء دفعاً للضرر •

وقال النبي (ص) للأعرابي لما اهمل البعير وقال : توكلت على الله « اعقل

وتوكل » الى غير ذلك من الأخبار .

وروي ان زاهداً من الزهاد فارق الأمصار وقام في سفح جبل وقال : لا أسأل أحداً شيئاً حتى يأتيني ربي برزقي . فقعد سبعاً فكاد يموت ولم يأته رزقه ، فقال : يا رب ان احييتني فأتني برزقي الذي قسمت لي والا فاقبضني اليك . فأوحى الله اليه . وعزتي وجلالي لا أرزقك حتى تدخل الأمصار وتقعد بين الناس . فدخل المصر وأقام فجاء هذا بطعام وهذا بشراب ، فأكل وشرب وأوجس في نفسه ذلك ، فأوحي اليه اردت أن تذهب حكمتي أبزهدك في الدنيا ، أما علمت ان ارزق عبدي بأيدي عبادي أحب الي من أن أرزقه بيد قدرتي .

وروي ان موسى (ع) اعتل بعلة فدخل عليه بنوا اسرائيل فعرفوا علته فقالوا له : لو تداويت بكذا لبرئت . فقال : لا أتداوى حتى يعافيني الله من غير دواء . فطالت علته فأوحى الله اليه : وعزتي وجلالي لا ابرأتك حتى تتداوى بما ذكروه لك . فقال لهم : داوني بما ذكرتم ، فداووه فبرأ فأوجس في نفسه ذلك فأوحى الله اليه : أردت أن تبطل حكمتي بتوكلك علي ، فمن أودع العقاقير منافع الأشياء غيري ؟!

(الفصل الثالث)

في سببه ودوائه ودرجاته

اعلم ان من اعتقد اعتقاداً جازماً بأنه لا فاعل الا الله ، ولا حول ولا قوة الا بالله ، وان له تمام العلم والقدرة على كفاية العباد ، ثم تمام العطف والعناية والتوجه بجملة العباد والآحاد ، وانه ليس وراء منتهى قدرته قدرة ولا وراء منتهى علمه علم ولا وراء منتهى عنايته عناية اتكل لا محالة قلبه على الله وحده ولم يلتفت الى غيره بوجهه ولا الى نفسه .

ومن لم يجد ذلك من نفسه فسببه أحد أمرين : إما ضعف اليقين ، واما ضعف القلب .

ومرضه باستيلاء الجبن عليه ، وانزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه ، فان القلب قد ينزعج تبعاً للوهم وطاعة له من غير نقصان في اليقين ، كانزعاجه ان يبيت مع ميت في قبر أو فراش مع عدم نفرته عن سائر الجمادات ، فالتوكل لا يتم إلا بقوة القلب وقوة اليقين جميعاً ، اذ بهما يحصل سكون وطمأنينته فالسكون في القلب شيء واليقين شيء آخر ، فكم من يقين لا طمأنينة معه ، كما قال تعالى لخليله : « أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي » .

وكم من مطمئن لا يقين له كسائر أرباب الملل والمذاهب ، فان اليهودي مطمئن القلب الى تهوده وكذا النصراني ولا يقين لهما أصلاً ، وانما يتبعون الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ، وهو سبب اليقين الا أنهم معرضون .

واعلم ان الناس تتفاوت درجاتهم في التوكل بحسب تفاوت مراتبهم في قوة اليقين وضعفه ، وفي قصر الأمل وطوله ، وفي مقدار الادخار بحسب الأمل وللمنفرد والمعيل : فمنهم من هو من المقربين ، ومنهم من هو من أصحاب اليمين ، ومنهم من لا توكل له أصلاً ، وذلك بحسب عدم الوثوق بالأسباب أصلاً وقلته وكثرته .

ومن كمل ايمانه سقط وثوقه بالأسباب بالكلية ، فيرزقه الله من حيث لا يحتسب كسب أم لم يكتسب ، الا انه لا يترك الكسب بل يتبع أمر الله فيه، وليس وثوقه الا بالله وحده دون كسبه .

قال الصادق (ع) : أبى الله عز وجل أن يجعل ارزاق المؤمنين الا من حيث لا يحتسبون .

وانما خصه بالمؤمنين لأن كمال الايمان يقتضي أن لا يثق صاحبه بالأسباب وان يتوكل على الله عز وجل وحده ، وكمال الايمان انما يكون لصاحب العلم المكنون من الأنبياء والأولياء ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

وقال السجاد عليه السلام : رأيت الخير كله في قطع الطمع عما في أيدي الناس ، ومن لم يرج الناس في شيء وردّ أمره الى الله تعالى في جميع اموره استجاب الله تعالى له في كل شيء .

وقال الباقر (ع) : بئس العبد عبد له طمع يقوده ، وبئس العبد عبد له رغبة تذله .

وقال الصادق عليه السلام : شرف المؤمن قيام الليل ، وعزه استغناؤه عن الناس .

الباب العاشر

في الصدق وأداء الأمانة

قال الله تعالى : « كونوا مع الصادقين » وقال تعالى : « رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » .

وقال الصادق (ع) : ان الصادق أول ما يصدقه الله تعالى يعلم انه صادق، فتصدقه نفسه تعلم انه صادق .

وعنه (ع) : ان العبد ليصدق حتى يكتب عند الله من الصادقين ، ويكذب حتى يكتب عند الله من الكاذبين ، فاذا صدق قال الله تعالى صدق وبرّ ، واذا كذب قال الله تعالى كذب وفجر .

وفي رواية اخرى : ان العبد ليصدق حتى يكتبه الله تعالى صدّيقاً .

وعنه (ع) قال : كونوا دعاة الناس بالخير بغير ألسنتكم ليروا منكم الاجتهاد والصدق والورع .

وقال (ع) لبعض أصحابه : انظر ما بلغ علي (ع) عند رسول الله (ص) فالزمه ، فان علياً انما بلغ عند رسول الله ما بلغ بصدق الحديث وأداء الأمانة .

وقال (ع) : لا تنظروا الى طول ركوع الرجل وسجوده ، فان ذلك شيء

اعتباده ولو ترك لاستوحش لذلك، ولكن انظروا الى صدق حديثه وأداء أمانته •

وقال عليه السلام : ان الله تعالى لم يبعث نبياً الا بصدق الحديث وأداء الأمانة الى البر والفاجر •

وعن النبي (ص) : أداء الأمانة يجلب الرزق ، والخيانة تجلب الفقر •

وعن أمير المؤمنين (ع) : أدوا الأمانات ولو الى قاتل ولد الأنبياء •

وعن الصادق (ع) : من ائتمنك بأمانة فأدها اليه ، ومن خانك فلا تخنه •

واعلم ان الصدق يكون في الأقوال وفي الأعمال وفي الأحوال ، وادنى مراتب الصدق الصدق في القول في كل حال ، وكماله بترك المعاريض من غير ضرورة حذراً عن تفهيم الخلاف ، وكسب القلب صورة كاذبة •

وينبغي ان يصدق في القول مع الحق ومع الخلق ، فمن قال « وجهت وجهي لله » وفي قلبه سواه ، أو « إياك نعبد » وهو يعبد الدنيا وهواه أو « إياك نستعين » وهو بغير الله يستعين ، فهو كاذب •

كما قال الفريد الوحيد (ره) :

« إياك من قول به تفند   فأنت عبد لهواك تعبد

تلهج في « إياك نستعين   وأنت غير الله تستعين

ثم الصدق في النية ، بأن يخلصها من الشوائب كما تقدم •

ثم في العزم ، وهو الجزم القوي على الخير ، فان الانسان قد يقدم العزم على العمل ، فيقول في نفسه « ان رزقني الله مالاً تصدقت بجميعه أو شطره » و « اذا لقيت عدواً في سبيل الله قاتلته ولم ابال وان قتلت » • وقد يكون في عزمه نوع ميل وتردد ، وضعف يضاد الصدق في العزيمة •

ثم في الوفاء بالعزم ، فالنفس قد تسخو بالعزم في الحال ، اذ لا مشقة في الوعد ، فاذا حقت الحقائق وحصل التمكن وهاجت الشهوات انحلت العزيمة ، وهذا يضاد الصدق فيه ، ولذلك قال تعالى : « رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » •

ثم في الأعمال ، بأن يبذل جهده ، بحيث لا يكون ظاهره مخالفاً لباطنه لا بأن يترك العمل بالمرة ، بل بأن يسخر الباطن الى تصديق الظاهر ، وهذا غير ريائي ، لأن المرائي هو الذي يقصد ذلك لأجل الخلق ، وربَّ واقف على هيئة الخشوع في صلاته ليس يقصد به مشاهدة غيره ، ولكن قلبه غافل عن الصلاة ، فمن نظر اليه رآه قائماً بين يدي الله ، وهو بالباطن قائم في السوق بين يدي شهوة من شهواته . وكذلك قد يمشي على هيئة السكون والوقار ، وليس باطنه موصوفاً بذلك ، فهذا غير صادق في عمله وان لم يكن ملتفتاً الى الخلق ولا مرائياً أياهم ، ولا ينجو من هذا الا باستواء السر والعلانية ، بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيراً من ظاهره ، وهذا كما قال أمير المؤمنين عليه السلام : اني والله ما احثكم على طاعة الا واسبقكم اليها ، ولا انهاكم عن معصية الا واتناهى قبلكم عنها .

ثم في مقامات الدين ، وهو اعلا درجات الصدق وأعزها ، كالصدق في الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والحب والتوكل وسائر المكارم ، فان هذه الأمور لها مبادىء ينطلق الاسم بظهورها ، ثم لها غايات وحقائق ، والصادق المحقق من نال حقيقتها ، قال الله تعالى : « انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا » الى قوله : « أولئك هم الصادقون » وقال عز وجل : « ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر » ثم قال : « والصابرين في البأساء والضراء » الى قوله : « اولئك الذين صدقوا » .

وسئل أبو ذر (رض) عن الايمان فقرأ هذه الآية ، فقيل له : سألناك عن الايمان فقال : سألت رسول الله (ص) عن الايمان فقرأ هذه الآية .

وان أردت أيضاً أن تعرف معنى الصدق في الخوف فاعلم انه ما من عبد يؤمن بالله الا وهو خائف خوفاً ينطبق عليه هذا الاسم ، ولكنه خوف غير بالغ درجة الصدق والحقيقة ، ولذا تراه اذا خاف سلطاناً أو قاطع طريق

في سفر كيف يصفر لونه فترتعد فرائصه ويتنغص عليه عيشه ويتعذر عليه أكله ونومه ، وينقسم عليه فكره حتى لا ينتفع به أهله وولده ، وقد ينزعج عن الوطن فيستبدل بالأنس الوحشة وبالراحة التعب والمشقة والتعرض للأخطار ، كل ذلك خوفاً من درك المحظور ، فما بال من يدعي الخوف من الله ومن عذابه وعقابه وناره لا يظهر عليه شيء من ذلك عند جريان معصيته عليه ، ولذا قال النبي (ص) : لم أر مثل النار نام هاربها ، ولم أر مثل الجنة نام طالبها . وهكذا الصدق في الرجاء كما تقدم في محله .

وقد يكون العبد صادقاً في جميع الأمور ، فيسمى صديقاً ، وقد يكون في بعض دون بعض فيضاف الى ذلك البعض ، بأن يسمى صادق القول أو العمل .

وفي مصباح الشريعة : قال الصادق (ع) : اذا أردت أن تعلم أصادق أنت أم كاذب فانظر في قصد معناك وغور دعواك وغيرها بقسطاس من الله عز وجل كأنك في القيامة ، قال الله : « والوزن يومئذ الحق » ، فاذا اعتدل معناك بدعواك ثبت لك الصدق .

وأدنى حد الصدق أن لا يخاف اللسان القلب ولا القلب اللسان . ومثل الصادق الموصوف بما ذكرنا كمثل النازع روحه ان لم ينزع ، فماذا يصنع ؟!

الباب الحادي عشر

فى المحاسبة والمراقبة

وفيه فصلان :

(الفصل الأول)

فى المحاسبة

قال الله تعالى : « وكفى بنفسك اليوم حسيباً » وقال تعالى : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وان كان مثقال حبة من خردل اتينا بها وكفى بنا حاسبين » وقال تعالى : « ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً » وقال تعالى : « يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد » وقال تعالى : « يومئذ يصدر الناس اشتاتاً ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

فعلم أرباب البصائر ان العليم بالسرائر والمطلع على الضمائر سيحاسبهم على الصغير والكبير والجليل والحقير والنقير والقطمير ، وعلى مثاقيل الذر من اللحظات والخطرات والغفلات والالتفاتات ، ولا ينجيهم من هذه الأخطار العظيمة والأهوال الجسيمة الا محاسبة أنفسهم في الدنيا قبل أن يحاسبوا فى القيامة .

قال الصادق عليه السلام : اذا أراد أحدكم أن لا يسأل ربه شيئاً الا أعطاه فلييأس من الناس كلهم ، ولا يكون له رجاء الا من عند الله ، فاذا علم الله ذلك من قلبه لم يسأله شيئاً الا أعطاه ، فحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا عليها ، فان للقيامة خمسين موقفاً كل موقف مقام ألف سنة ، ثم تلا (ع) :

« في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » .

وفي رواية اخرى : ينبغي أن يكون للعاقل أربع ساعات : ساعة يحاسب بها نفسه ...

وفي مصباح الشريعة : قال الصادق (ع) : لو لم يكن للحساب مهولة إلا حَياء العَرض على الله عز وجل وفضيحة هتك الستر على المخفيات يحق للمرء أن لا يهبط من رؤوس الجبال ولا يأوى الى عمران ، ولا يشرب ولا ينام إلا عن اضطرار ، ومثل ذلك يفعل من يرى القيامة بأهوالها وشدائدها قائمة في كل نفس ، ويعاين بالقلب الوقوف بين يدي الجبار ، حينئذ يأخذ نفسه بالمحاسبة ، كأنه الى عرصاتها مدعوو في غمراتها مسؤول ، قال الله عز وجل : « وان كان مثقال حبة من خردل اتينا بها وكفى بنا حاسبين » .

واعلم ان معنى المحاسبة ان يطالب نفسه أولاً بالفرائض التي هي بمنزلة رأس ماله ، فان أداها على وجهها شكر الله عليه ورغبها ومثلها ، وان فوتها من أصلها طالبها بالقضاء ، فان ادتها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل ، وان ارتكبت معصية اشتغل بعتابها وتعذيبها ومعاقبتها ، واستوفى منها ما يتدارك به ما فرط ، كما يصنع التاجر بشريكه ، فكما انه يفتش في حساب الدنيا عن الحبة والقيراط فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان حتى لا يغبن بشيء منها ، فينبغي ان يتقي غائلة النفس ومكرها ، فانها خداعة ملبسة مكارة ، فليطالبها أولاً بتصحيح الجواب عن جميع ما يتكلم به طول نهاره ، وليتكفل بنفسه من الحساب ما سيتولى غيره في صعيد القيامة .

وهكذا عن نظره ، بل عن خواطره وأفكاره وقيامه وقعوده وأكله وشربه ونومه ، حتى عن سكوته لمَ سكت وعن سكونه لمَ سكن ، فاذا عرف مجموع الواجب على النفس وصح عنده قدر ما أدى الحق منه كان ذلك القدر محسوباً له ، فيظهر له الباقي عليها ، فليثبته عليها وليكتبه على صحيفة

قلبه كما يكتب الباقي الذي على شريكه على قلبه وعلى جريدته .

ثم النفس غريم يمكن أن يستوفى منه الديون ، اما بعضها فبالغرامة والضمان ، وبعضها برد عينه ، وبعضها بالعقوبة له على ذلك ، ولا يمكن شيء من ذلك الا بعد تحقيق الحساب وتمييز الباقي من الحق الواجب عليه ، فاذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء .

قال الكاظم عليه السلام : ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم ، فان عمل حسنة استزاد الله وان عمل سيئة استغفر الله منها وتاب اليه .

وقال الباقر عليه السلام : لا يغرنك الناس من نفسك ، فان الأمر يصل اليك دونهم ، ولا تقطع نهارك بكذا وكذا فان معك من يحفظ عليك عملك فأحسن فاني لم أر شيئاً أحسن دركاً ولا اسرع طلباً من حسنة محدثة لذنب قديم .

وقال الصادق عليه السلام : ان رجلاً اتى النبي (ص) فقال له : يا رسول الله أوصني . فقال له رسول الله (ص) : فهل أنت مستوص اذا أنا أوصيتك؟ حتى قال له ذلك ثلاثاً وفي كلها يقول له الرجل : نعم يا رسول الله . فقال له رسول الله (ص) : فاني أوصيك اذا أنت هممت بأمر فتدبر عاقبته ، فان يك رشداً فامضه ، وان يك غياً فانته عنه .

(الفصل الثاني)

في المراقبة

ينبغي للعبد أن يراقب نفسه عند الخوف في الأعمال ، ويلاحظها بالعين الكالئة ، فانها ان تركت طغت فأفسدت وفسدت ، ثم يراقب الله في كل حركة وسكون ، وذلك بأن يعلم بأن الله مطلع عليه وعلى ضمائره خبير بسرائره ، رقيب على اعمال عباده ، قائم على كل نفس بما كسبت ، وان سر القلب في حقه مكشوف كما ان ظاهر البشرة للخلق مكشوف ، بل أشد من ذلك ،

قال الله تعالى : « ألم يعلم بأن الله يرى » وقال تعالى : « ان الله كان عليكم رقيباً » •

وقال النبي (ص) : الاحسان ان تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك •

وفي الحديث القدسي : انما يسكن جنات عدن الذين اذا هموا بالمعاصي ذكروا عظمتي فراقبوني ، والذين انحنت أصلابهم من خشيتي ، وعزتي وجلالي اني لأهم بعذاب أهل الأرض فاذا نظرت الى أهل الجوع والعطش من مخافتي صرفت عنهم العذاب •

وحكي ان زليخا لما خلت بيوسف قامت فغطت وجه صنمها ، فقال يوسف: مالك تستحين من مراقبة جماد ولا استحي من مراقبة الملك الجبار •

والمراقبة تحصل من معرفة الله ، والعلم بأنه تعالى مطلع على الضمائر عالم بما في السرائر ، بمرئى منهم وبمسمع ، وهم بمرأى منه ومسمع •

والموقنون بهذه المعرفة مراقبتهم على درجتين :

(احداهما) — مراقبة المقربين ، وهي مراقبة التعظيم والجلال ، وهي ان يصير القلب مستغرقاً بملاحظة ذلك الجلال ومنكسراً تحت الهيبة ، فلا يبقى فيه متسع للالتفات الى الغير ، وهذا هو الذي صار همه هماً واحداً وكفاه الله سائر الهموم •

(والثانية) — مراقبة الورعين من أصحاب اليقين ، وهم قوم غلب يقين اطلاع الله على ظواهرهم وبواطنهم ولكن لم يدهشهم ملاحظة الجمال والجلال بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال متسعة للتلفت الى الأحوال والأعمال والمراقبة فيها ، وغلب عليهم الحياء من الله فلا يقدمون ولا يحجمون الا بعد التثبت ، ويمتنعون عن كل ما يفتضحون به في القيامة ، فانهم يرون الله مطلعاً عليهم ، فلا يحتاجون الى انتظار القيامة •

فان العبد لا يخلو إما أن يكون في طاعة أو معصية أو مباح ، فمراقبته في الطاعة بالاخلاص والاكمال ومراعاة الأدب وحراستها عن الآفات ، ومراقبته في المعصية بالتوبة والندم والاقلاع والحياء والاشتغال بالتكفير ، ومراقبته في المباح بمراعاة الأدب ، بأن يقعد مستقبل القبلة وينام على اليد اليمنى مستقبلاً الى غير ذلك ، فكل ذلك داخل فى المراقبة ، وبشهود المنعم في النعمة وبالشكر عليها ، وبالصبر على البلاء ، فان لكل واحد منها حدوداً لابد من مراعاتها بدوام المراقبة « ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه » .

الباب الثاني عشر

فى التفكر والتدبر

قال الله تعالى : « ويتفكرون في خلق السموات والأرض » وقال تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » .

وقال النبي (ص) : تفكر ساعة خير من عبادة سنة .

وقال أمير المؤمنين (ع) : التفكر يدعو الى البر والعمل به .

وقال عليه السلام : نبه بالتفكر قلبك ، وجاف عن الليل جنبك ، واتق الله ربك .

وقال النبي صلى الله عليه وآله : تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله ، فانكم لن تقدروا قدره .

وقال الباقر عليه السلام : اياكم والتفكر في الله ، ولكن اذا أردتم أن تنظروا الى عظمته فانظروا الى عظم خلقه .

وقال الصادق عليه السلام : من نظر في الله كيف هو هلك .

واعلم ان التفكر الذي أشار اليه أمير المؤمنين عليه السلام انه يدعو الى

البر والعمل به قد يكون في الحسنات والسيئات بأن يتفكر العبد في حسناته هل هي تامة أو ناقصة ، موافقة للسيئة أو مخالفة لها ، خالصة عن الشرك والشك أو مشوبة بهما ، فيدعوه هذا التفكير لا محالة الى اصلاحها وتدارك ما فيها ، وكذا اذا تفكر في سيئاته وما يترتب عليها من العقوبات والبعد عن الله ، فيدعوه ذلك الى الانتهاء عنها وتداركها بالتوبة والندم .

وقد يكون بالتفكر في صفات الله وأفعاله ، من لطفه بعباده واحسانه اليهم بسوابغ النعماء وبسطة الآلاء ، والتكليف دون الطاقة ، والوعد بالثواب الجزيل والثناء الجميل على العمل الحقير القليل ، وتسخيره له ما في السماوات والأرض وما بينهما ونحو ذلك ، فيدعوه ذلك الى البر والعمل به ، والرغبة في الطاعات والانتهاء عن المعاصي .

وهذا تفكير المتوسطين ، واليه الاشارة بقول الرضا عليه السلام : ليس العبادة كثرة الصلاة والصوم ، انما العبادة التفكر في أمر الله .

وسئل الصادق عليه السلام عما يروي الناس « ان تفكر ساعة خير من قيام ليلة » قيل : كيف يتفكر ؟ قال : تمر بالخربة أو بالدار فتقول : أين ساكنوك وأين بانوك مالك لا تتكلمين ؟

وهذا التفكر دون الأولين في الفضل ، وللناس فيه مراتب .

الباب الثالث عشر

في ذكر الموت وقصر الأمل

قال الله تعالى : « كل نفس ذائقة الموت وانما توفون اجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وادخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور » .

وقال النبي (ص) : أكثر واذكرها دم اللذات . قيل: وما هو يا رسول الله؟ قال : الموت ، فما ذكره عبد على الحقيقة في سعة الا ضاقت عليه الدنيا ، ولا في

شدة الا اتسعت عليه •

وقال (ص) : الموت كفارة لكل مسلم •

وقال (ص) : تحفة المؤمن الموت •

وقال (ص) : الموت الموت ، ألا ولابد من الموت ، جاء الموت بما فيه ، جاء بالروح والراحة والكرّة المباركة الى جنة عالية ، لأهل دار الخلود الذين كان لها سعيهم وفيها رغبتهم •

وقال أمير المؤمنين (ع) : ما أنزل الموت حق منزلته من عدّ غداً من أجله •

وقال (ع) : ما أطال عبد الأمل الا أساء العمل •

وكان يقول : لو رأى العبد أجله وسرعته اليه لأبغض العمل من طلب الدنيا •

وقيل للباقر (ع) : حدثني ما انتفع به • قال : أكثر ذكر الموت ، فانه لم يكثر ذكره انسان الا زهد في الدنيا •

وقال الصادق (ع) : اذا أنت حملت جنازة فكن كأنك أنت المحمول ، وكأنك سألت ربك الرجوع الى الدنيا ففعل ، فانظر ماذا تستأنف • ثم قال : عجباً لقوم حبس أولهم عن آخرهم ثم نودي فيهم بالرحيل وهم يلعبون •

وقال (ع) : ما خلق الله يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت•

واعلم ان الموت هائل وخطره عظيم ، وغفلتنا عنه لقلة فكرنا وذكرنا له ، واذا ذكرناه فلسنا نذكره بقلب فارغ بل بقلب مشغول بشهوات الدنيا ، والطريق فيه تفريغ العبد قلبه عن كل شيء الا عن ذكر الموت الذي بين يديه كالذي يريد أن يسافر الى مفازة مخطرة أو يركب البحر فانه لا يتفكر الا فيه ، فاذا باشر ذكر الموت قلبه فيوشك أن يؤثر فيه ، وعند ذلك يقل فرحه وسروره بالدنيا وينكر قلبه •

واوقع طريق فيه أن يكثر ذكر أقانه الذين مضوا قبله ، فيتذكر موتهم

ومصرعهم تحت التراب ، ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم ، وكيف تبددت أجزاؤهم فى قبورهم ، وكيف ارملوا نساءهم وأيتموا أولادهم وضيعوا أموالهم وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم ، وانقطعت آثارهم ، وأوحشت ديارهم •

ومهما تذكر رجلاً رجلاً وفصل في قلبه حالــه وكيفية حياته وتوهم صورته وتذكر نشاطه وتردده وأمله فيالعيش والبقاء ونسيانه للموت وانخداعه بمواتاة الأسباب وركونه الى القوة والشباب وميله الى الضحك واللهو وغفلته عما بين يديه من الموت الذريع والهلاك السريع ، وانه كيف كان يتردد والآن قد تهدمت رجلاه ومفاصله ، وكيف كان ينطق وقد أكل الدود لسانه ، وكيف كان يضحك وقد أكل التراب أسنانه ، وكيف كان يدبر لنفسه ما لا يحتاج اليه الى عشر سنين في وقت لم يكن بينه وبين الموت الا شهر ، وهو غافل عما يراد به حتى جاءه الموت في وقت لا يحتسبه ، فانكشفت له صورة ملك الموت ، وقرع سمعه النداء إما بالجنة أو بالنار فعند ذلك ينظر في نفسه انه مثلهم وغفلته كغفلتهم ، والسعيد من اتعظ بغيره •

والذاكرون للموت على أقسام : فمنهم المنهمك في اللذات المنكب على الشهوات ، فهو ان اتفق ذكره للموت تأسف على دنياه واشتغل بمذمته وفرّ منه غفلة عن قوله تعالى : « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة » وقوله تعالى : « قل ان الموت الذي تفرون منه فانه ملاقيكم » ويزيده ذكر الموت من الله بعداً • نعم ربما استفاد تنغص نعيمه وتكدر لذته ، فيتجافى عن الدنيا •

(ومنهم) التائبون الذين يكثرون ذكر الموت لينبعث من قلوبهم الخوف والخشية فيفوا بتمامالتوبة ، وربما كرهوا الموت خيفة من ان يختطفهم قبل تمام التوبة وقبل اصلاح الزاد ، وهم معذورون في كراهة الموت غير داخلين

في قوله عليه السلام : « من كره لقاء الله كره الله لقاءه » لأنهم يخافون فوت لقاء الله للقصور والتقصير ، فهم كالذي يتأخر عن لقـاء الحبيب مشتغلاً بالاستعداد للقائه على وجه يرضاه ، فلا يعدّ كارهاً للقائه ، وعلامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له .

(ومنهم) العارفون الذين يكثرون ذكر الموت ، لأنه موعد للقاء الحبيب والمحب لا ينسى موعد لقاء حبيبه وينبغي أن لا يحبوا الموت الا لأجل التزود من الأعمال وتحسين الأخلاق والأحوال .

(ومنهم) ـ وهو الأعلى ـ المفوضون ، وهم الذين يفوضون أمرهم الى الله ولا يختارون لأنفسهم موتاً ولا حياةً ، وأحب الأشياء لديهم ما يختار لهم مولاهم .

الباب الرابع عشر
فى طول الأمل

قال النبي (ص) : اذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء ، واذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح ، وخذ من دنياك لآخرتك ، ومن حياتك لموتك ، ومن صحتك لسقمك ، فانك لا تدري ما اسمك غداً .

وقال (ص) : ان أشد ما أخاف عليكم خصلتان : اتباع الهوى ، وطول الأمل . فأما اتباع الهوى فانه يعـدل عن الحق ، وأما طول الأمل فانه يحبب الدنيا .

وقال (ص) : أيها الناس اما تستحون من الله ؟ قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : تجمعون ما لا تأكلون ، وتأملون ما لا تدركون ، وتبنون ما لا تسكنون .

وطول الأمل له سببان : أحدهما الجهل ، والآخر حب الدنيا . فانه اذا أنس بها وشهواتها ولذاتها وعلائقها ثقلت على قلبه مفارقتها ، فامتنع قلبه عن

الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها ، وكل من كره شيئاً رفعه من نفسه والانسان مشغوف بالأماني الباطلة ، فتمنى نفسه أبداً ما يوافق مراده وهو البقاء في الدنيا ، فلا يزال يتوهمه ويقرره في نفسه ويقدر توابع البقاء وما يحتاج اليه من مال وأهل ودار وأصدقاء ودواب وسائر أسباب الدنيا ، فيصير قلبه معكوفاً عليها ويلهو عن ذكر الموت •

وأصل هذه الأماني كلها حب الدنيا ، وأما الأمل فان الانسان قد يعوّل على شبابه فيستبعد قرب الموت مع الشباب ، وليس يتفكر المسكين في ان مشائخ بلده لو عدوا لكانوا أقل من عشر أهل البلد ، وانما قلوا لأن الموت في الشباب أكثر ، والى ان يموت شيخ يموت ألف صبي وشاب •

وقد يستبعد الموت لصحته ويستبعد الموت فجأة ولا يدري ان ذلك غير بعيد ، وان كان بعيداً ففجاء المرض غير بعيد ، وكل مرض فانما يقع فجأة ، واذا مرض لم يكن الموت بعيداً والموت ليس له وقت مخصوص من شباب وشيب وكهولة ، ومن صيف وشتاء وخريف وليل ونهار ، لعـدم اشتغاله بالاستعداد واستشعاره •

وعلاج الجهل الفكر الصافي من القلب الحاضر وسماع الحكمة البالغة من القلوب الطاهرة ، وعلاج حب الدنيا الايمان باليوم الآخر وما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب ، واذا حصل اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا • وقد تقدم في الزهد وحب الدنيا ما فيه بلاغ •

نسأل الله أن يحسن عملنا ، ويقصر أملنا ، ويخرج حب الدنيا عن قلبنا ، ويحبب الينا لقاءه ، ويوفقنا للأعمال الصالحة بحمد الله •

والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً •

تم في يوم الأربعاء سابع وعشرين ربيع الأول سنة ١٢٢٥ ألف ومائتين وخمس وعشرين من الهجرة النبوية صلى الله عليه وآله •

فهرست الكتاب

صفحة

المقدمة . ترجمة المؤلف ، مشائخه ، تلامذته ، مصنفاته ، كراماته ، أقوال العلماء فيه .

٥ حسن الخلق وأثره ، ونفحة من أخلاق النبي (ص) وسيرته الكريمة وشمائله الفاضلة .

١٠ كيفية تهذيب الأخلاق والآيات القرآنية في ذلك ، مكانة الاخلاق في الاسلام .

١٧ الاخلاص في العمل أساس النجاح ، وحسن النيـة أول الايمان ، والفضائل مقياس المسلم .

٢٣ تطهير الباطن قبل تطهير الظاهر ، الانسان أفكاره وآراؤه لا صورته وأعضاؤه .

٢٥ فضل السواك وأثره على الصحة وموقف الاسلام من ذلك ، والحياة هي الاسلام ، والاسلام هو الحياة .

٢٦ أسرار تشريع الوضوء والغسل والتيمم ، وأثر الطهارة في الاسلام .

٣٠ في الأذان واحضار القلب ولباس الصلاة للمصلين وما يتبع ذلك من واجبات .

٣٦ أركان الصلاة وأحوالها وشرائطها وآدابها وفلسفة تشريعها .

٥٥ الحكمة من صلاة الجمعة والعيدين والآيات ، وفلسفة هذه الاجتماعات

٥٨ فضل القرآن وآداب التلاوة والتدبر في معانيه والتفكر في أساليبه .

٦٢ آداب الدعاء وأثر ذلك على النفس وهدوئها والراحة الفكرية والجسدية .

صفحة

٦٣ دعامة الزكاة وأثرها في المجتمع وتنمية المال ، وبالزكاة نظام المجتمع •
٦٧ أسرار الصوم وآدابه والحكمة من تشريعه وأقسامه •
٧١ فلسفة الحج وأثر زيارة المشاهد المشرفة والعتبات المقدسة •
٧٣ آداب الحج والاعتبار بذلك في جميع الأركان وفلسفة رمي الجمار •
٧٩ آداب الجوارح نحو الله • رسالة الحقوق للامام زين العابدين (ع) •
٨٥ آداب المجالسة والمعاشرة وحقوق الناس العامة والخاصة وتأسيس الروابط الودية بين أفراد المجتمع •
٨٨ دعوة الاسلام للإلفة والوئام وربط الامة برباط الحب والاخاء •
٩٢ حقوق الأصدقاء والأخلاء وآداب أهل البيت بذلك وسيرتهم مع أصحابهم •
٩٣ مراتب الصداقة وحقوق الصحبة وسرد أمثلة لذلك وشواهد •
٩٦ حقوق المسلم والمؤمن وتقسيم ذلك وبيان واف لمعرفة ذلك •
١٠٢ نموذج من أخلاق أهل البيت وسيرتهم مع الاخوان الجلساء •
١١٠ قصص وشواهد على سمو آدبهم وأخلاقهم ومراعاتهم لحقوق الصحبة•
١١٢ حقوق الجار وآداب الجوار والاستدلال بسيرة النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام •
١١٤ حقوق الأقارب والرحم وما يلزم المسلم حتى مع غير المسلم •
١١٥ حقوق الوالد والولد ونظرة الاسلام العادلة في تبادل الحقوق بين الآباء والأبناء •
١١٨ الاسلام يضمن حق المملوك ويعتبره مساو لغيره في الحقوق •
١١٩ الحقوق الزوجية وآداب المعاشرة وواجب كل منهما تجاه الآخر •
١٢٠ موقف الاسلام من العزلة والمخالطة واتخاذ المعارف وتحقيق في ذلك •

صفحة

١٢٣ مضار الاسترسال في الشهوات وذم البطنة والشره .

١٢٧ الغريزة الجنسية والشهوة الحيوانية ومضار الافراط .

١٢٩ حفظ اللسان والحذر من اطلاقه ووصايا أهل البيت بذلك .

١٣٠ آفات اللسان وتعدادها ، النميمة والغيبة ونظائرهما من سوء الاخلاق .

١٤٠ مضار الغضب وسوء مغبته ووخامة عاقبته وما ينتج من أضرار .

١٤٣ الغضب ، محاسنه ومساوؤه ، علاجه .

١٤٧ الحقد ومساوؤه ، منابعه وآثاره أقوال الحكماء والأئمة المعصومون .

١٤٩ الحسد وتعريفه ، أثره في المجتمع ، الدواء الناجع لمكافحته .

١٥٥ الرياء في الأعمال ، حملة الاسلام ضد المرائين ، الآيات والأخبار في التحذير منه .

١٥٧ تحديد الرياء والسمعة ، أقسام الرياء والتحذير من جليه وخفيه .

١٥٨ أقوال الفلاسفة في درجات الرياء وأنواعه .

١٦٣ سبب الرياء ، علاجه .

١٦٤ العجب والفرق بينه وبين الادلال ، ما ورد في ذمه ، تفصيل البحث .

١٧٠ التكبر وتعريفه ، مساوؤه ، أنواعه ، كيف يختبر الانسان نفسه .

١٧٨ تعريف الدنيا والآخرة ، الدنيا المذمومة والممدوحة .

١٨١ ما ورد في ذم الدنيا ، ما ورد عن الأنبياء والحكماء فيها .

١٨٥ المال خير أم شر ، موقف الاسلام من المال وتحقيق لطيف .

١٨٨ ما هو الفقر ، وهل هو خير أم شر ، بحث علمي .

١٨٩ تعريف الجاه وحبه وعلاج حب الجاه ، حب الثناء .

١٩٥ الغرور ، تعريفه ، أقسام المغرورين ، جهات الغرور .

٢٠٧ التوبة وفضلها ، حقيقتها ، فلسفتها ، المبادرة الى تحقيقها .

صفحة

٢١٧ متى تصغر الكبائر وتكبر الصغائر ٠
٢٢٠ تجزئة التوبة ، أقسام العباد فيها ، طرق التوبة ٠
٢٢٥ الصبر وأقسامه ، الآيات والأخبار فيه ، شواهد من أحوال الأنبياء ٠
٢٣١ علاج الصبر ، كلام الحكماء والعظماء في فضله ٠
٢٣٢ الرضا بالقضاء ٠ شواهد من القرآن والأحاديث ٠
٢٣٥ شكر النعم ، حده وحقيقته ، ما هو الشكر لله ٠
٢٤١ الطريق الى شكر الله ، من لم يشكر الخالق لم يشكر المخلوق ٠
٢٤٢ تعادل الرجاء والخوف ، تعريف ذلك ، وكلام الفلاسفة ٠
٢٥٦ تعريف الزهد ، حقيقته ، أقسامه ومراتبه ٠
٢٦١ محبة الله تعالى والانس بذلك ، حقيقة الحب ، والشواهد على ذلك ٠
٢٦٧ معنى حب الله لعبده ، الطريق الى حب الله ، بحث عرفاني ٠
٢٦٩ تعريف اليقين ، مراتب اليقين ودرجاته ٠
٢٧٣ التوكل وفضله ، حقيقته ، درجات التوكل ٠
٢٨٠ الصدق والأمانة أساس النجاح في الفرد والمجتمع ٠
٢٨٤ مراقبة النفس ومحاسبتها ، السعي على يقظتها ٠
٢٨٨ التفكر والتدبر وأثرهما على الانسان ٠
٢٨٩ رهبة الموت ، لاستعداد للموت ، الحذر من مفاجأة الموت ٠
٢٩٢ طول الأمل مبعث الشرور والغرور ٠
٢١٤ أقسام الذنوب ، كبائرها وصغائرها وتعداد ذلك ٠

مطبعة النعمان ـ النجف الاشرف

هذا الكتاب الجليل يحتوي على دراسات تربوية ومحاضرات اخلاقية فى محاسن الاخلاق ومساوئها ، وهو كالطبيب النفساني والمتاله الروحاني ، يشخص الداء ويصف الدواء ويحرص على الشفاء ويدعم آراءه بالشواهد العقلية والنقلية ويؤيدها بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية واقوال الحكماء والفلاسفة ولا عجب فهو من نفثات يراع عالم كبير ومؤلف شهير وعبقري قد تشهد له مؤلفاته الكثيرة الشهيرة مخطوطة ومطبوعة بطول الباع وسعة الاطلاع هو السيدعبدالله شبر قدس الله نفسه الطاهرة .

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library
32101 074334937